ومن ذلك ما قد بان منهم مما كانوا عليه من الكمال، والمعرفة والعقول والتمييز في كل حال، فإن قالوا: إن الله طبع على قلوبهم وختم على سمعهم وأبصارهم عما جاء به الرسول من الحكمة والقول فقط، وخلوا وما سوى ذلك؛ فقد وقعوا في أعظم مما كرهوا من المهالك؛ إذ زعموا أن الله سبحانه ختم - عن شيء بعينه - على سمعهم وأبصارهم فلا يبصرونه ولا يسمعونه، وطبع على قلوبهم فلا يفقهونه ولا يميزونه، ثُمَّ أرسل نبيه صلى الله عليه وآله يدعوهم إلى مغالبته ونفي ما فعل بهم، وركب فيهم وتغييره - تعالى الله عن ذلك - وازاحته عن أنفسهم، إذ كان قد أرسله إليهم يدعوهم إلى الإيمان، والاهتداء والخير والبر والإحسان، والطاعة له ولنبيه والاستماع لأمرهما، والعمل بالقول وباللسان والضمير بطاعتهما؛ وقد علم أنهم لا يقدرون على ذلك، فنسب من قال بهذا؛ إلى الله العبث والاستهزاء بنبيه صلى الله عليه وآله، وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاهم يدعوهم إلى المحال، ويأمرهم بالمغالبة والدفع لما فعل فيهم ذو الجلال.

(٣٦٣/١)

ألا تسمع كيف قد أثبت لهم الفهم بما يقال لهم، والمعرفة بما يتلى عليهم؛ في قوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: ٢٥]، فأخبر الله الواحد الجليل، فيما أوحى ونزل من التنزيل؛ أن الهدى قد تبين لهم، وصح لديهم وثبت في قلوبهم، ولولا سلامة القلوب من الختم الذي يذهب إليه الجاهلون، ويقول به على الله سبحانه الظالمون، لم يثبت أبداً في قلوبهم الهدى، ولو لم يثبت لم يبن، ثُمَّ أخبر الله ما سبب ارتدادهم في الطغيان، ومعصيتهم من بعد أن بين لهم ذلك الرحمن؛ فقال: {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}، ولم يقل: الرحمن ردهم وأضلهم، ثُمَّ أخبر بالسبب الذي كان عنهم؛ فتمكن - إذ قالوه - الشيطان منهم، فقال سبحانه: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد: ٢٦].
ثُمَّ أخبر بما يصيرون عليه عند موتهم؛ من ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم؛ فقال: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [محمد: ٢٧]. ثُمَّ أخبر لم فعل ذلك بهم، وحتم عليهم بضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم؛ فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٢٨]. ثُمَّ قال: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [محمد: ١٠].

(٣٦٤/١)

أفيظن أحد ممن وهب لباً، وتمييزاً وعلما؛ أن الله سبحانه أوجب ما أوجب عليهم، وذكر ما ذكره عنهم، وأمرهم بالمسير في الأرضين، والنظر في آثار الأولين؛ ممن هلك بما هم عليه من الكفران؛ وبما يختارونه من الفجور والعصيان، ولم يجعل لهم إلى ذلك سبيلاً، ويركب إليهم فيه دليلاً، وهم لا يقدرون على ذلك لما قد فعله بهم من الختم على أسماعهم وأبصارهم، والطبع على قلوبهم التي بها يعقلون، وبسلامته، يميزون ويفهمون؟ كذب العادلون بالله، والقائلون بالزور على الله، بل سلم ذلك لهم، ووفره(١) لإكمال الحجة عليهم، ثُمَّ أمرهم بالتسديد، وما ربك بظلام للعبيد.
ثُمَّ نذكر من بعد دفع هذه المهالك، ونشرح الصدق بما علمنا الله من ذلك؛ فنقول: إن معنى الختم والطبع من الله تبارك وتعالى هو على معنى التمثيل لهم، والتقريع واثبات الحجة عليهم، وتبيين ضلالتهم لهم، فيقول سبحانه: إن امتناعكم من قول الرشد وقلة قبولكم له كمن طبع على قلبه، بما منعه من لبه، وحرمه من تمييزه ونظره

وجودة فهمه، وبما عدم من النظر، والغوصان في بحور الفكر؛ من البهائم التي قد منعها الله من ذلك كله، إذ لم يجعل لها عقولاً تميز بها، فلما أن لم يجعل لها سبيلاً إلى ما يناله البشر؛ من العقل والفهم والتمييز والنظر؛ كان ذلك منه فيها فعلاً، وكان منه طبعاً على قلوبها؛ عما فهمه من التمييز أربابها.

فمثلهم في قلة تفهمهم وإنصافهم لمعقولهم، وتركهم لرشدهم واتباعهم لغيهم؛ بمن طبع على قلبه، وختم - عن التمييز - على سمعه وبصره، عن أن تعلم ما يعلمون، أو تفهم ما يفهمون؛ من البهائم التي جعلت قلوبها على غير ما جعلت قلوبهم من ذلك، وختم عليها فكانت بهائم سوائم كذلك.

---

(١) في (أ): وقرره.

(٣٦٥/١)

ألم تر كيف يقول ذو العزة والإنعام: {أولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]؟ وقال: {إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان: ٤٤]، يقول: إذ أعطوا من الفهم والتمييز والنظر(١)، وجودة التحرف(٢) في غامض الفكر؛ مالم تعطه البهائم، وما قد حجبها عنه العزيز العالم، وخلقها على غيره من الخلق، وصورها على ما قد يراه جميع الخلق، فأبوا استعمال ما ركب فيهم، وأمتن الله به سبحانه عليهم، وتركوا النصفة وأخذوا في المكابرة والمعاندة لربهم، والكفر لنعمة خالقهم، فكانوا لذلك وفيه أضل من الأنعام، إذ تركوا ما لو علمته الأنعام وعرفته، وميزته وفهمته، لقبلته ولسارعت إليه، ولدخلت بأجمعها فيه ثُمَّ لثابرت إلى الممات عليه.

فهذا والحمد لله قول لا ينكسر على من قال به بل يضح، وينير لذوي العقول ويستبين ويصح.

---

(١) في (ط): والنطق.

(٢) كذا في (أ، ب)، ولعلها تصحفت عن: التصرف.

(٣٦٦/١)

وقد يخرج ذلك على معنى آخر، فيكون على قدر علمه منهم بما سيكون من اختيارهم للضلال، وإيثارهم للسفال(١)، وتركهم للهدى، وقلة رغبتهم في التقى، وأنهم للعنتهم(٢) وحميتهم، وشدة حسدهم لنبيهم؛ لايختارون ما جاء به من الله (براً بهم) (٣) وأنهم لا يطيعونه فيما دعاهم - من حظهم - إليه، وأنهم سيجاهرون بالجرأة عليه، فلما أن علم الله منهم أنهم يختارون - بما ركب فيهم من القدرة والاستطاعة، وسلم لهم من الجوارح والآلة - معصيته على طاعته، ومخالفته على مرضاته، وأنهم يلقونه يوم الحشر كفاراً كذلك، فختم لهم - إذ قد علم (صيورة أمرهم - بذلك، فكان الختم منه علينا، إخباراً منه بما علم)(٤) من غاية أمرهم(٥)، فختم عليها ولها؛ بما علم أنَّه يكون آخر اختيارها وعملها. وكذلك قيل في محمد سيد المرسلين، إنَّه صلى الله عليه وآله خاتم النبيين، فسمي خاتمهم إذ كان آخرهم، فلما أن علم الله آخر أعمالهم، وما عليه يكون فناء آجالهم؛ ختم بذلك عليهم، ودعاهم به وذكره عنهم وفيهم، فكان ذلك العمل منهم اختياراً، وكان ما قال الله فيهم منه إخباراً.

---

(١) في (أ): للمقال.

(٢) في (أ): لتعاميهم.

(٣) ليست في (أ)، وفي (ب): برأيهم.

(٤) ما بين القوسين سقط من (ط).

(٥) في (أ): أمرها.

(٣٦٧/١)

وأما ما ذكر الله من الطبع على قلب من على قلبه طبع، فسنقول فيه بوجهٍ من قال به إن شاء الله أصاب، ووجده بيناً نيراً في اللسان والإعراب، وهو ما تقول به العرب لمن ذكر في ملأ من الناس عن إنسان شيئاً مما يفعله ويكتسبه ويصنعه من الردى والخنا: يا فلان، طبعت ويحك فلاناً وأفسدته، وطرحته بما طبعته به من أعينهم. فعلى ذلك يخرج الطبع من الله لقلوب الفاسقين، عند ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وعباده المؤمنين، فيكون طبعه لها عندهم؛ هو: ما ذكر وأخبر به عنها من باطن أسرارها، وفاحش إضمارها(١) وفسادها، وقلة قبولها للحق واهتدائها، وكفرها بربها وحسدها لنبيها، وبما فيها من الدغل والعداوة لخاتم النبيين، والمشاقة لرب العالمين، والمنافقة للمؤمنين، والصد عن سبيل أحكم الحاكمين، كما قال أصدق الصادقين: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٢٠]، فيكون ما قص عنهم من قصصهم، وأخبر به من الضلالة عنهم، ومن الحيرة(٢) والتكمه، والجهالة، والكفر والشقاق(٣) والسفالة، وما سماهم به من ذلك ودعاهم؛ طبعاً(٤) طبعهم به.

فهذا والحمد لله حجة فيما سأل عنه من الختم والطبع شافية، مجزية لمن أراد الحق من جميع الناس كافية. والحمد لله على توفيقه، ونشكره على تسديده.

(١) في (أ): ضميرها.
(٢) في (أ): الجراءة.
(٣) في (ط): والنفاق.
(٤) خبر يكون.

(٣٦٨/١)

وكذلك يقول المحقون، لا ما قال في الله المبطلون: إنَّه سبحانه ختم على الأسماع فلا تسمع، وعلى الأبصار فلا تنفع، وأنه على قلوب الكافرين طبع، ثُمَّ أمرهم بخلاف ما فعل بهم، وكلفهم فعل ما منه منعهم، وعنه سبحانه حجزهم، ثُمَّ عذبهم على ترك مالا يقدرون على فعله؛ لما قد حجزهم عنه به من طبعه وختمه، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وخسر المبطلون خسراناً مبيناً. تم جواب مسألته.

المسألة الرابعة عشرة:

الزيادة في المرض في قلوب المنافقين

ثُمَّ اتبع ذلك المسألة عن الزيادة، فقال: خبرونا عن الزيادة، فإن الله يقول: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: ٨ - ١٠]، وقوله لقوم: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَمَا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ} [التوبة: ٧٦]، (ألستم تعلمون أن الله زاد هؤلاء(١) مرضاً، ومد آخرين في طغيانهم يعمهون، وأعقب قوماً نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه)(٢)؟ فإن قالوا: نعم، ولكنه صنع ذلك بهم عقوبة بذنوبهم، فيقال لهم: فنعم، أفليسوا معذورين بما عملوا من معصيته حين فعل بهم ذلك؟ فإن قالوا: لا، فقل: فقد دخلتم فيما عبتم؛ إذ زعمتم أن الله يعذب قوماً على ما لم يستطيعوا تركه، لأنَّه فعل ذلك بهم. تمت مسألته.

جوابها

(١) في (ط): زادها.
(٢) سقط من (ب) سهواً.

(٣٦٩/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه، وتوهم فيه من التجوير له في فعله، فقال: خبرونا عن الزيادة التي ذكرها الله سبحانه، وعظم عن كل شأن شأنه، حين يقول سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وعن قول الله سبحانه: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}.
فسنجيب إن شاء الله في ذلك من الجواب؛ بما يقبله ذووا الإنصاف والألباب، فنقول في ذلك على الله سبحانه بالصواب.

(٣٧٠/١)

فأما قوله سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} فهم المنافقون الذين كانوا يحتجرون من الرسول ومن المؤمنين بانتحال الإيمان، وتلاوة ما أنزل الله من القرآن، وقلوبهم لذلك منكرة، وفي دين الله فاجرة، وبه سبحانه كافرة، فهم يراءون بألسنتهم الرسول مخافة القتل والتنكيل، وهم عن الله بضمائرهم حائدون، وللحق بينهم وفي سرائرهم معاندون. ألا تسمع كيف يقول سبحانه فيهم، ويدل بصفاتهم عليهم، حين يقول: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]؟، وقال سبحانه يخبر عنهم بما هم فيه، وما يجتمعون في خلواتهم من المشاقة عليه: {وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٧٦].

(٣٧١/١)

ومن ذلك ما قال سبحانه في الأعراب: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ١٤]، ومن قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ما يقول الله سبحانه: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: ١١]، فأخبر الله عنهم بما كان من كذبهم فيما ذكروا أنَّه شغلهم، وأخبر بنفاقهم وتوهيمهم ما أوهموا نبيه صلى الله عليه وآله من إحقاقهم؛ فيما طلبوا منه من الاستغفار لهم، والصفح في ذلك عنهم، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم؛ أن استغفاره لهم غير دافع عقوبة الله عنهم؛ إذا أراد الله الانتقام في ذلك منهم؛ فقال سبحانه: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} [الفتح: ١١]، ثُمَّ أخبر نبيه صلى الله عليه وآله عن أمورهم؛ بما كانوا يتوهمون أنَّه قد غبي(١) عليه علمه مما كانوا ظنوه وأجنوه في صدورهم؛ فقال ذو المعارج والجلال: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً} [الفتح: ١٢]، فأخبرهم سبحانه بما ظنوا من الظن القبيح في الرسول والمؤمنين وتوهموا، وما زين في قلوبهم الشيطان من ذلك وأملى، وأنهم كانوا في ذلك قوماً بوراً.

(١) في (ط): خفي.

(٣٧٢/١)

وأما قوله جل جلاله، وتقدس عن ((أن)) يحويه قول ويشبهه شيء أو يناله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} فقد يخرج على معنيين، وكلاهما إن شاء الله للحق مضاف(١).
فأما أحدهما فأن يكون المرض الذي في قلوبهم؛ هو الشك الذي هم فيه يلعبون، من جحدانهم لما يرون من آيات ربهم، فقلوبهم لذلك مريضة، فلا يؤدون لله سبحانه من فرائضه فريضة، فهم في شكهم ولعبهم يترددون، وفي خطيئاتهم وطخياء(٢) حيرتهم يعمهون، كما قال سبحانه: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ}[الدخان ٩].
فقد تكون زيادة الله لهم من المرض الذي ذكر أنَّه في قلوبهم لشكهم وضلالهم؛ هو بما يزيد نبيه صلى الله عليه وآله من الوحي والبرهان، وتنزيل ما نزل من القرآن؛ الذي به مرضت قلوبهم، ومنه دويت(٣) صدورهم، فكلما زاد الله منه نبيه تبياناً وعلماً، وخيراً وفضلاً وحكماً؛ ازداد لذلك مرض قلوبهم تراكماً، وزادهم الله بتنزيل

الحق غيظاً وغماً.

(١) في (ب): مصيبان.
(٢) في(ط): وطمياء. من الطامة، وقد تقدم شرحها.
(٣) دويت: أصابها الداء.

(٣٧٣/١)

وقد يكون ذلك المرض حل في قلوبهم لشدة الحسد منهم لنبيهم صلى الله عليه، على ما جعل الله من البركات واليمن في كل الحالات لديه، ولما خصه الله به دونهم، وآثره(١) به سبحانه عليهم، من هبوط الملائكة نحوه، وما عظم به الله له خطره وقدره، فجعله الله صفياً يوحي إليه، وينزل إليه وحيه بفرائضه عليه، وما خصه به من أن جعل طاعته له طاعة، ومعصيته له معصية؛ فقال: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}[النساء: ٨]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النساء: ٥٩، ومحمد: ٣٣]، وقال سبحانه: {مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]، وقال: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الفتح: ١٧].

(١) في (أ): وأكرمه.

(٣٧٤/١)

فلما أن رأت(١) قريش هذه الكرامات البينات النيرات التي لا يقدرون على دفعها، ولا يأتون أبداً بمثلها؛ اشتد لذلك حسدها لرسول رب العالمين،وعهدوا(٢) عليه وعلى من معه من المؤمنين، فمنعه الله منهم، ورد حسدهم وبغيهم في نحورهم، فنصبوا له المحاربة، وطالبوه(٣) أشد المطالبة، فردهم الله بغيظهم، كما قال سبحانه: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً} [الأحزاب: ٢٥]، وذلك(٤) حين تحزبت قريش والعرب، وطلبوا رسول الله صلى الله عليه وآله غاية الطلب، فكفاه الله في ذلك اليوم والمسلمين، القتال بأخيه ووصيه علي بن أبي طالب أفضل المستشهدين، فقتل عمرو بن عبد ود اللعين، وكان عماد المشركين وفارس المتحزبين، فانهزم بقتله جميع الكافرين، وفل الله حد المبطلين، وأظهر دعوة المحقين، ونصر رسوله خاتم النبيين، وكبت أعداءه المحادين. قال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} [المجادلة: ٥]، فلما أن أذلهم وهزمهم، وكبتهم كما كبت الذين من قبلهم، تدارك الكبت في قلوبهم، وترادفت الحسرات في صدورهم، ومرضت(٥) لذلك وبه منهم القلوب، وأحاطت بهم(٦)منهم الذنوب، فهم في كل يوم يرون من نصر الله لنبيه ويسمعون عنه ما يزيدهم حسداً، ويحدث لهم به في قلوبهم مرضاً، حتى صدق الله رسوله الرؤيا بالحق التي كانت في غزوة الحديبية، أراه وأكمل له من دخول مكة آمناً لا يخاف إرصاداً، فنزل بالمشركين من ذلك ما كانوا يخافون، وحقق الله لرسوله ما كانوا يحذرون، {وَمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ

(١) في (أ): فكلما رأت.
(٢) في (أ): وجحدوا.
(٣) في (أ): وطلبوه.
(٤) في (أ): وكذلك.
(٥) في (أ): فتضرمت.
(٦) في (أ): به.

(٣٧٥/١)

لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.
وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، فقد يمكن أن يكون الله سبحانه لما أن كذبوه وأخلفوه خذلهم، ومن الإرشاد والتوفيق تركهم، فتكمهوا في ضلالهم، وارتكبوا القبيح من أعمالهم، فأعقبهم كثرة ضلالهم، وعظيم اجترائهم على قول الزور والبهتان، وارتكاب الضلال والعصيان؛ تمادياً في ذلك حتى مردوا على الكذب والفساد، والنفاق وقول المحال والإلحاد، فيجوز أن يقال: أعقبهم الله نفاقاً إذ تركهم من التوفيق؛ والتسديد والتحقيق؛ حتى غلب عليهم الهوى، ورفضوا الخير والهدى، واستعملوا بينهم النفاق في كل أمرهم، فعادوا منافقين، وللرشد تاركين، ينافق بعضهم بعضاً، ويقرضه في الغيب له قرضاً.

(٣٧٦/١)

وقد يكون الذي أعقبهم في قلوبهم النفاق هو فعلهم وكذبهم، وغدرهم في موعدهم الذي أوجبوه لخالقهم، وذلك أن الكذب والردى؛ يجر بعضه بعضاً، فلما أن كذبوا فيما قالوا، ووعدوا خالقهم من أنفسهم فأخلفوا؛ كانوا لغيره فيما يعدون أخلف، ولسواه سبحانه أكذب فكاذبوا بيناتهم، وأبطلوا بالزور قالاتهم، فدعت حالة حالةً، حتى تكمهوا في الغي والضلالة، ودعا ما كان منهم أولاً من الكذب والإخلاف؛ إلى قلة الصدق والإنصاف. فحل(١) بينهم التضاغن وذهب عنهم الإئتلاف، فعاد كل منافق في قوله غير صادق، فكان الذي أعقبهم النفاق آخرا؛ هو فعلهم للكذب والإخلاف أولاً، فجر فعل الصغائر(٢) إلى ارتكاب موبقات الكبائر، حتى صار ذلك لهم عادات، وكان لهم وعليهم علامات؛ يعرفون بها دون غيرهم ودلالات. فهذا أيضاً معنى يصح في اللسان، ويعرفه من كان ذا بيان. والحمدلله ذي الجلال والبرهان، والجبروت والقدرة والسلطان.

(١) في (أ): فجرى.
(٢) في (ط): الضغائن.

(٣٧٧/١)

وأما ما سأل عنه من معنى قول الله سبحانه: {إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}، قد يمكن أن يكون المعني باللقاء، هو الله الرحمن الأعلى، يريد بقوله، ((يلقونه))، أي يلقون حكمه ويعاينونه، وقد يكون الذي يُلْقى(١)، ما تقدم من علمهم ومضى، فيعاينونه في الآخرة يوم الحساب، ويجدونه عند الله مثبتاً في الكتاب، كما قال سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: ١٢]، وقال: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [الزلزلة: ٧ - ٨]، يقول سبحانه: يرى جزاءه، ويعاين ما حكم عليه به، من الخير والثواب، العذاب والعقاب، فيكون لقاؤهم لأعمالهم، هو توقيف الله لهم على القليل والكثير من أفعالهم، وما يكون منه سبحانه على ذلك من جزائهم، فيلقى المحسنون ما وعدهم الله في إحسانهم من الثواب، ويلقى المجرمون ما وعدهم من العقاب. تم جواب مسألته.
المسألة الخامسة عشرة:
ما فعل بعباده، هل يعذبهم عليه أم لا؟

(١) في (ط): يلقونه.

(٣٧٨/١)

ثُمَّ اتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن ما صنع الله بعباده، فقال: خبرونا عما صنع الله بالعباد، هل يعذبهم عليه؟ فإن قالوا: لا، فقل: خبرونا عمن زاده الله كفراً، ومده في طغيانه، وأعقبه النفاق في قلبه هل يعذبه عليه؟ فإن قالوا: نعم، فقد دخلوا فيما يعيبون، وإن قالوا: لا. فقل: فقد زعمتم أن الله لا يعذب من كان على

الكفر، ولا يضر من كان عليه، وأنتم تزعمون أن الله إنّما صنع ذلك عقوبة لهم. وسلهم: هل استطاع هؤلاء الترك لما صنع الله بهم، والخروج منه؟ فإن قالوا: لا، فقد أجابوا، وإن قالوا: نعم، فقد كذبوا بكتاب الله، وخالفوا قول الله، إذ يقول: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ} [التوبة: ٧٧]، (فإن قالوا: يقدرون على أن يصرفوا من النفاق قلوبهم قبل أن يلقوه) (١)، فقول الله بزعمهم باطل، في قوله: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٥٧]، تمت مسألته.

جوابها

وأما ما سأل عنه مماالتبس عليه، فتعسف بقول الزور فيه، فقال: أخبرونا، وبما عندكم نبئونا؛ عن قول الله سبحانه: {وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠]، وفيما صنع الله بالعباد تقولون؛ هل يعذبهم على ما فيه أدخلهم وعليه جبرهم؟

---

(١) سقط من (ط).

(٣٧٩/١)

فلعمري، لقد تقدم في ذلك الجواب، وقلنا فيه إن شاء الله بالصواب، ولا بد أن نقول فيما سأل عنه في هذا الجواب، نأتي على شرحه إن (شاء الله بشرح شاف، فنقول)(١): إن معنى قوله سبحانه: {وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}، هو تركه لهم من توفيقه وتسديده، وعونه ولطفه وتأييده، لما خرجوا منه من طاعته، وارتكبوا بطغيانهم من معصيته، فولى بعضهم بعضاً، ولم يقم لهم سبحانه أمراً، كما قال سبحانه:{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩]، فلم يبرأ منهم سبحانه، ويكلهم إلى أنفسهم جل وعظم شأنه؛ إلاَّ من بعد أن تولوا، وكفروا وتعدوا، فاستوجبوا منه الخذلان، بما تمادوا فيه من الطغيان، كما يستوجب الرشد والتوفيق بالطاعة منه المؤمنون، واستأهل بالاهتداء منه والزيادة في الهدى المهتدون، كما قال أحكم الحاكمين وأصدق القائلين:{وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، فأخبر سبحانه أنَّه ولي للمتقين، مجانب خاذل للفاسقين، وكذلك قال سبحانه رب العالمين:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد: ١١]، يريد سبحانه أنَّه ولي الذين آمنوا والمتولي في كل الأسباب لهم، وأنه الخاذل للكافرين والتارك لتأييدهم، الرافض لتوفيقهم وتسديدهم، ألا ترى كيف يقول ويخبر بتأييده وصنعه وتسديده ولطفه للمؤمنين، وتخليته بين الكافرين وبين من أطغاهم(٢) من الطاغوت، والطواغيت فهم الذين أجابوهم إلى دعائهم، واتبعوهم في أهوائهم؛ من مستجني الشياطين(٣)، وأبالسة الإنس الملاعين؛ الذين أطغوهم واستهووهم في الردى والطغيان، ومنوهم مع الإقامة على ذلك من الله الغفران، قال الله سبحانه: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

---

(١) سقط من (ط).

(٢) في (ب،ط): بين المؤمنين والكافرين وممن أطغاهم.

(٣) في (ط): من مستجيبي الشيطان.

(٣٨٠/١)

آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة: ٢٥٧].

وأما ما قال وعنه سأل فقال: هل يعذب الله أحداً على فعل فعله به؟ أم هل يقدر الخلق على الخروج مما أدخلهم جل جلاله فيه؟

فقولنا في ذلك على الله بما تقدم من شرحنا له، من أن الله جل جلاله أعز وأكرم وأرأف وأرحم وأجل وأحلم من أن يدخل عباده في سبب من الأسباب أراده ثُمَّ يعذبهم عليه أو يعاقبهم فيه، إن هذا إذاً لأجور الجور من الفعل، وإنه من فاعله لأجهل الجهل، فلو كانت أفعاله لا تتم إلاَّ بأفعالهم؛ لكانت حاله في العجز كحالهم، ولكان مضطراً إلى خلقهم وإيجادهم، إذ لا يتم له فعل إلاَّ بأعمالهم، فخلقه إياهم(١) إذاً نظراً منه لنفسه لا لهم؛ وضرورة الخالق إلى الخلق في فعله، كضرورة الخلق إلى الخالق في أمره، فكل إلى غيره محتاج، وذلك فبين على قياسهم(٢) في المنهاج، ولو اشتبهت الحالات؛ لاشتبهت بلا شك الذات(٣)، فسبحان من بان عن خلقه فليس

له حد ينال، ولا مثل يضرب له به الأمثال، الذي بان من كل فعل فعله، وجل عن كل قول قوله.
وأما ما قال من قوله: هل يقدر الخلق على أن يخرجوا مما أدخلهم الله فيه وصنعه بهم؟ فإن الخال الله وصنعه بالعباد يكون على معنيين كليهما متضادين:
أحدهما ... لم يرد الله أن يدخلهم فيه جبراً، بل أراد أن ... اختيار ... تمكين واختيار لم يرد الله أن يدخلهم فيه جبراً

والعا ، واما والأبار م علي الن من الر

(٣) في (أ): الإئتلاف.
(٤) في (أ): أعدائهم.
(٥) في (أ):ذلة وبلاء.
(٦) ليس في(ب).
(٧) سقط من (ط).

(٣٨٣/١)

الآخر(١)، (فإشراف خيول الكفار على الجبل حتى أشرفوا عليهم فظنوا أنها الهلكة)(٢) قال الله تعالى: {لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} [آل عمران: ١٥٣]، من الغنيمة، {وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} [آل عمران: ١٥٣]، يعني من قتل من قتل من إخوانكم، قال: {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: ١٥٣].
فإن قالوا: إن الله إنَّما فعل ذلك بذنوبهم ومعصيتهم، قيل: فإنه إنَّما عصى منهم نفر يسير وهم الرماة، نحو من خمسين رجلاً، فقد عم ذلك البلاء جميع المسلمين(٣)، حتى وصل إلى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، فشج في وجهه وكسرت رباعيته، وقد كان المسلمون يوم أحد سبعمائة أو يزيدون، فأخبر الله أنَّه صنع ذلك بهم فأثابهم غماً بغم، أفليس الله قد أراد أن يصيبهم ذلك بأيدي الكافرين، ولأن ينهزموا، وأن يقتل من قتل منهم؟ ثُمَّ أخبر أيضاً بما صنع بهم بعد الذي كان منه إليهم من الغم، فقال: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ} [آل عمران: ١٥٤]، قال الله لنبيه: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران: ١٥٤]، ثُمَّ قال: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَالاَ يُبْدُونَ لَكَ} [آل عمران: ١٥٤]، فأخبر عما أخفوا في أنفسهم، فقال: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [آل عمران: ١٥٦]، يقولون: لو كنا في بيوتنا ما أصابنا القتل، قال الله تكذيباً لهم: {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [آل عمران: ١٥٤]، فأخبر أنَّه قد كتب القتل على قوم قبل أن يقتلوا،

---

(١) في (أ): الثاني.
(٢) سقط من (ط).
(٣) في (ط): المؤمنين.

(٣٨٤/١)

وجعل لهم مضاجع إليها يصيرون، ثُمَّ نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأن يظنوا بالله كظنهم، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّاً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: ١٥٦].
وقال في غلبة الكافرين المؤمنين وهزيمة المؤمنين، فقال: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٤٠]، وقال: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} [آل عمران: ١٦٦]، في آيٍ كثيرة، يخبر أن الأمر كله منه، وهو يدبر أمر خلقه، ويصرفهم كيف يشاء. وأخبر أن الذي أصاب المؤمنين يوم أحد إنَّما كان بإذن الله؛ من قتل الكافرين إياهم وهزيمتهم لهم، حتى قتل منهم سبعون رجلاً، وأنتم تزعمون أنَّه لم يأذن في المعاصي وأنها لا تكون بإذنه، ولكن الإذن قد يكون على معنيين: أما أحدهما فيكون أمراً منه يأمر به، والآخر يكون إذناً على وجه الإرادة، أنَّه أراد أن يكون، لأنَّه فعال لما يريد، ثُمَّ قد عيَّر الذين قالوا لإخوانهم: {إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّاً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} وكذبهم، وأخبر بما قد سبق منه لهم وما قد كتبه عليهم، وعبر الذين قالوا: {لَو كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} (فكذبهم الله بما قالوا من ذلك) (١).

---

(١) سقط من ب.

(٣٨٥/١)

فلو تدبرتم كتاب الله وآمنتم بما فيه ما عارضتم أمور الله تعالى (ولاعبتم) (١) ولفهمتم قضاءه، تردون عليه(٢) برأيكم أمره، وتعقبون حكمه وتظلمون عدله، تقولون إن فعل(٣) بخلقه شيئاً ثُمَّ عذبهم بما صنع بهم فقد ظلمهم، فسبحان الله ما أعظم قولكم وأضعف رأيكم.
تمت مسألته.
جوابها
وأما ما سأل عنه من القتال، فقال: هل أراد الله من المؤمنين أن يقاتلوا الكافرين؟ ومن الكافرين أن يقاتلوا المؤمنين؟ أم أراده من المؤمنين دون الكافرين؛ فبذلك ولله الشكر نقول، وإليه أمورنا تؤول، فنقول: إن الله شرع حقاً، وأوجب صدقاً؛ فدعا إليه الناس، وكشف عنهم به الالتباس، ثُمَّ أوجب على الخلق كلهم الدخول فيه والمقاتلة عليه، فكل من كان على ما شرعه الله تعالى من الحق؛ فقد أراد الله منه مقاتلة من خالف عنه من الخلق، وإنما أراد سبحانه من عباده؛ أن يقاتلوا على ما رضيه من دينه، فأما ما لم يرده من أفعال الكافرين، ولم يشرعه ولم يرضه من عبادة أصنام المشركين؛ فكيف يريد من أصحابه القتال عليه، وقد كرهه منهم، وذمهم على المقام فيه، ودعاهم إلى الخروج منه؟ وقد علم كل من كان له علم، وآتاه الله شيئا من فهم الحكم(٤)؛ أن المشركين عن آلهتهم كانوا يدافعون، وعن دينهم يقاتلون، وعلى ما كان آباؤهم من القتال يثابرون، فإن كان الله أراد منهم ذلك، وجعلهم فيه كذلك؛ فقد ارتضاه، وعلى الأديان كلها اصطفاه، كما ارتضى الذي بعث به خاتم النبيين، وأراده وأمر بالقتال عليه المؤمنين.
فإن قالوا: ارتضاه وأراده، وأمر بالقتال عليه عباده؛ كفروا بالرحمن، وتابعوا قول الشيطان.

---

(١) ليس في (أ،ب).
(٢) في (ب،ط): عليهم.
(٣) في (ط): تقولون: إنه فعل.
(٤) في (ب،ط): الحكمه.

(٣٨٦/١)

وإن قالوا: بل سخطه وشنئه(١) وأمرهم ـ لإشقائهم ـ بالمقاتلة عليه؛ فقد ساووا عنده بين ما ارتضاه؛ وبين ما سخطه وأباه، وهل يأمر بحياطة مالا يريد، إلاَّ الجاهل غير الرشيد؟ فإن كان حتم عليه بعمل الردى؛ لما أراد بهم ـ بزعمهم ـ من الشقاء؛ فعلى ماذا يعذبهم ويشقيهم، وفي الحميم يصليهم؛ وهم له طائعون، وفي إرادته منهم متصرفون؟! أهذا عندهم من صواب الحكيم، العدل في فعله(٢) الرحيم؟! بل هذا من فعال الجائرين(٣)، وأعظم ما عاب سبحانه من اعتداء الظالمين. فلا يجدون بدّاً من أن ينسبوا إلى الله التجهيل، والظلم والتعدي والجور الجليل، أو يدخلوا في الحق، ويرجعوا إلى الصدق؛ فيقولوا: إن الله أمر وأراد حياطة ما ارتضى، وكره ونهى عن حياطة ما لم يشأ.

---

(١) في (ط): وسبه.
(٢) في (ا): أفعاله.
(٣) في (أ): من فعل الجبارين.

(٣٨٧/١)

وأما ما ذكر من قول الله عز وجل: {وَإِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [الأنفال:٤٣]، فقال وتوهم أن هذا الأمر المفعول الذي يقضيه الله، هو قضاؤه على الفريقين بالقتال، والمزاحفة والاقتتال؛ وليس ذلك ولله الحمد على ما قال، ولا على ما توهم من المحال؛ أن الله يقضي على الكافرين بقتال المؤمنين، ولا أنَّه يقلل المؤمنين في أعين الكافرين؛ تشجيعاً منه لهم على قتال المؤمنين، وتأييداً بذلك لهم على المهتدين، ولكن قللهم في أعينهم لكيلا يروهم بحالة الكثرة؛ مع ما في قلوبهم

من هيبة الروعة؛(١) فينهزموا ويذهبوا، ويرجعوا ولا يقاتلوا، فكان ذلك خذلاناً لهم وخزياً عليهم. وقللهم في أعين المؤمنين لكيلا يروهم على الكثرة التي كانوا عليها فيهابوا ويخافوا، فقللهم في أعينهم تأييداً منه لهم، ومعونة وإحساناً إليهم. فأما قوله: {لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً}، فمعناه: ليقضي الله وعداً كان منجزاً، وهو ما وعد رسوله والمؤمنين من النصر إذا نصروه، والتسديد لهم إذا قصدوه.ألا تسمع كيف يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، ويقول: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج: ٤٠]، فقضى تبارك وتعالى لرسوله وللمؤمنين عند الالتقاء بما وعدهم من النصر، وفعل لهم، ضمن فعاله من الأمر، وتغنيمهم ما وعدهم من إحدى الطائفتين: طائفة الجيش، وطائفة العير، فغنمهم الله طائفة الجيش كما وعدهم من الأمر. وإِنْجَازُ ما وعد

(١) في (أ): قلوبهم من الرعب من هيبة الدعوة.

(٣٨٨/١)

المؤمنين من النصر على الكافرين؛ فهو الأمر الذي ذكر الله أنَّه كان مفعولاً، لا ما يتوهم أهل هذا القول الفاسد المخبول(١).
وأما قوله: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٢]، فنصر الله رسوله، كما قال سبحانه: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} [الفتح: ٢٦]، فألف الله على ذلك بين المؤمنين، لا كما ظن الحسن بن محمد وأصحابه أهل العمى، والقول بالردى؛ أن التأليف من الله كان بين الكافرين والمؤمنين في القتال، وأنه ساق بعضهم إلى بعض جبراً حتى ألف بينهم للقتال، وهذا فأحول المحال، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ألا ترون كيف قال: {أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ}، فرد اسم المضمر في الهاء والميم من: {قُلُوبِهِمْ} على الاسم الظاهر من: {الْمُؤْمِنِينَ}، فسبحان أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

(١) في (ب،ط): المخذول.

(٣٨٩/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله تبارك وتعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [الأنفال: ٧]، وقال: لو لم يخرج المشركون؛ أليس كان يبطل وعد الله لنبيه وللمؤمنين؟ فقولنا في ذلك: أن الله سبحانه وعد نبيه كما قال إحدى الطائفتين: طائفة العير، وطائفة الجيش المستعير، وأن الله لم يجبر الفاسقين على الخروج إلى قتال المؤمنين، بل عن ذلك نهاهم، وإلى طاعته وطاعة رسوله دعاهم، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢٠]، ونقول: لو أطاعوا الله فيما أمرهم لم يخرجوا لمحاربة الحق ولم ينصبوا.

(٣٩٠/١)

فأما ما قال من أن ذلك لو كان؛ يبطل(١) وعد الله أهل الإيمان؛ الذي وعدهم من الغنيمة والإحسان؛ فليس ذلك كما قال أهل الجهالة والعمى والضلال، ولكن الله سبحانه علم انهم سيخرجون، وعلى الحق والمحقين سيبغون، فلما أن علم ما يكون من اختيارهم؛ حكم بما علم منهم عليهم (مبشراً لنبيه وللمؤمنين، فقولنا في ذلك إن الله سبحانه وعد رسوله صلى الله عليه وآله، بما سيسوق)(٢) من الغنيمة والنصر إليه، ولو علم منهم اختيار المقام لما وعد غنائمهم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم(٣)، فلما أن خرجوا، وعلى الله ورسوله أجلبوا، خذلهم سبحانه وأخزاهم، وأذلهم وأرداهم، وألقى الرعب في قلوبهم، كما قال سبحانه: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً} [آل عمران: ١٥١]، فأرداهم ونصر المؤمنين، وأعز بتأييده

الدين وكبت الكافرين، فأبادهم بالسيف قتلاً، وشتت أمرهم وجمعهم هزيمة وأسراً، وأنزل الملائكة المقربين مدداً للمؤمنين، وإعزازاً للحق والمحقين، فزادهم قوة إلى قوتهم، المركبة الثابتة فيهم.

(١) في (ط): البطل.
(٢) في (ب) و(ط): وبشر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بما سيسوق.
(٣) يعني: أنَّه لو علم منهم اختيار البقاء لما وعد النبي والمؤمنين غنائمهم، لأنه يكون حينئذ وعداً لا يتحقق.

(٣٩١/١)

وأما ما سأل عنه وقال، وتوهم من المحال؛ في قول الله تبارك وتعالى: {فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ}، وأن ذلك الغم: هو غمهم (يوم حنين) (١) حين أدال الله المشركين على النبي والمؤمنين، فغلط وأخطأ في ذلك، ولم يكن ولله الحمد كذلك، ولم يدل الله الكافرين على المؤمنين، لأن الإدالة هي معونة وتأييد، ونصر وتسديد، ولن يقول(٢) مؤمن بالله: إن الله نصر في ذلك اليوم أعداءه على أوليائه، ولا نصر جيش أبي سفيان(٣)، على جيش رسول الرحمن، صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن الله أراد بالمؤمنين المحنة والبلاء، حتى يعلم الله أهل الصبر والإحتساب والتقى، ألا تسمع كيف قال الله: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]، فنصرهم في أول الأمر وأراهم ما يحبون؛ فخالفوا نبيه وعصوه؛ في تنحيهم عن باب الشعب الذي أوقفهم عليه، وأمرهم أن يرموا من صار من المشركين إليه، فلما رأوا الهزيمة على المشركين قد أقبلت، وتيقنوا أنها بهم قد حلت؛ طمعوا فيما يطمع فيه مثلهم من الغنائم، ورجوا أن يكون شدهم على الكفار مع أصحابهم أصلح، وفي الأمر الذين يراودون(٤) أنجح، فزلوا وعصوا الرسول فيما أمرهم به من الثبوت على باب الشعب، وكان ثباتهم عليه على المشركين أصعب، فلما أن تنحوا أمكن للكافرين ما أرادوا، فظفروا من المسلمين ببعض ما أحبوا، ثُمَّ لاقوا من بعد ذلك من نصر الله للحق ما كرهوا، فثبت الله من بعد ذلك المؤمنين، وغفر لأهل الخطيئة المذنبين، وأنزل عليهم السكينة، وغشاهم النعاس أمنة منه، كما قال الله سبحانه: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ

(١) سقط من (ب)، وفي هامش (أ): يوم أحد وهو الصواب كما تقدم.
(٢) في (ط): ولم يقل.
(٣) في (ط): اللعين.
(٤) في (أ): يرون.

(٣٩٢/١)

بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ}، قال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}، ثُمَّ قال سبحانه لنبيه: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ}، ثُمَّ أخبر عما أخفوا، وما من المنكر أجَنُّوا(١) فقال: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله حين أتته قريش ونزلوا بأحد، شاور أصحابه فأشاروا عليه بأن يثبت في المدينة، فإن أقاموا أضربهم المقام حتى ينصرفوا، وإن صاروا إلى المدينة فدخلوا ، قاتلهم بها الصغير والكبير والنساء من فوق البيوت، فأراد ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، ثُمَّ أشاروا عليه من بعد بالخروج إليهم، فنهض فلبس لأمته(٢) ثُمَّ خرج عليهم، فقالوا: يا رسول الله قد رأينا رأياً، إنا لم نقاتل ببلدنا وبين دورنا أحداً إلاَّ أظهرنا الله عليه، وبلغنا فيه ما نريد، فأقم بنا مكاننا على رأينا الأول، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله، ((كان هذا أولاً، إنَّه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يقاتل عدوه))، فخرج وخرج معه ألف من الناس، فلما فصل من المدينة رجع عنه عبدالله بن أبي سلول - رأس المنافقين - في ثلثمائة من الفاسقين، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله حتى لقي القوم، فكان من أمرهم ما ذكرنا، ومن حالهم ما شرحنا، فذلك قولهم: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} يقولون: لو أطاعنا، أو كان الرأي إلينا؛ لكنا قد ثبتنا في بلدنا حتى يدخلوا علينا فنقاتلهم، أو يرجعوا عنا فنتبعهم، فقال سبحانه: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}، أي الأمر أمر نبيه الذي افترض عليكم طاعته، فليس لأحد منكم سبيل إلى مخالفته؛ إلاَّ بالكفر

(١) في (ط): أحيوا.
(٢) اللَّامة: الدرع والجمع لأم.

(٣٩٣/١)

والعصيان؛ للواحد العزيز الرحمن. ثُمَّ أعلاهم من بعد تلك السقطه(١)، وأنزل عليهم الأمنه، ورد إليهم النصر وشد لهم ما ضعفوه من الأمر، وصرف عنهم أعداءهم لم يدركوا(٢) كل ما طلبوا وطمعوا به فيهم؛ من القوة والظهور عليهم.
وأما ما ضل فيه من قوله: {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ}، فقال: إن الله كتب على الكافرين قتل المؤمنين، وكتب على المؤمنين ظهور الكافرين وقتلهم إياهم، فتوهم أن الكتاب من الله هو حتم وفعل فيهم، وقضاء كائن قضى به عليهم، ولو كان ذلك كما ظن الحسن بن محمد لكان المشركون لله مطيعين، ولأمره وقضائه منفذين، ولم يكن عليهم في ذلك إثم، ولا عند الله جرم، بل كانوا في ذلك مثابين، وعليه غير معاقبين، ولم يكن المؤمنون بمثابين؛ إذ الله فعل بهم ذلك من القتل وقضاه عليهم، فكل في الطاعة له سواء، تبارك عن ذلك العلي الأعلى.
فأما وجه الحق في ذلك، ومعنى قول الله سبحانه: {كُتِبَ عَلَيهِمْ}، فهو علم منهم، لا أنَّه أكرههم ولا قضى عليهم، ولكن علم من يختار الخروج ولقاء الأعداء، ومن يقتل عند التنازل(٣) واللقاء. فعلمه وقع على اختيارهم وخروجهم فخروجهم فعلهم لا فعله، وقتلهم فعل الكفار لا قضاؤه، فهم على خروجهم، وقتالهم واجتهادهم مأجورون، وعند الله مستشهدون. والفسقة المشركون على قتلهم معاقبون، وعند الله في الآخرة معذبون، فكل نال بفعله من الله ما أوجبه عليه من الثواب والعقاب. والحمد لله رب الأرباب، والمجازي للخلق يوم الحساب.

(١) تصحفت في (ط) إلى: اليقضه.
(٢) في (ب،ط): لأن يدركوا.
(٣) التنازل: التصارع والاقتتال.

(٣٩٤/١)

وأما ماسأل عنه من قول الله سبحانه: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ}، فقال بزعمه، وتوهم بجهله؛ أن الله يديل أهل الكفر والعصيان؛ على أهل الطاعة والإيمان، وأنه أدال يوم أحد المشركين، على النبي ومن كان معه من المؤمنين؛ فليس ذلك كما ذهب إليه، وسنشرح ذلك إن شاء الله تعالى ونرد بالحق قوله عليه.
فنقول: إن الله جل جلاله يديل المؤمنين على الكافرين، ولا يديل الكافرين على المهتدين، وكذلك قال في يوم حنين: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيهِمْ} [الإسراء: ٦]، فكان برده الكرة للموحدين؛ هو المديل لهم على الكافرين، ولم يقل في شيء من كتابه وما نزله من آياته؛ إنَّه أدال أهل الشرك والنفاق؛ على أهل الدين والإحقاق.
فأما ما ذكر الله من المداولة بالأيام، بين جميع الأنام، فإن مداولته للأيام هو إتيانه بالليل تارة وتارة بالنهار.
وما(١) يأتي به ويداول بين عباده وأرضه فيهما(٢) من الأمطار؛ التي يحيي بها الأرضين، ويعيش بها جميع العالمين، قال سبحانه: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ*وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ* رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: ٩- ١١]، فسقى اليوم قوماً هم إلى السقي محتاجون، وسقى غداً آخرين.
وما يحدث في الأيام من الأرزاق للعباد، وإحياء ما شاء من البلاد.

(١) في (ب،ط): وأما ما يأتي.
(٢) في (أ): فيها.

(٣٩٥/١)

ومن المداولة الأيام(١) بين الأنام ما ينزل بهم من المصائب الهائلات، وما يمن به عليهم من الآلاء والنعم السابغات(٢). من ذلك ما يأخذ من الأقارب والآباء، والأخوة والأبناء، وجماعة القربى، وما يهب عز وجل لمن يشاء من الأولاد الذكور، وما يصرف ويدفع من الشرور. فهذه الأشياء كلها التي تكون في لياليه سبحانه وأيامه؛ مداولة منه لا شك بين عباده.
فأما ما يظن الجهال، وأهل التكمه في الضلال؛ من أن معنى هذه الآية هو إدالة الفاسقين؛ على الحق والمحقين، وأنه يمكن في الأرض للفاجرين، ويمهد للفسقة العاصين، بما قد حرم عليهم، ولم يجعله بحمد الله لهم، بل شدده عليهم غاية التشديد، في ترك مشاقة أهل الحق والتسديد، وأمر في ذلك بالاتباع لهم، وترك الخلاف في جميع الأسباب عليهم، (فهذا كذب منهم على رب العالمين، وكيف يجوز أن يديل ويمهد للعاصين)(٣)، بل كيف يتوهم على الرحمن الكريم، الواحد ذي الجلال العظيم؛ أن يكون أدالهم، وأعطاهم ما عنه زجرهم ونهاهم؟
فتبارك ذو السلطان المبين(٤)؛ عن مقالة أهل الضلال الجاهلين. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم. تم جواب مسألته.
المسألة السابعة عشرة:
عن الإذن بالمعصية، هل يكون من الله أم لا يكون؟
ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله عز وجل: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [آل عمران: ١٦٦]؛ فقال: خبرونا عن الإذن وإنكاركم أن يكون الله أذن في المعاصي.

---
(١) في (ط،ب): وبالمداولة بالأيام.
(٢) أسبغ الله عليه النعمة: أوسعها وأتمها.
(٣) ما بين القوسين سقط من (ب)، وفي (أ): وقع بعد قوله: للفسقة العاصين، وبعده: بل كيف.
(٤) في (أ): المتين.

(٣٩٦/١)

فقل: الإذن من الله على وجهين: فإذنٌ إذنٌ فيه أمر يأمر به، وإذن إذنٌ فيه إرادة منه أن يكون لما يشاء من أمره، وما كان من معصية فلا تكون إلا بإذنه، (وكذلك أظنه)(١)، وذلك(٢) إرادة منه، فإن قالوا: نعم؛ فقد أقروا بنفاذ أمره وإرادته، وإن جحدوا وأنكروا، فإن الله قد كذبهم في كتابه؛ فقال للمؤمنين: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ}، يعني بذلك ما أصابهم من القتل والهزيمة، وإنما كان ذلك تأييداً للكافرين، فقد أذن الله للكافرين أن ينالوهم بما أصابوهم من القتل والجراح والهزيمة، فإن زعموا أن إذن الله أمره؛ فقد زعموا أن الله أمر بالمعاصي، وأمر المشركين أن يقتلوا المؤمنين، وكل مأمور إذا فعل ما أمر به فهو مطيع وله عليه أجر، والكتاب يكذبهم. وإن زعموا أن إذنه(٣) على وجهين: على وجه الأمر، والآخر على وجه الإرادة، فقد أقروا بالحق، وفي ذلك نقض لقولهم ورد عليهم، فقد زعموا أن الله يريد أن يكون ما لا يأمر به ولا يرضاه.
تمت مسألته.
جوابها

---
(١) ليس في (ا)، ويظهر أنَّه لا معنى له.
(٢) في (أ): وكذلك.
(٣) في (ط): إرادته.

(٣٩٧/١)

وأما ما قال، وعنه بجهالته سأل، من قول الله تبارك وتعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ}، فقال: إن ذلك عنده من الله إذن للكافرين؛ فيما نالوه من الرسول والمؤمنين؛ في يوم أحد من القتل، وما نالوا به حمزة رحمه الله من المثل، وما نالوا به الرسول صلى الله عليه وآله من الجراح، وما اجترأوا على الله فيه وعليه؛ من هشم وجنته، وكسر رباعيته. فكيف يتوهم من كان له عقل، أو فهم يبين به عن الجهل؛ أن الله أذن لأعدائه(١)، في فعل ذلك بأوليائه؟ كذب من ظن ذلك وقال على الله بهتاناً وزوراً، وكانوا عنده سبحانه قوماً بورا. وكيف يأذن للفاسقين في القتل والسواية المؤمنين؛ وهم الخيرة عنده من عباده أجمعين؟ بل الإذن منه

للمؤمنين في قتل المشركين وقتالهم؛ حتى يسلموا أو يفيئوا عن جهلهم وضلالهم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه للمؤمنين: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد: ٤]، ويقول: {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة: ١٢٣]، ويقول سبحانه: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: ٥]؛ ففي كل ذلك يأمر المهتدين؛ بقتال الضالين المضلين، وبقتل المحادين المشركين.

(١) في (أ): للكافرين.

(٣٩٨/١)

فهل سمع الحسن بن محمد بشيء من كتاب الله سبحانه وأمره، وإذنه للمؤمنين وزجره؛ أمراً منه للكافرين بقتال المؤمنين، أو حضاً لهم على المسلمين؟ بل في كل كتابه يأمر بقتال الكافرين، ويحض على محاربة الفاسقين. من ذلك قوله: {قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} [التوبة: ٣٦]، وقال ترغيباً في قتال الناكثين، وتفضيلاً للمؤمنين المجاهدين على جميع العالمين: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١]. فدل بما جعل لهم من الجزاء، وأعد لهم على ذلك من كريم العطاء، أن ذلك من فعلهم له رضى.
ثُمَّ قال فيمن تعدى على المؤمنين، وخالف فيهم حكم رب العالمين: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج: ١٠]، فأخبر أَنَّهم على ذلك عنده معذبون، فدل ذلك من فعل العدل الرحيم؛ على أنهم كانوا له مخالفين، وفي تعديهم وفتنهم(١) له عاصين، وعلى فعلهم - لا فعله - أوجب عليهم العذاب، ولو كان أذن لهم في ذلك لأجزل لهم عليه الثواب. فسبحان الرؤوف الجواد، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن الإذن بالفساد.
فليعلم من سمع قولنا من العالم أن الإذن من الله على معنيين:

(١) في (ط): وقتلهم.

(٣٩٩/١)

فأما أحدهما: فإذن أمر وإرادة، وحكم ومشيئة. وذلك قوله سبحانه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، فهذا معناه معنى حكم بالزيادة للشاكرين، وبالعذاب للكافرين. وكذلك قوله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: ٣٩].
وأما المعنى الآخر: فإذن تخلية وإمهال(١) للعصاة فيما يكون منهم من العصيان؛ فعلى ذلك يخرج معنى قول الله سبحانه: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ}، يعني تعالى بتخلية الله لهم.
وكذلك قال سبحانه في هاروت وماروت ومن يتعلم منهما: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢]، يريد سبحانه بتخلية الله لهم؛ لإثبات الحجة عليهم، إذ قد مكنهم من العمل والفعل، ثُمَّ أمرهم بتقواهم، وبصرهم غيهم وهداهم، وعن تعليم السحر وتعلمه نهاهم، فإن ائتمروا، وتعليمَ السحر وتعلمَه تركوا؛ أنيلوا الثواب، وإن أبوا، وما نهوا عنه تخيروا؛ وجب عليهم بفعلهم العقاب، وحرموا بذلك من الله الثواب. تم جواب مسألته.
المسألة الثامنة عشرة: عن التزيين بالإرادة لا بالأمر

(١) في (ب): وإهمال، ومعناه: تركهم.

(٤٠٠/١)

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن التزيين؛ فقال: خبرونا عن التزيين بالإرادة دون الأمر، فإن أنكروا أن الله يزين لعباده دون أن يكون أمراً منه؛ فقد رد الله عليهم قولهم؛ فقال في الأنعام: {وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام: ١٠٨]، وقال في حم السجده: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} [فصلت: ٢٥]. وقال في النمل: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} [النمل: ٤]. هذا كله تزيين إرادة؟ أو ليس إرادة؟. تمت مسألته.

جوابها

وأما ما سأل عنه وقال، وتوهم من زور المقال(١)؛ من أن الله تباركت أسماؤه، وعز بكريم ولايته أولياؤه؛ زين للكافرين أعمالهم تزييناً، وحسنها في قلوبهم تحسينا، وأنه أراد بذلك منهم إقامتهم فيها، ومثابرتهم عليها، جل الله عن ذلك، وتقدس عن أن يكون كذلك. واحتج في مقاله، وفيما ارتكب من ضلاله، بقول الله سبحانه:{وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}، فصدق الله تبارك وتعالى فيما قال، وتقدس ذو الجبروت والجلال.

---

(١) في (ب): المحال.

(٤٠١/١)

فأما قوله تبارك وتعالى: {وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ}؛ فإن هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام المخزومي لعنه الله، وذلك أنَّه لقي أبا طالب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقال: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يشتم(١) آلهتنا، ويقع في أدياننا، واللات والعزى لئن لم يكف عن شتمه آلهتنا لنشتمن إلهه، فأنزل الله في ذلك ما ذكر في أول هذه الآية، تأديباً للمؤمنين، فأمرهم بالكف عن شتم أصنام المشركين، لكيلا يجترئوا بغير علم على شتم رب العالمين.

---

(١) في (ب):يسب.

(٤٠٢/١)

وأما ما احتج به الحسن بن محمد في الآيات المنزلات: آية النمل، وآية الأنعام، وآية حم السجدة، وما ذكر فيهن ذو الجلال والإكرام، من قوله: {زَيَّنَّا}، و{قَيَّضْنَا}، فإن ذلك من الله هو الإمهال، وترك المغافصة لهم بقطع الآجال، وما كان في ذلك منه لأهل الجهل من التبري منهم، والخذل منه سبحانه لمن عشا عن ذكر ربه منهم، فلما أن أمهلوا، وعلى ماهم عليه من الشرك والكفر تركوا، وبالعقوبات لم يعاجلوا، وأملي لهم ليرجعوا فتمادوا ولم ينيبوا، ورأوا من إمهال الله وتأخيره لهم، وصرف ما عاجل به غيرهم؛ من القرون الماضية، والأمم الخالية، من ثمود وعاد، وفرعون ذي الأوتاد، وقوم نوح وقوم لوط، وأصحاب الرس والأيكة، وقوم تبع والمؤتفكة، وغير ذلك من القرون المهلكة، فزادهم تأخير ذلك عنهم اجتراء وتكذيباً، ومجانة وافتراء وتزييناً(١)، بصرف ذلك عنهم [مع] (٢) ما هم عليه من أعمالهم، وفاحش قولهم وأفعالهم. فكان إملاء الله لهم وتركهم ليرجعوا أو لتثبت الحجة عليهم، وتنقطع المعذرة إليهم؛ هو الذين أطمعهم، وزين عملهم لهم، فجاز أن يقول: (زينا لهم)؛ إذ قد تفضلنا وأمهلنا، وأحسنا في التأني بكم ورحمنا. وكذلك تقول العرب لعبيدها، يقول الرجل لمملوكه، إذا تركه من العقوبة على ذنب من بعد ذنب وتأني به، وعفى عنه وصفح؛ ليرجع ويصلح؛ فتمادى في العصيان، ولم يشكر من سيده الإحسان؛ فيقول له سيده: أنا زينت لك، وأطمعتك فيما أنت فيه إذ تركتك وتأنيت بك، ولم أؤاخذك ولم أعاجلك.

فهذا على مجاز الكلام، المعروف عند أهل الفصاحة والتمام.

---

(١) في (ط): وترتيباً.
(٢) زيادة ليستقيم المعنى.

(٤٠٣/١)

وأما الآية التي في حم السجدة فكذلك، ألله أوجد القرناء وخلقهم، ولم يجمع بينهم وبين من أطاعهم، ولم يأمرهم بطاعتهم ولا اتباعهم، بل حضهم على مخالفتهم، وأخبر بعداوتهم، ونهاهم عن اتباع الهوى؛ فقال: {وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الكهف: ٢٨] وقال)(١): {وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [القلم: ١٠]. وقال فيمن يأمر ويوسوس بالسوء من الشياطين: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً} [فاطر: ٦]، فبين كل ما افترض وأمر به، فلم يترك لذي علة قبله متعلقاً، فكان تقييضه(٢) لهم ما ذكر من القرناء؛ هو تخليته لهم وتبريه منهم، وترك الدفع لنوازل الأسواء عنهم، وذلك فيما تقدم منهم من الكفر بربهم والشرك بخالقهم. تم جواب مسألته.

وبتمامها تم الجزء الأول. والحمد لله كثيراً وصلواته على خير خلقه محمد النبي وآله الطيبين وسلامه، وحسبنا الله وحده وكفى. ويتلوه الجزء الثاني من مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية في تثبيت الجبر والتشبيه، ورد الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم، عليه السلام، في نفي ذلك عن الله سبحانه، وإثبات العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد.

الجزء الثاني

من مسائل محمد بن الحسن بن الحنفية

المسألة التاسعة عشرة: عن الجعل بالإرادة لا بالأمر

(١) سقط من (ب).
(٢) في (ط): نقيضه وهو تصحيف.

(٤٠٤/١)

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [الكهف: ٥٧]، إلى آخر الآية، فقال: أخبرونا عن الجعل بالإرادة دون الأمر، فإن أنكروا، فأخبرهم أن الله يقول: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً} [الكهف: ٥٧]، وقال سبحانه: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة: ٧]. في آيات كثيرة من الكتاب؛ فيقال لهم: ما ذلك الذي جعل الله وهو كائن كما جعل؟ فإن قالوا: إنَّما ذلك الدعاء، فقل: إن الدعاء قبل ذلك، فقد دعا العابد جميعاً، وهذا شيء قد خص به من يشاء من خلقه ولم يعمهم، لأنَّه إنَّما يهتدي من جعل الله في قلبه الهدى، ولم يعمهم بالهدى. فإن قالوا: قد نعلم أن الله قد جعل الناس كلهم مهتدين، ولا نقول إن الله قد جعلهم كفاراً، فقل: إن الله يرد عليكم قولكم في كتابه، فإنه قد قال: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٦٠]. ألا ترى أن الله قد جعل منهم القردة والخنازير [وعبد الطاغوت](١)؟ فإن زعموا أن الله إنَّما سماهم بذلك ونسبهم إليه، فقل: فلذلك لم يجعلهم قردة وخنازير وإنما سماهم ونسبهم إليه. (٢)

(١) زيادة ليستقيم المعنى.
(٢) كذا في (أ)، والصواب فكذلك. والمعنى: إن زعموا أن جَعْلَهم عبد الطاغوت إنما هو جعل الحكم والتسمية، فكذلك جعلهم قردة وخنازير، وهم لا يقولون بذلك فيه، فكذلك فيما عطف عليه، هذا ما أراده، والله أعلم.

(٤٠٥/١)

وإن أقروا أن الله جعلهم عبدة الطاغوت فذلك نقض لقولهم، وإن قالوا: إن الله لم يجعلهم عبدة الطاغوت، كان ذلك تكذيباً منهم، فقل: فإن الله قد قال أيضاً: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[الأنعام: ١٢٣]، ألا يرون أن الله يخبر أنَّه قد جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها؟ فإن قالوا: إنَّه لم يجعلهم فيها ليمكروا فيها؛ كان ذلك تكذيباً منهم، وإن أقروا كان ذلك نقضاً لقولهم.

وقد قال الله لقوم فرعون: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ} [القصص: ٤١]، فإن قالوا: نعم؛ كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: لا، فقد كذبوا والله يقول: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} [النحل: ٨٠ - ٨١]، ألا ترى أن الناس هم غزلوا ونسجوا، وعملوا الدروع، واتخذوا المساكن والبيوت، ثُمَّ نسب ذلك منه وإليه، وأخبر أنَّه خلقه؛ فمن به عليهم، وذلك أنَّه أراده فكان ما أراد، ولم يأمر به.
تمت مسألته.
جوابها
وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً} [الكهف: ٥٧].

(٤٠٦/١)

فتوهم وظن فقال: إن الله جعل على قلوبهم أكنة حتى لا يفقهوه(١) وفي آذانهم وقراً، وأن ذلك من الله فعل بهم ليشقيهم، وليس ذلك لعمره كذلك، ولو كان الله عز وجل الذي حجب قلوبهم وآذانهم عن ذلك؛ لم يبعث الرسل إليهم، ولم يحتج ببرهانه(٢) عليهم، وكانوا عنده في تركهم لذلك معذورين، وكانوا على ذلك مثابين؛ إذ هم لما أرسل إليهم به غير مستطيعين، وقد قال الله سبحانه: {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٢٣-٢٨٦]، وقال: {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧]. فكيف يكلفهم الإئتمار(٣)؛ وقد حجب قلوبهم عن الاعتبار؟!، فتبارك الله العزيز الجبار.
بل معنى قوله - جل جلاله - ذلك؛ هو إنكار عليهم لقولهم الذي قالوا، حين دعاهم الرسول إلى الحق، وبين ما هم عليه من الباطل والفسق؛ فقالوا له استهزاء وعبثاً(٤): {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت: ٥]، فقال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله يحكي قولهم، ويرد كذبهم عليهم؛ فقال: {إِنَّا جَعَلْنَا}، يريد سبحانه: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة كما قالوا، وفي آذانهم وقراً كما ذكروا، بل الزور في ذلك قالوا، وبالباطل تكلموا، فأراد بذلك معنى الإنكار عليهم، والتكذيب لهم والتقريع بكذبهم، وتوقيف نبيه صلى الله عليه وآله على باطل قولهم، وجليل ما أتوا به من محالهم؛ فقال: ((إنا))، وهو يرد ((أننا(٥)))، فطرح الألف استخفافاً لها، والقرآن فعربي، إلى النور والحق يهدي.

(١) في (أ): لا يفهموا، وفي (ب):لا يفقهوا.
(٢) في (أ): ببراهينه.
(٣) في (ط): الإيمان.
(٤) في (أ): وعتيا، وفي (ب): وعيباً.
(٥) تصحفت في (ط): إننا.

(٤٠٧/١)

والعرب تطرح الألف من كلامها(١) وهي تريدها، فيخرج لفظ الكلام لفظ إخبار ونفي، وهو تقريع وإيجاب واستفهام. وتثبتها وهي لا تريدها؛ فيخرج لفظ شك، ومعناه معنى خبر وإيجاب، في كل ما جاءت به من الأسباب. من ذلك قول الله (سبحانه: {لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: ١]، وقوله)(٢): {لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد: ١-٢]، فقال: لا أقسم؛ وإنما أراد: ألا أقسم؛ فطرح الألف منها؛ فخرج لفظها لفظ نفي، وهي قسم وإيجاب. وقال في عبده ونبيه يونس صلى الله عليه: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات: ١٤٧]، فقال: أو يزيدون، فأثبت الألف وهو لا يريدها؛ فخرج لفظ الكلام لفظ شك، ومعناه معنى إيجاب وخبر، أراد سبحانه: وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون على مائة ألف.

(١) في (ط): كلاهما، وهو تصحيف.
(٢) سقط من (ب) و(ط).

(٤٠٨/١)

فأراد بقوله: {إِنَّا جَعَلْنَا}؛ التقريع لهم، والتوقيف لنبيه على كذبهم، لا ما يقول الجاهلون إنَّه أخبر عن فعله بهم.
ألا ترى كيف يدل آخر الآية على أولها؛ من قوله: {وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}، يقول: فإن كان الأمر على ما يقولون، وكنا قد فعلنا بهم ما قد يذكرون؛ فلم أرسلناك تدعوهم إلى الهدى، وتزحزحهم عن الردى، (فلن يهتدوا إذاً أبداً، فقال: ((إذاً أبداً))، إن كان الأمر على ما يقولون، وكنا قد فعلنا بهم ما يذكرون؛ فلم أرسلناك تدعوهم إلى الهدى، وتزجرهم عن الردى) (١)وهم لو كانوا كذلك، وكنا فعلنا بهم شيئاً من ذلك؛ ثُمَّ دعوتهم إلى الهدى (٢)، لم يطيقوا أن يهتدوا إذاً أبداً. ألا تسمع قوله: {وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}، (فقال: إذاً) (٣) يريد إن كان ما يقولون علينا ـ مما ذكروا أنَّه على أبصارهم وأسماعهم وقلوبهم ـ فعلاً منا بهم؛ فلن يهتدوا إذاً أبداً؛ إذ كنا منعناهم بذلك عن الاهتداء، فكيف نرسلك إلى من لا يستطيع أن يهتدي، ولا يفلح ولا يقتدي؟ فهذا ما لا نفعله بك ولا بهم، ولا نجيزه فيك ولا فيهم، ولا نراه حسنا من فاعل لو فعله من البشر.
وقد يمكن أن يكون الجعل من الله عز وجل للأكنة والوقر الذي ذكر؛ هو الخذلان لهم وتركهم من التوفيق والتسديد، فلما تركوا من عون الله وتسديده تكمهوا، وغووا وهلكوا، ومالت قلوبهم في أكنة الهوى؛ فأعقبهم ذلك شقاء ووقراً. والوقر هاهنا هو ترك الاستماع للحق، وما يركبون من الفسق.

---

(١) زيادة من (أ)، ويظهر أنه تكرير.
(٢) في (ط): الهداية.
(٣) سقط من (أ) و(ب).

(٤٠٩/١)

وأما ما قال، وعنه سأل؛ من قول الله عز وجل: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة: ٧]، فتوهم أن الله جعل فيهم مودة قسرهم عليها، وأدخلهم جبراً فيها، وليس ذلك بحمدالله كذلك.
وتفسير هذه الآية فهو يخرج على معنيين، وكلاهما شاف، ومن التطويل كاف:
فأولهما: ما جعل الله للمؤمنين من الإذن، وأطلق لهم من البر والإقساط والإحسان؛ إلى من كان على غير الإيمان؛ من المشركين الذين لم يقاتلوهم(١)، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم؛ فقال: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً}. ثُمَّ قال: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨].
فكان ما أطلق لهم من البر والإقساط؛ أول الرحمة منه لهم، وجعل المودة بينهم؛ إذ قد أطلق لهم من الفعل ما يجتلب المودَّة، ويزرع المحبة؛ من اللطف والبر؛ في العلانية والسر. فلما أن تبَارُّوا(٢) وتنافعوا؛ جرت المحبة والمودة للمؤمنين في قلوب الكافرين؛ لما ينفعونهم به، ويحسنون إليهم فيه(٣). فكان الإذن من الله عز وجل للمؤمنين، بما يجتلب المودة في الإقساط إلى الكافرين؛ أفضل المنة منه على المحسنين.

---

(١) في (ط): يقاتلوا.
(٢) يعني تبادلوا فعل البر فيما بينهم، ونفع بعضهم بعضاً.
(٣) في (أ): لما يرفقوا بهم، ويحسنوا إليهم فيه.

(٤١٠/١)

وقد تكون تلك المودة(١) هي ما في الإيمان من البركة واليمن، وما جعل الله بين المؤمنين من المحبة، وافترض عليهم من التواد على الدين، وحكم به من الأخوة بين المؤمنين؛ حين يقول: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠]. فكان كل من دخل فيما أمر بالدخول فيه من

الإيمان إذا دخل، وإلى الله سبحانه أقبل؛ سدده الله سبحانه ووفقه، وحببه إليه من بعد إقباله إليه، وبغض إليه الكفران، كما قال الله الرحمن: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧]، فكان كل من دخل في الإسلام، من جميع الأنام؛ أخرجته بركة الإيمان من الحقد، والدغل والحسد؛ حتى يعود إلى المؤاخاة على الحق، والقول في ذلك على الله بالصدق. فهذا ما لا ينكره ذو عقل وتمييز. ألا تسمع كيف حكى الله عز وجل ذلك عنهم، وذكر لك قولهم؛ حين كانوا يدخلون في الدين، ويتابعون المسلمين على اليقين، حين يقول: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ١٠]. فلما أن دخلوا في الإيمان؛ صاروا عليه وفيه نعم الأخوان متحابين، متواصلين متواخين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فكانوا كما قال الله جل جلاله: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ

(١) هذا هو المعنى الثاني.

(٤١١/١)

عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج: ٤١].

وأما ما نسب الحسن بن محمد إلى الله جل ثناؤه من فاحش المقال، فزعم أن الله جعل عبدة الطاغوت للطاغوت عابدين، وفيما أسخطه من ذلك أدخلهم مجبورين، واحتج بما لم يعلم معناه؛ من تفسير القرآن ومنزل الفرقان، الذي لا يعلم تأويله إلاَّ الله والراسخون في العلم؛ فقال: قال الله في ذلك: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٦٠]. فقال الحسن بن محمد: ألا ترى أنَّه قد جعل منهم القرة والخنازير وعبد الطاغوت؟، وقال: إن أنكروا أن الله جعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت؛ فقد كذبوا الله، وإن أقروا فقد رجعوا عن قولهم.

ولم يا ويحه وويله! - إن لم يتب - من الله وغوله(١)؟!!، ألا تسمع كيف فرق الله عز وجل بين فعله وفعل عبيده؟ ألا ترى أن مسخه لمن مسخ لم يكن لهم فيه فعل، بل نزل بهم وهم له كارهون، وحل بهم وهم عليه مكرهون، وأن عبادة الطاغوت كانت فيهم، وأنها بلا شك مقالتهم؟، فَبَيْنَ ما دخلوا فيه طائعين وله متخيرين، وبين ما فعل بهم مجبورين وبه معاقبين؛ فرق عند ذي العلم؛ من أهل المعرفة والحكم.

فنقول في ذلك: إن الله لم يأخذهم ولم يجعل منهم ما جعل من القردة والخنازير، ومسخ منهم من مسخ من المذنبين؛ إلاَّ بعد الإعذار والإنذار، مراراً بعد مرار، فلما أبوا، وعموا عن أمره سبحانه وخالفوا؛ أخذوا بذنوبهم، فلم يجدوا من دون الله ولياً ولا نصيراً.

(١) الغول والاغتيال الأخذ على غرة.

(٤١٢/١)

وأما قوله: {وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}، فإن ذلك مردود على أول الآية، وهو مقدم في المعنى، وكثير مثل ذلك على ما يكون على التقديم والتأخير، يعلمه من عباده العالم الخبير، فمعناه: أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وعبد الطاغوت، وجعل منهم القردة والخنازير، أراد أن من عبدالطاغوت فهو شر من ذلك، فهذا موضع ما ظن من {عَبَدَ الطَّاغُوتَ}. ألا ترى كيف أهلك من كان كذلك؟ ومن اجترأ من الخلق كاجتراء أولئك؟.

وكذلك قولنا فيما توهم وذهب إليه، فأهلك وهلك ولله الحمد فيه، فقال: إن الله جعل في المجرمين ذلك، وابتلاهم به وحملهم عليه، ثُمَّ احتج في ذلك من قول الله عز وجل بما عليه لا له، فقال: قد قال الله فيما قلنا وبه تكلمنا: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}، فقال: ألا ترون أن الله قد جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، فقد جعلهم مكارين(١)، وقضى به عليهم، وركبه فيهم.

(١) في (أ):ماكرين.

(٤١٣/١)

فقولنا في ذلك، أن جعل الله لهم؛ هو خلقه لهم، وتصويرهم في كل قرية كما صور غيرهم. وأما قوله: ((ليمكروا))، فإنما أراد الله سبحانه لأن لا يمكروا، فطرح (لا) وهو يريدها استخفافاً لها، والقرآن عربي بلسان العرب نزل، وهذا تفعله العرب(١)، تطرح لا وهي تريدها، وتأتي بها وهي لا تريدها، فيخرج اللفظ بخلاف المعنى، يخرج اللفظ لفظ نفي وهو إيجاب، ويخرج لفظ إيجاب وهو معنى نفي، قال الله عز وجل: {لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢٩]، فقال: {لِئَلاَّ} فخرج لفظها لفظ نفي، ومعناها معنى إيجاب، فأتى بـ(لا) وهو لا يريدها، وإنما معناها: ليعلم أهل الكتاب. وقال: {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران: ١٧٨]، فخرج اللفظ لفظ إيجاب ومعناها نفي، يريد سبحانه: لئلا يزدادوا إثماً.

وقال الشاعر:

ما زال ذو الخيرات لا يقول ويصدق القول ولا يحول(٢)

فقال: لا يقول، وإنما يريد:يقول، فأدخلها وهو لا يريدها، ووصل بها كلامه ليتم له بيته استخفافاً لها، وقال آخر:

بيوم جدود لا فضحتم أباكم... وحاربتم(٣) والخيل تدمى شكيمها

فقال: لا فضحتم أباكم، وإنما يريد: فضحتم، فأدخلها وهو لا يريدها.

وقال آخر:

نزلتم منزل الأضياف منا... فعجلنا القرى أن تشتمونا(٤)

فقال: أن تشتمونا، فخرج لفظها لفظ إيجاب في قوله: أن تشتمونا، ومعناها معنى نفي، أراد: لأن لا تشتمونا.

(١) في (أ): وهذا فهو لغة العرب.
(٢) لم أقف على قائل هذا البيت.
(٣) في (أ): وسالمتم.
(٤) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته الشهيره.

(٤١٤/١)

وأما ما قال وذكر، واحتج به مما لا يعرفه وسطر، فقال: قال الله في قوم فرعون: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ} وادعى على الله سبحانه أنَّه جعل من كان كذلك منهم كافراً، ومن كان منهم كافراً فاجراً، وأنه طبعهم على ذلك، وفيه ركبهم وخلقهم. وليس ذلك، والحمدلله على ما ذكر، ولا على ما قال وخبر. وهذا يخرج من الله على معنيين عدلين محققين:

أحدهما: أن يكون جعله لهم؛ هو ما أوجده منهم، وخلقه من أجسامهم، لا ما ذهب إليه من فعل أفعالهم.

والمعنى الآخر: أن يكون ذو الجلال والإكرام حكم عليهم بما يكون منهم من أعمالهم، ودعائهم إلى خلاف طاعته؛ من الكفر به والصد عن سبيله، وما كانوا يفعلون ويجترئون به على الله، فكانت حال من يطيعهم على كفرهم، ويشركهم في فعلهم، ويدعوهم إلى غيهم، عند الله كحالهم، فلما أن دعوا إلى ما يقرب إلى النار؛ مما كان يفعله الفجار؛ كانوا أئمة يدعون إلى الجحيم، فحكم عليهم بفعلهم العليم، ودعاهم وسماهم به الرحمن الرحيم، فكان دعاوه إياهم بذلك من فعلهم، وتسميته لهم بما دعوا إليه إخوانهم من النار؛ جعلا في مجاز كلام العرب، كما يجوز أن يقال لمن قال لصاحبه: يا حمار: جعلته ويحك حماراً، وإنما يريد بذلك سميته لا خلقته. وكذلك إذا دعاه بالضلال؛ قيل: جعلته ضالاً، إذ قد سميته به.

(٤١٥/١)

فأما ما قال وتوهم أنّه إذا خرج في اللفظ شيء كان كذلك في المعنى، فقال: وقد قال الله سبحانه: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ*وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}، فتوهم الحسن بن محمد على الله تبارك وتعالى أنّه الفاعل لكل ذلك، وليس ذلك والحمدلله كذلك. وسنفسره إن شاء الله ونبينه، وبالحق نميزه. فنقول: إن معنى قوله جل جلاله: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً}، هو كما قال سبحانه، هو الذي خلق الخشب والحجر، والماء والمدر، هو دلهم على ذلك، وهم بنوا(١) وعملوا المساكن، وكل ما صنعوه من الأماكن، وهو جعل وخلق الأنعام وجلودها، وهم عملوها بيوتاً، ولو لم يخلق الجلود لم يقدروا على عمل ما ذكر من البيوت، وكذلك لو لم يخلق الحجر، والخشب والمدر؛ لم يبنوا بيوتاً يسكنونها، ولا دوراً يأوونها. وكذلك السرابيل التي تقي الحر وقت الحر، وتقي القر وقت القر. وكذلك سرابيل البأس(٢)، التي تقي وتحرز من الناس(٣)؛ فالله عز وجل أوجد حديدها، ودلهم على عملها، وهم تولوا(٤) فعلها وسردها(٥) وتأليفها ونسجها.

---

(١) في (ط) تصحفت إلى: لبوا.
(٢) في (ب) و(ب): اللباس، وهو خطأ.
(٣) في (ب) (ج): البأس.
(٤) في (ط): يتولون.
(٥) في (أ،ب): وسمرها. وسرد الدرع ونسجها: تداخل الحلق بعضها في بعض.

(٤١٦/١)

وأما ما ذكر من قول الله جل ثناؤه: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً}؛ فكذلك فعل عز وجل، فهو المتولي لذلك لم يفعله غيره، وهو جاعله، فجعل من الأكنان؛ وقاء أوقى من البنيان، وجعل من الظلال؛ لما خلق من الأشجار وغيرها من الجبال؛ ما تبين فيه القدرة والمنة لذي الجلال. فما كان من فعل العباد؛ فخلاف أفعال(١) ذي المنة والأياد، وما كان من فعل الرحمن، فخلاف فعل الإنسان، لا كما قال المتكمهون الجهال: الله سبحانه والعبد سواء في الأفعال، كذب المبطلون. تم جواب مسألته.

المسألة العشرون: الإغراء بالإرادة لا بالأمر

ثُمَّ أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة؛ فقال: خبرونا عن الإغراء بالارادة دون الأمر، فإن الله يقول: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [المائدة: ١٤]، فسلهم: هل كان هؤلاء يستطيعون(٢) أن يخرجوا مما صنع الله بهم، وأن يتركوا العداوة بينهم؟ فإن قالوا: نعم؛ كذبوا كتاب الله، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها

---

(١) في (أ): فعل.
(٢) في (أ): هل كانوا لا يستطيعون، وفي (ب): هؤلاء لا يستطيعون.

(٤١٧/١)

وأما ما سأل عنه من الإغراء بالارادة دون الأمر؛ فزعم أن الله جل ثناوه يأمر بما لا يريد، ويريد من الأشياء ما لا يشاء كينونته، فأخطأ في قوله وأمره، ونسب الجهالة في ذلك إلى ربه، ورضي فيه بما لا يرضاه في نفسه، ولا يراه حسناً من أمته وعبده. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ألا ترى أن الأمر بما لا يشاء من أجهل الجاهلين؟ وعن الحكمة من أبعد المبعدين؟ فكيف اجترأ الحسن بن محمد على رب العالمين؛ فنسب إليه أشد ما يعاب به المربوبون؟ثُمَّ احتج في قوله، وسطر أفحش القول في ربه؛ فقال: قال الله: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [المائدة: ١٤]، فقال: إن الله تبارك وتعالى أغرى بينهم ولم يرد الإغراء، (ولم يأمر بالإغراء)(١)، وأدخلهم من ذلك فيما لم يشأ. وليس ذلك كما توهم ولا كما قال، وأول الآية يدل على عدل الله في ذلك حين أخبر؛ بما كان منهم وذكر؛ من الترك والرفض لما أمروا بأخذه، والأخذ لما أمروا بتركه، فلما أن فعلوا من ذلك ما عنه نهوا؛ استأهلوا من

الله سبحانه الترك والخذلان؛ بما كان منهم لله من العصيان، فتركهم من الرشد والتوفيق فضلوا، وعن الخير والصلاح في كل أمرهم عموا، والبرَّ والتواصلَ تركوا، فغريت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ونشأ على ذلك خلف من بعد خلف، فكان ذلك؛ بسبب خذلان الله لهم وسخطه عليهم لذلك(٢)، فلما كان ذلك كذلك جاز أن يقال: إن الله أغرى بينهم العداوة بكل(٣) ضلال قالوا، فنسب المسيح منهم قوم إلى أنَّه رب، ونسبه قوم آخرون إلى أنَّه ابن للرب، وقال آخرون بما قال في نفسه أنَّه عبد الله، حين أخبر عنه بقوله، حين أشارت

(١) سقط من (أ).
(٢) كذا في النسخ ولعل الصواب: كذلك.
(٣) في (أ،ط): وبكل ولعل الصواب حذف الواو كما أثبت من ب.

(٤١٨/١)

إليه أمه، قال الله جل ثناؤه: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قالوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً* قالَ إِنِّي عَبْدُاللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً* وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً} [مريم: ٢٩-٣١]، فلما أن اختلفوا، وعلى الحق لم يأتلفوا، كفر بعضهم بعضاً، وبرئ فاسق من منافق، ومنافق من فاسق، وخذلهم(١) الله فيه، ولعنهم سبحانه عليه، غريت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. فلما كان عز وجل الذي خذلهم فضلوا، وتركهم فهلكوا، قال: {فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، وهذا ولله الحمد مشهور، في اللسان معروف. تم جواب مسألته.
المسألة الحادية والعشرون: عن قول الله تعالى: {وهو الذي كف أيديهم عنكم..}
ثُمَّ أتبع ذلك المسألة؛ فقال: خبرونا عن قول الله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ٢٤]، وذلك يوم الحديبية، فسلهم: هل كان واحد من الفريقين يستطيع أن يبسط يده إلى أخيه، والله عز وجل يخبر أنَّه قد كف بعضهم عن بعض بإرادة لا بأمر؟ فإن قالوا: نعم، قد كانوا يستطيعون أن يقاتل بعضهم بعضاً؛ كذبوا كتاب الله عز وجل، وإن قالوا: لا؛ فهذا نقض لقولهم. تمت مسألته.
جوابها

(١) في (أ): خذلهم.

(٤١٩/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ٢٤]، فقال: هل كان يستطيع أحد أن يمد يده إلى عدوه، وقد كف الله سبحانه أيدي حزبه؛ من رسوله والمؤمنين، عن حزب الشيطان الفاسقين، وأذن لرسوله وأطلق له مهادنة قريش ومن معهم من المشركين؛ نظراً منه سبحانه للمؤمنين، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله لما أن طلبته قريش منه، ولو لم يأذن الله له عز وجل في ذلك لم يفعله، ولم يك ليرجع يوم الحديبية حتى يقاتلهم، وعلى الحق وبالحق ينازلهم، ولقد أراد ذلك صلى الله عليه وآله، وبايع أصحابه على الموت فيه بيعة ثانية، وهي البيعة التي ذكر الله عن المؤمنين ورضي بها عنهم، وأنزل السكينة عليهم، وصرف القتال، وكف أيدي الكل من الرجال؛ بما أطلق لرسوله صلى الله عليه وآله من اجابته لهم إلى ما طلبوا من المهادنة في ذلك العام، والرجوع عنهم والدخول في السنة المقبلة إلى البيت الحرام، فأطلق له الرجوع عنهم والترك لمقاتلتهم لما ذكر سبحانه، (فمن كان بمكة)(١) ممن كان بمكة من المؤمنين والمؤمنات، لأن لا يطأوهم فيقتلوهم بغير علم، فتصيبهم منهم معرة عند الله بالحكم. والمعرة ها هنا فهي الدية، لا ما قال غيرنا به فيها من الإثم، وكيف يأثم من بر وكرم وقاتل على الحق - كما ذكر الله عز وجل - من خالفه من الخلق؛ فقتل مؤمناً بغير علم ولا تعمد وهو إنَّما قتله وهو يحسبه كافراً، ويظنه في دين الله فاجراً، فهو والحمدلله في ذلك غير آثم، ولا متعد في فعله ولا ظالم، ولكنه مخطئ فعليه ما على مثله، وهو ما ذكر الله في قوله حين يقول: {وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ} [النساء: ٩٢]. وإنما جعل عليه العتق والدية تعظيماً لقتل المؤمن، وتشديداً على

(١) ليس في (أ).

(٤٢٠/١)

المؤمنين في التثبت والتبيين(١) عند قتال الكافرين، كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦].
وأما معنى قوله سبحانه: {مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيهِمْ}، فهو الحكم لهم من الله عز وجل بالنصر إذ نصروه. ومن ذلك ما قال ذو العزة والجلال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، ولا نصر يكون أكبر من نصره لرسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه من المؤمنين، فحكم الله سبحانه لهم على أعدائه بالنصر إذا التقوا، وبالغلبة إن احتربوا، ألا تسمع كيف يقول: {وَلَو قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} [الفتح: ٢٣]، يقول: حكم الله للمؤمنين بالنصر على الفاسقين، ولن تجد لما حكم به رب العالمين للمؤمنين تبديلاً. فهذا معنى الآية وتفسيرها، لا كما قال، من نسب إلى الله جل ثناؤه فاحش المقال؛ من جبر العباد على الخير، وإدخالهم في كل شر وضير. تم جواب مسألته.
المسألة الثانية والعشرون:
عن غنائم الكافرين، وهل كانوا يستطيعون الإيمان حتى لا تؤخذ غنائمهم؟
ثُمَّ أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عما وعد الله جل ثناؤه رسوله والمؤمنين من الغنائم الكثيرة التي قال: {تَأْخُذُونَهَا}، هل كانت تلك الغنائم التي وعدهم إياها تكون إلاَّ من الكافرين؟ فإن قالوا: لا، فقل: فهل كان أولئك الكافرون يستطيعون أن يؤمنوا حتى لا تحل غنائمهم ولا دماؤهم ولا أموالهم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله عز وجل، وإن قالوا: لا، فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

---

(١) في (ب): والتبين.

(٤٢١/١)

جوابها
وأما ما سأل عنه، وفيه تكلم وقال في الغنائم التي وعدها الله المؤمنين، وأخبرهم أنهم يأخذونها من الكافرين، فقال الحسن بن محمد في ذلك: هل كان الكافرون يستطيعون الإيمان؛ وهم لو آمنوا لم تحل غنائمهم؟، وهم لو لم تؤخذ غنائمهم لم يتم وعد(١) الله لنبيه، فلا بد أن يثبتوا على كفرهم جبراً؛ حتى تؤخذ منهم الغنائم قسراً.
فقولنا في ذلك، الحق لا قول المبطل الهالك: إن الله سبحانه علم من أهل الغنائم - قبل أن يعد نبيه غنائمهم - أنهم لا يؤمنون، وأنهم سيثبتون على الكفر ويقاتلون، وأنهم لا يسمعون لله ورسوله ولا يطيعون، فوعده غنائمهم والنصر عليهم؛ إذ علم أنهم لا يختارون الإيمان، ولا يطيعون الرحمن، وأنهم يختارون الإقامة على الضلال والكفران، والمحادة لله ورسوله والعصيان، فلذلك وعد المؤمنين غنائمهم، وأجاز لهم سبيهم، وأحل مقاتلتهم واسترقاق ذراريهم، وذلك بما جنت أنفسهم عليهم. تم جواب مسألته.
المسألة الثالثة والعشرون:
عن قول الله: {فكف أيديهم عنكم..}
ثُمَّ أتبع ذلك المسألة، عن قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَومٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ} [المائدة: ١١]، وذلك أن ناساً من اليهود كانوا أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وآله ونفر من أصحابه؛ فأخبر الله عز وجل رسوله وكف أيديهم عنه وعن أصحابه، فسلهم: هل كانوا يستطيعون أن يبسطوا أيديهم عليهم؛ وقد كفها الله عنهم؟ أم لا؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا قول الله جل ثناؤه، وإن قالوا: لا؛ فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.
جوابها

---

(١) في (ب): بطل وعد الله.

(٤٢٢/١)

وأما ما سأل عنه مما تحير فيه من قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ} [المائدة: ١١]، فتوهم الحسن بن محمد أن الله عز وجل كف أيديهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله (ومن كان معه) (١) وعن أصحابه المؤمنين غصباً حتى لم يكن لهم في ذلك حيلة، ولم يبسط أيديهم ((بالسواية)) (٢) إليه، وأنه قبضها عنهم قبضاً ومنعهم منعاً.

(١) ليس في (ب).
(٢) السواية: المكروه.

(٤٢٣/١)

وليس ذلك كما توهم، ولا هو على ما به تكلم، وسنشرح ذلك إن شاء الله، ونقول فيه بالحق على الله، فنقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله، كان خرج إلى يهود بني النضير في نفر من أصحابه - وكان بنو النضير ينزلون قريباً من المدينة - ليستعينهم في ديتين وقعتا خطأً على بعض المسلمين؛ فلما أن أتاهم رحبوا به وأدنوه(١)، وكل ما طلب منهم وعدوه، ثُمَّ تآمروا به وبأصحابه، وعزموا على الغدر به وبمن معه من أعوانه(٢)، فأهبط الله عز وجل بذلك جبريل صلى الله عليه على رسوله(٣) فاخبره به وأوقفه عليه، فنهض صلى الله عليه وآله مسرعاً هو ومن معه حتى رجعوا، ثُمَّ هيئوا(٤) وخرجوا إليهم فقاتلوهم، وأقاموا عشرين ليلة يحصرونهم في حصونهم، ثُمَّ نزلوا من بعد ذلك على حكم سعد بن معاذ، وكان من كبار الأنصار، وذوي القدر منهم والأخطار، وكانوا يتكلمون إليه، ويظنون - لما كان بينه وبينهم في الجاهلية من المداناة والإحسان - أنَّه سيحابيهم ويحكم بما ينجيهم كلهم، فحكم بأن يقتل رجالهم، وتسبى ذراريهم وحرمهم، وفي ذلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات))، ففعل ذلك بهم، وأخزاهم الله(٥) وأهلكهم، وأبادهم وقتلهم، فكان إعلام الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله بما اجتمعوا عليه، وعزموا وصاروا فيه وإليه؛ كفاً لأيديهم، ونقضاً لعزيمتهم، وإبطالاً لتدبيرهم. فهذا معنى ما تحير فيه الحسن بن محمد من تفسير الآية، لا ما قال به على الله عز وجل من البهتان، وما حمل من محكم القرآن على متشابه القرآن. تم جواب مسألته.

المسألة الرابعة والعشرون:

عن قول الله لعيسى {وإذ كففت بني إسرائيل عنك..}

(١) تصحفت في (ط) إلى: وأدَّبوه.
(٢) في (أ): أصحابه.
(٣) في (ب،ط): وعلى رسوله.
(٤) في (ب): تعبوا، وفي (أ): بعثوا، وهو تصحيف.
(٥) في (ط): وأخرجهم أو أهلكهم.

(٤٢٤/١)

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل لعيسى بن مريم وهو يذكر نعمة الله عليه؛ فقال: {وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ} [المائدة: ١١٠]، فهل كان لبني إسرائيل أن يبسطوا أيديهم على عيسى عليه السلام؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا قول الله، وإن قالوا: لا؛ فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها

وأما ما سأل عنه من قول الله لعيسى بن مريم المسيح العبد الكريم: {وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ}[المائدة: ١١٠]، فقال: هل كانت بنو إسرائيل تقدر على أن تبسط أيديها إليه، وقد كفها الله عنه وأنعم بذلك عليه؟ فقولنا في ذلك: أن الله لم يكف أيديهم عنه جبراً، ولكنه ألقى في قلوبهم الهيبة له ولمن معه من الحواريين، وأعلم نبيه صلى الله عليه بما يريدون منه وما يريدون فيه فحذرهم، واستعد بمن معه لهم فخافوهم وحذروهم، فلاشَى عزيمتهم، وأبطل في ذلك إرادتهم، ومن

على نبيه صلى الله عليه، بما ألقى له وللحق في قلوبهم من الهيبة والمخافة، فرجعوا خائبين، ومما أرادوا مؤيسين، وأعز الله سبحانه المؤمنين، وكبت الفاسقين.

(٤٢٥/١)

فهذا إن شاء الله معنى ما ذكر الله من كف أيديهم عن عيسى بن مريم صلى الله عليه نبيهم(١)، والمظهر للحق فيهم، والمطلق(٢) لهم بعض الذي حرم عليهم، المبرئ لأكمههم(٣) وأبرصهم، الشافي لسقيمهم، والمحيي لميتهم، والمنبي لهم عما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، وتلك أعظم آيات ربهم وبراهين خالقهم، فلما عتوا عن أمر خالقهم، قال حين ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} وأعوانك وأنصارك وخدامك، فآمن معه من بني إسرائيل الحواريون وكفر سائر الإسرائيليين، فأيد الله المؤمنين، فأصبحوا كما قال الله: {ظَاهِرِينَ}، حين يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٤]. فهذا قولنا في رب العالمين، لا كقول الجاهلين؛ الذين نسبوا إلى الله عز وجل أفعال العباد، وقلدوه ما يكون في ذلك من الفساد. فتعالى الله الواحد الرحمن؛ عن زخرف أقاويل الشيطان، المضاهين لمذاهب عبدة الأوثان، وما حكى فيهم الرحمن من قولهم: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...الآية} [النحل: ٣٥]. تم جواب مسألته.

المسألة الخامسة والعشرون:

عن الرعب، هل كان الكافرون يستطيعون الامتناع عنه؟

---

(١) تصحفت في (ط) إلى: بينهم.

(٢) المطلق: المحل.

(٣) الأكمه: الذي يولد أعمى.

(٤٢٦/١)

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً} [آل عمران: ١٥١]، وقال في سورة الحشر: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} [الحشر: ٢]، وقال: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً} [الأحزاب:٢٦]، فأخبرونا عن الرعب الذي قذف الله في قلوب الكافرين، هل كانوا يستطيعون أن يمتنعوا منه، وأن يصرفوه عن قلوبهم؟، فإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضا لقولهم، وإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا كتاب الله، وزعموا أن العباد يمتنعون من الله. وإن قالوا: إنَّما صنع الله ذلك بهم بكفرهم، فقل: ألستم تعلمون أن الرعب شيء لطيف لا يراه الناس ولا يردونه ولا يمتنعون منه حين يدخل في قلوبهم، فيوهن الله بذلك كيدهم، وينقض قولهم؟ فإن قالوا: نعم، فقل: وكذلك أيضاً التوفيق، شيء لطيف لا يراه العباد، يلقيه الله في قلوب المؤمنين، وأمور الله كلها كذلك، من أراد به خيراً وفقه، وسدده وأرشده، وكان ذلك عوناً من الله لهم، ومن أراد به سوءاً ثبطه وعوقه، وخذله وتركه وهواه، ووكله إلى نفسه، فوكله إلى الضعف والهوان، والله غالب على أمره. تمت مسألته.

جوابها

(٤٢٧/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً}، فإنا نقول: إن الرعب إنَّما ألقاه الله جل ثناؤه في قلوبهم؛ نكالاً وانتقاماً منهم على كفرهم وإشراكهم، ألا تسمع كيف فسر آخر الآية أولها؛ فقال: {بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ}، فكذلك الله سبحانه انتقم منهم بما أشركوا وكفروا، وخذلهم وتركهم من التسديد والتوفيق فهلكوا وتلاشوا، وعندوا فضلوا، وهانوا فتفرقوا؛ إذ وكلهم إلى

الضعف من أنفسهم، وإلى حولهم وقوتهم؛ فهانوا ورعبوا من القتال، ولقاء المؤمنين في تلك الحال. فكان تركه(١) لهم بما قدموا من شركهم؛ رعباً داخلاً في قلوبهم، مخامراً لصدورهم.

---

(١) في (ط): تركهم.

(٤٢٨/١)

وأما ما ذكر من قول الله سبحانه في بني النضير من اليهود: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ}؛ فكذلك فعل الله بهم. وذلك أنهم كانوا قد هادنوا الرسول عليه السلام، وخضعوا لأهل دعوة الإيمان والإسلام، حتى كان يوم الأحزاب، فجاءت قريش ومن تحزب معها من العرب؛ من اليمن ومُضَر، وأمدهم في ذلك يهود خيبر؛ يقاتلون الرسول والمؤمنين، مع أعداء الله الفاسقين، فلما أتى يهود خيبر أرسلوا إلى يهود بني النضير فوعدوهم أن يقاتلوا الرسول من ورائه إذا حميت الحرب بينه وبينهم، فنزلت بنو عامر أحد(١) من فوق المؤمنين، ونزلت قريش بطن الوادي من أسفل منهم، وكانت اليهود - يهود خيبر - قبل المسلمين(٢) مما يلي الحرة، وبنو النضير من وراء الرسول صلى الله عليه وآله، وفي ذلك ما يقول الله عز وجل: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً} [الأحزاب: ١٠-١١]، فكان فيمن نزل أحد(٣) من العرب رجل أشجعي(٤) يحب الإيمان، ويبغض أهل العدوان؛ فأفسد بين المشركين طراً، وذلك أنَّه أتى قريشاً فقال لها: إن العرب قد ظافرت محمداً عليكم، ووعدته المحاربة معه لكم، وآية ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة، فخذوا حذركم، ولا تبدأوه حتى يقاتلوه قبلكم، ثُمَّ أتى أصحابه وبني عمه وجماعة العرب؛ فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم،

---

(١) في (أ): أحداً.
(٢) في (أ،ب): المؤمنين.
(٣) في (أ): أحداً.
(٤) في (ب): من أشجع. وهو نعيم بن مسعود والقصة مشهورة في السير.

(٤٢٩/١)

وعلامة ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة قبلكم، فاعملوا لأنفسكم، ودبروا أموركم، ولا تقاتلوا حتى ترسلوا إليهم فيقاتلوا قبلكم، فإن فعلوا وإلا فاحذروا مكرهم، والحقوا وشيكاً ببلدكم، ثُمَّ أتى يهود خيبر فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم، وآية ذلك انها لا تبدأه بالمحاربة قبلكم، وأتى قريشاً فقال لها: إن اليهود قد ظافرت محمداً عليكم، وآية ذلك أنهم لا يبدأونه بالمنابذة قبلكم، فطرح في قلوب كل لكل بلاء وحقداً، ومخافة وشحناء، فأقام كل ينتظر أن يبدأ بالمحاربة غيره، فلما طال ذلك عليهم تراسلوا بينهم، يسأل كل كلاًّ؛ أن ينصب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرباً، وكلهم(١) يأمر صاحبه أن يبدأ، فصح لذلك عندهم قول الأشجعي فتفرقوا، وفسدت قلوب بعضهم على بعض، فرحلت العرب طراً راجعة إلى بلدها، وأرسل الله سبحانه الريح على قريش واليهود، وأمد المؤمنين بالنصر منه والجنود، فلم يقم(٢) لقريش خباء ولا ظل، ولا تستوقد لهم نار إلاَّ أطفأتها الريح وفرقتها وحرقتهم بها، فأقاموا ثلاثاً لا يختبزون ولا يصطلون(٣)، فاشتد عليهم القر والجوع، ورماهم الله بالذل فأزمعوا(٤) على الرجوع، ورحلوا راجعين خاسرين، خائبين نادمين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً} [الأحزاب: ٩]، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقاتل بني النضير؛ إذ نقضوا عهده، وخالفوا أمره، فحاصرهم حتى جهدوا، فقالوا: يا محمد، خلنا نخرج من البلد بما حملت إبلنا؛ التي في الحصن(٥) معنا من متاعنا، ونخلي لك الباقي ومالنا من الضياع، ونشرط ألا نخرج

---

(١) في (أ): وكل.
(٢) في (أ،ب): فلم يكن يقوم.
(٣) يعني لا يستدفئون.

(٤) أزمع على كذا: عزم عليه.
(٥) في (ب،ط): الحضرة.

(٤٣٠/١)

بسلاح، ونترك الديار والنخل والقرى، فرضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فخرجوا بإبلهم، عليها جيد(١) متاعهم، وتحف أبوابهم، فلما قلعوا التحف تهدمت وجوه البيوت، وذلك تدبير منهم، ليخربوها عليهم، فكان أحدهم إذا هدم لحاف بيته بطل البيت، ثُمَّ خرجوا على الإبل بالتحف، فذلك قول الله سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ}، فخرجوا جالين(٢)، ولنعمهم تاركين، وذلك قول أصدق الصادقين: {وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} [الحشر: ٣]، والتعذيب فهو القتل، فكان الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم؛ هو ماكان من خذلانه لهم حتى عمي عليهم رشدهم، وفاسدوا إخوانهم، ودخل الفزع عند ذلك من النبي والمؤمنين في قلوبهم، وأيقنوا أنَّه إذا علم بما كان من مظافرتهم عليه، وصاروا من الغدر به إليه؛ أنَّه لا يتركهم، وأنه يقاتلهم على فعلهم، حتى يظهر الله عز وجل الحق، ويزهق الباطل من الخلق. وهذا معنى القاء الله الرعب في قلوب الفاسقين؛ لما أرادوا من هلاك المؤمنين. وكذلك كان فعله بأهل خيبر حتى أخذوا وأسروا، وقتلوا وسبوا.
فهذا قولنا في إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين، لا ما ذهب إليه من خالف المحقين، وعند من قول الصدق في رب العالمين. تم جواب مسألته.
المسألة السادسة والعشرون:
عن قول الله: {ولقد ذرأنا لجهم ..}

---

(١) في (أ،ب): خير.
(٢) جلى عن وطنه وأجلى: خرج منه.

(٤٣١/١)

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن الذرو بالإرادة فقال: خبرونا عن الذروبالإرادة، فإن الله يقول: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]، فسلهم: هل يستطيع هؤلاء أن ينقلبوا عما ذرأهم الله له؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا وزعموا أنهم يستطيعون أن يبدلوا خلقهم وإرادة الله فيهم، وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.
جوابها
وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}، فقال: هل يستطيع أحد أن يخرج أو ينتقل مما ذرئ له؟ وتوهم بل قال: إن الله ذا الجلال والإكرام خلق لجهنم قوماً كافرين، ذرأهم وأوجدهم ابتداء فاسقين، وخلقهم ضالين مضلين؛ لا ينفع فيهم دعاء، ولا يقدرون طول الزمان على الاهتداء(١)؛ لما قد خلقوا له من الشقاء، فهم أبداً بفعل الفواحش مولعون، ولعمل الهدى غير مطيقين، وأنهم على ذلك مجبولون، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) في (ب): اهتداء.

(٤٣٢/١)

فنقول في ذلك على الله بالحق، والله الموفق لكل خير وصدق؛ فنقول: إن معنى الآية خلاف ما ذهب إليه الحسن بن محمد، وإن القول خلاف ما قال به فيه، بل معناها على الصدق والمعاد، لعلم الله بما يكون من العباد، فقال: {ذَرَأْنَا}، فأخبر عما سيكون في آخر الأمر، ويوم القيامة والحشر؛ من الذرو الثاني، لا الذرو الأول الماضي. فكذلك الله رب العالمين، يذرأ لجهنم في يوم الدين؛ جميع من مات على كفره من الكافرين، فيعذبهم على فعلهم، ويعاقبهم على ما تقدم من كفرهم، كما قال الرحمن الرحيم، الرؤوف الكريم: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ* مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ* حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ* فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٣٨-٤٨].

فهذا معنى ما ذكر الله من الذرو في الكتاب، لا ما ذهب إليه الحسن بن محمد ذو الشك والارتياب؛ من أن الله سبحانه خلق للنار خلقاً تعمل بالمعاصي أبداً، لا يقدرون على هدى ولا طاعة، في سنة ولا شهر ولا يوم ولا ساعة، وأن الله سبحانه خلق للجنة أصحاباً مجبولين لله على الطاعة في كل الأسباب.

(٤٣٣/١)

فيا عجباً من قولهم المحال! وكذبهم على الله في المقال! فأين ويحهم المعاصي والطغيان(١)، ممن عمل بما ألزمه الله في كل شأن؟ بل كلٌّ مطيع، وفي مراد الله(٢) سريع؟ فإن كان ذلك من الله كذلك؛ فلم بعث الأنبياء إليهم يدعونهم؟ وأوجب عليهم طاعتهم؟! وطاعة الأنبياء فهي العمل بطاعة الله، ومعصيتهم هي المعصية(٣) لله، قال الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النساء: ٥٩، محمد: ٣٣]، وقال: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [النساء: ١٣، الفتح: ١٧]، وقال: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ} [الجن: ٢٣]، وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} [النساء: ١، لقمان: ٣٣]، وقال: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: ٥٠]، فأين الطاعة؛ ممن جبل على المعصية؟ وأين الفرار؛ ممن منعه منه الجبار؟ وكيف لا يعصي الرسول والرحمن(٤)؛ من قد حيل بينه وبين الإحسان؟!.

---

(١) في (أ): والعصيان.
(٢) في (أ): وفي كل أمر الله.
(٣) في (أ،ب): العصيان.
(٤) في (ب،ط): والرحمن الرحيم.

(٤٣٤/١)

ومن ذلك قول إبراهيم صلى الله عليه لأبيه: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً} [مريم: ٤٢-٤٣]، فماذا يقول الكاذبون(١)، وينسب إلى الله وإلى نبيه الضالون؛ في هذا العلم الذي جاء إبراهيم؟ أتراه أتاه من العلم - إن كان الله قد خلق أباه للنار - أن أباه يقدر أن يخرج إلى غير ما خلقه الله له من النار حتى يصير إلى الجنان؟ أم يقولون إن العلم الذي جاء إبراهيم هو أن أباه - إن كان الله جل ثناؤه خلقه للشقاء، وحال بينه وبين الهدى - يقدر على مغالبة الرحيم، والخروج مما أعد له من الجحيم، والمصير إلى دار النعيم؟ والله سبحانه لم يخلقه(٢) لذلك، بل جبله على غيره، ومنعه من رشده؟ أم تقولون في إبراهيم، الأواه الحليم، الصديق الكريم؛ أنَّه دعا أباه إلى اتباعه، وضمن له ما ضمن من ارشاده، ونهاه عن عبادة الشيطان الرجيم، وأمره بطاعة الرحمن الرحيم؛ وهو يعلم أن الله جل جلاله قد منعه من الخير، وأدخله إدخالاً في الشر والضير؟! فلقد إذاً أمره بمغالبة ربه، وهجره واعتزله على غير ذنبه(٣).

---

(١) في (ط): الكافرون.
(٢) في (ط): المخلف لذلك.
(٣) في (ط): دينه.

(٤٣٥/١)

ويرون ما نزل بإخوانهم على قولهم من نكير قولهم(١)، أو لم يسمعوا الله سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه يقول: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمر: ٧]؟ فقال: {إِنْ تَكْفُرُوا}، فأخبر بذلك أن الكفر فعل منهم ولهم، إذ نسبه سبحانه إليهم، وذكره عنهم، ثُمَّ قال: {وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، فأخبر أنَّه لا يرضى ما كان من كفرهم، فكيف يقول الجاهلون في ربهم؛ إنَّه قضى بما لم يرض لهم عليهم؟! فأكذبوا في ذلك رب الأرباب، وعاندوه في كل الأسباب، فقالوا: إنَّه رضي بما قال سبحانه إنَّه لم يرضه، وقالوا: إنَّه سخط ما قال إنَّه رضيه، فعاندوه في ذلك عناداً، وجاهروه بالمكابرة جهاراً. ففي هذا والحمدلله من البيان، ما يكفي عن ذكر غيره من الحجج والبرهان.

(١) في (أ): من تكفير ربهم.

(٤٣٩/١)

وأما قوله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}، فإنا نقول في ذلك بالحق المبين، على رب السموات والأرضين؛ فنقول: إن معنى قوله: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، أي لا يزال أهل الحق لأهل الباطل مخالفين، وعليهم في باطلهم وفسقهم منكرين، {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} رب العالمين، وبه أمرهم سبحانه أكرم الأكرمين، فخلق جميع خلقه ليعبدوه لا ليعصوه، وأمرهم أن يطيعوه ولا يخالفوه، وأن يجاهدوا الكافرين كافة أجمعين؛ حتى يفيئوا إلى طاعة رب العالمين. فخلقهم سبحانه لما شاء من ذلك، وشاء ما أمرهم به، وأمرهم بما خلقهم له من طاعته، ومجاهدة أعدائه والنصر لأوليائه، فقال سبحانه في ذلك: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} [التوبة: ٣٦]. وقال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة: ١]، وقال: {لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢]، ففي كل ذلك يأمر المحقين بمخالفة المبطلين(١)، وبالبراءة والعداوة للفاسقين(٢)

(١) في (أ): بالمخالفة للمبطلين.
(٢) في (ب): القاسطين.

(٤٤٠/١)

الناكثين، وبالتحاب والتواصل والتبار والتواخي على الدين. ومن ذلك ما يقول جل جلاله أكرم الأكرمين: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠].
وقد قيل في قوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}: إنَّه مردود على ما ذكر من الرحمة، وكل ذلك والحمدلله فجائز أن يقال به على ذي الجلال والقدرة، لا ما يقول الضالون: إن الله عز وجل خلقهم للضلال والاختلاف، وركب فيهم العداوة وقلة الائتلاف. وكيف يكون ذلك والله يأمر بقتال من بغى، وظلم وتجاهل وأساء، حتى يفيء إلى البر والتقوى؟ وذلك قوله تبارك وتعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]. ففي هذا والحمدلله من الدلالة على ما قلنا، ما أجزى وكفى. تم جواب مسألته.
المسألة الثامنة والعشرون:
عن قول الله: {إن الإنسان خلق هلوعاً..}

(٤٤١/١)

ثُمَّ أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله سبحانه: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً}؛ فقال: خبرونا عن قول الله: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً}. ثُمَّ استثنى أيضاً؟ فقال: {إِلاَّ الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: ١٩-٢١]، فيقال لهم: ألا ترون أن الله عز وجل قد صنفهم صنفين: فمنهم من خلقه هلوعاً جزوعاً، ومنهم من لم يخلقه كذلك، فأخبرونا: هل يستطيع هذا الذي خلقه هلوعاً جزوعاً منوعاً أن يكون على غير ما خلقه الله عليه؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد زعموا أن الناس يقدرون على أن يبدلوا خلق الله الذي خلقهم عليه، وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها

وأما ما سأل عنه، وتوهم أنَّه قد تعلق في شيء منه بحجة له؛ من قول الله: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ}؛ فقال: إن الله عز وجل قد صنفهم صنفين، وخلقهم خلقين، فجعل منهم هلعين جزعين، وآخرين صابرين. ثُمَّ قال: هل يقدر من خلقه الله هلوعاً جزوعاً منوعاً؛ أن يكون محسناً قوياً صبوراً؟

(٤٤٢/١)

فقولنا في ذلك إن شاء الله بما هو الحق، لا قول غيرنا؛ فنقول: إن الله جل ثناؤه لم يجبرهم على جزعهم(١)، ولا أنَّه خلق هلعهم، ولا جعل في ذوي الصبر والإحسان صبرهم، وإنما أخبر سبحانه عن ضعف بنية الإنسان، وأنه لا يحتمل ما اشتد وصعب من الشأن، فدل بذلك من ضعف بنية الآدميين، ومن قوة غيرهم من المخلوقين، واختلاف طبائع المربوبين، من الجان والملائكة المقربين؛ على قدرة رب العالمين، وخالق السموات والأرضين. فاخبر سبحانه أنَّه خلق خلقه أطواراً مختلفة، وجعل البنية فيهم غير مؤتلفة، فكلف كل صنف منهم دون ما يطيقه أضعفهم، فكلف الملائكة المقربين؛ ما لم يكلف الجان أجمعين، وكلف الإنسان؛ دون ما يطيق من الشأن، فكانت بنية الملائكة وطاقتهم؛ خلاف بنية الجان وحالتهم، وكانت بنية الجان واقتدارهم؛ خلاف بنية الإنس واستطاعتهم، وكذلك افتراق كل ما خلق رب العالمين، فكل ما خلقه فهو على تركيب رب العالمين ليس فيه تفاوت، كما قال تبارك وتعالى: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: ٣-٤]، وكذلك كل شيء خلقه الله سبحانه من الأشياء، وذلك كله فدليل على قدرة الرب الأعلى، وخالق الأرضين والسموات العلى. فأخبر الله سبحانه عن بنية الإنسان بالضعف والسخافة(٢)، ولم يكلفه في ذلك إلاَّ دون الطاقة؛ فلذلك ما قال سبحانه: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً}، يقول: جعل على بنية لا تطيق الأمر الشديد، فهو يهلع، ومن كل فادح يجزع. ثُمَّ قال: {إِلاَّ الْمُصَلِّينَ}، فأخبر أن من كان لله مطيعاً من المؤمنين؛ أصبر عند المحنة من الفاسقين، وأن المحنة لا يطيقها، ولا يقوم من الناس

---
(١) في (ب،ط): لم يخبر عن فعله.
(٢) في (ط): السحاقة.

(٤٤٣/١)

لها؛ إلا ذووا الإصطبار من عباده الصالحين. ثُمَّ أمر سبحانه نبيه والمؤمنين بالصبر؛ فقال: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [لقمان: ١٧]. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]، فأمرهم بالصبر، وحضهم عليه في كل أمر، ونهى من يطيق ويحتمل عن الوهن والعجز. فقال: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا} [آل عمران: ١٣٩]، وقال: {فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٥].

ولو كان خلق الوهن وما كان من أفعالهم؛ لما كان جزع ولا هلع ولا صبر ولا عدد(١) من أعمالهم، بل كان عمله سبحانه لا عملهم، وفعله كل ذلك لا فعلهم، ولو كان ذلك فعل الرحمن؛ لما أثاب على صبره الإنسان.

---
(١) في (أ،ب): ولا عذر.

(٤٤٤/١)

ألا تسمع كيف يقول ذو الجلال والقدرة والطول: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥]؟ وقال سبحانه: {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الأحزاب: ٣٥]، فضمن للصابرين على الجهاد النصر، وللعاملين المؤدين للفريضة المغفرة والأجر. وقال سبحانه يحكي عن رسوله صلى الله عليه وآله ما قال لأبي بكر؛ إذ هما في الغار من المشركين مختفيان؛ إذ هلع أبو بكر وحزن وجزع؛ فقال صلى الله عليه وآله: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]، فنهاه عن الحزن، ولو كان الهلع والحزن والجزع تركيباً في الإنسان؛ من الله الواحد ذي السلطان؛ لما أمره الرسول صلى الله عليه وآله بتركه، ولما قدر على رفض ما كان فيه من ربه؛ ولكان من هلع وجزع، عند الله كمن أطاع وصبر وسمع، إذ هما من الله فعل في العالمين، وهم - إن كان ذلك - لله طراً مطيعون؛ إذ هم في كل ما صرفوا متصرفون، ولو كان ذلك فعلاً من الله فيهم، وكان على ذلك خلقهم؛ لم يلمهم، ولم يعاقبهم على الجزع والجبن والإنهزام وتولية الأدبار؛ عند لقاء الفسقة الأشرار، وذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ* وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٦]، فكيف يوجب الغضب عليهم، ويجعل النار

(٤٤٥/١)

مأواهم؛ على فعل ما(١) عليه خلقهم وسواهم!؟ تعالى الله عن ذلك، وتقدس أن يكون كذلك، بل ذلك فعل منهم، ولذلك رجع وباله عليهم، فمن كان لله مريداً صبر عند المحنة، ومن كان عنه بعيداً هلع، وعند النوازل جزع، وإنما يكون ذلك على قدر اليقين، والتسليم لله من المؤمنين.

ومن ذلك يوم حنين، حين انهزم المسلمون وجزعوا، وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله الذين ثبتوا(٢)، ثُمَّ ناداهم الرسول فرجعوا. أفيقول الحسن بن محمد: إن الله سبحانه خلقهم جُزَّعاً، فانهزموا لما خلقهم عليه من الجزع، ثُمَّ ناداهم الرسول فاستحيوا منه فكروا، وعن خلق الله الذي خلقهم عليه غيروا، فتركوا ما ركب الله فيهم من الجزع والجبن!؟ أم يقول: إن الله عز وجل خلقهم في أول الأمر جزعاً هلعاً، ثُمَّ نقل خلقهم آخراً فجعلهم صبراً!؟ لقد ضل إذاً ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً، بل ذلك منهم كله أوله وآخره، ولذلك أثيبوا على الرجوع، ولو لم يرجعوا لعوقبوا على الذهاب والشسوع، فليفرق من عقل بين ما أخبر الله سبحانه عنه، وبين ما فعله وجعله، فبينهما ولله الحمد فرق عند ذوي العقول عظيم، وأمر واضح في اللسان بين جسيم. تم جواب مسألته.

المسألة التاسعة والعشرون:

عن الصم البكم، هل يستطيعون أن يقبلوا الهدى؟

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه حين يقول للمؤمنين: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [الأنفال: ٢١]، هل كان هؤلاء الذين ذكر يستطيعون أن يقبلوا الهدى وأن يسمعوا المنفعة في دينهم؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها

---

(١) في (أ): على ما فعل فيهم وما عليه.

(٢) في (أ): اتبعوا.

(٤٤٦/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}، فتوهم أنهم كانوا لا يسمعون لصمم جعله الله سبحانه في آذانهم، أو لسبب جعله حاجزاً بين الهدى وبينهم، وليس ذلك والحمدلله كذلك، ولو كان الله فعل ذلك بهم لما عاب صممهم، ولكان(١) أعذر لهم من أنفسهم، ولما بعث إليهم المرسلين، ولا أمرهم

باتباع المهتدين، وإنما أراد الله سبحانه بذلك حض المؤمنين؛ على الطاعة لرب العالمين، والاستماع لسيد المرسلين، فقال للمؤمنين: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}، يقول: لا تكونوا كالذين قالوا أطعنا بألسنتهم؛ وهم كاذبون في قلوبهم، بل قلوبهم منكرة لذلك جاحدة له، يدارون(٢) بالقول، خوفاً من المؤمنين والرسول، ويكفرون من ورائه بكل الدين والتنزيل، وهم الذين قال فيهم الرحمن الجليل: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]، وقال: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: ١١]، وهم الذين قال الله فيهم؛ من منافقي قريش والأعراب وغيرهم: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: ١]، فنهى المؤمنين عن مشابهة المنافقين، ولم يكن قوله ما قال إخباراً منه بتركيب ماذمه منهم فيهم، ولو كان الله سبحانه فعله فيهم؛ لما نهى المؤمنين عن ذلك إذ هو فعله لا فعلهم، فكيف ينهاهم عن أن يفعلوا فعله؟ ولو جاز أن ينهاهم عن فعل ما فعله فيهم؛ لكانوا مقتدرين على أن يفعلوا كفعله (ولو كانوا مقتدرين على أن يفعلوا كفعله)(٣)

---

(١) في (ط): ولكن.
(٢) في (ب): يدرأون. ولعلها: يداورون.
(٣) سقط من (ط) سهواً.

(٤٤٧/١)

، إذاً لخلقوا كخلقه، ولو خلقوا كخلقه؛ لامتنعوا بلا شك مما يكرهون من أفعاله، من موتهم وابتلائه إياهم بما يبتليهم به، ولتزيدوا(١) فيما آتاهم مما يحبونه، فتعالى من هو على خلاف ذلك، والمتقدس عن أن يكون كذلك.
وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}، فقال: هل كان هؤلاء يقدرون على أن يقبلوا الهدى؟ أو أن يسمعوا ما يدلون عليه من التقوى؟ فصدق الله سبحانه: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}(٢)[الأنفال: ٢٢].يقول: الذين لا يهتدون إن هدوا، ولا يقبلون الحق إن دعوا، ولا ينتهون إذا نهوا، فضرب الله لهم ذلك مثلاً إذ كانوا في الضلال على هذه الحال، وهم في ذلك لقبول الحق مطيقون(٣)،وعلى اتباع الصدق مقتدرون، فلما أن تركوا ذلك شبههم الله بالصم البكم الذين لا يعقلون؛ إذ تركوا فعل ما كانوا يطيقون. تم جواب مسألته.
المسألة الثلاثون:
عن قول الله في المنافقين {ذهب الله بنورهم..}
ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عما ضرب الله عز وجل للمنافقين عن المثل في قوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٨]، فيقول: الا يرون أن الله هو الذي ذهب بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون؟ فأخبرونا هل كان هؤلاء يستطيعون سماع الهدى، وقد وصفهم الله سبحانه بالصمم؟ وهل كان لهم أن يقبلوا الهدى؛ وقد وصفهم بالعمى؟ وهل كانوا ينتفعون بنور الهدى وقد ذهب الله به؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا بكتاب الله وجحدوا بآياته، وإن قالوا: لا؛ كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.
جوابها

---

(١) في (أ): ولازدادوا.
(٢) سقط من (ب).
(٣) في (ط): مطيعون.

(٤٤٨/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله في المنافقين، وما ضرب لهم من المثل في قوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}، فقال: ضرب مثلهم؛ ثُمَّ جهل فقال: خلقهم وكفرهم، فرجع عن الحق الذي نطق به في أول كلامه حين يقول: ضرب مثلاً، ثُمَّ قال: هل يستطيعون سماع الهدى، وقد وصفهم الله جل ثناؤه بالصمم والعمى؟

(٤٤٩/١)

فقولنا في ذلك: إن الله جل وعلا لم يخلقهم كذلك، ولم يجعلهم عمياً، ولا عن سماع الخير والتقى صماً، وأن الله تبارك وتعالى ضرب لهم هذا مثلاً؛ فقال سبحانه: إن هؤلاء الذين أتاهم الهدى، وكشف لهم عن الحق الغطاء؛ فأنار لديهم، وثبت في صدورهم، وأيقنوا أنَّه من عند خالقهم، فكفروا بربهم، وخالفوا أمر نبيهم، وآثروا ظلمتهم(١) على ما أضاء من الحق لهم، فتركهم الله وخذلهم، ومثَّلهم؛ إذ تركوا اا تركوا حظهم، وما أنار من الحق عندهم؛ بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، فكان الذي شبهه بضوء النار هو الهدى الذي أخرجه الله لهم، وامتن به عليهم؛ فتركوه ولم يتبعوه، ولم يستضيئوا بنوره وناصبوه وعاندوه، لا ما يقول الحسن بن محمد أن الله سبحانه فعل ذلك بهم، وجعلهم(٢) عن استماع الحق صماً وعمياً، وعن قبول الصدق حاجزاً، فجهل الفرق بين المثل والفعل، وكيف يجعلهم الله كذلك، ويخلقهم على ذلك، ثُمَّ يرسل إليهم نبيه يدعوهم إلى الهدى، ويخرجهم من الحيرة والعمى؛ وهم عن الخروج ممنوعون، وعن الدخول في الحق مصروفون؟ فالله سبحانه إذاً أرسله يدعوهم إلى الخروج عما فيه أدخلهم، وعليه ـ جل وعز عن ذلك ـ حملهم(٣)، فنسبوا في ذلك إلى الله الاستهزاء، واللعب والإعماء(٤)، والجهالة والخطأ، والظلم لعباده، والفساد(٥) في بلاده.

كذب القائلون على الله بذلك، وضلوا ضلالاً بعيداً. تم جواب مسألته.

المسألة الحادية والثلاثون:

عن قوله تعالى: {إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً}

---

(١) في (أ): باطلهم.

(٢) في (أ): وخلقهم.

(٣) في (ط): جبلهم.

(٤) في (أ): والعبث والإغواء.

(٥) في (أ): والإفساد.

(٤٥٠/١)

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله في الإملاء: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً} [آل عمران: ١٧٨]، فقال: خبرونا عن قول الله: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، فقال: أخبرونا عن هؤلاء، أالله أراد بهم في إملائه لهم ليزدادوا إثماً، كما قال؟ فإن قالوا: نعم؛ نقض ذلك(١) قولهم، وإن قالوا: لا؛ كذبوا. تمت مسألته.

جوابها

وأما ما سأل عنه من قول الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، فقال: إن الله أملى لهم ليزدادوا في الكفر والاجتراء عليه، وليس ذلك كما قال، بل قوله أحول المحال، وسنشرح ذلك والقوة بالله ونفسره، ونذكر ما أراد الله إن شاء الله به، فنقول: إن معنى إملائه لهم هو؛ لأن لا يزدادوا إثماً وليتوبوا ويرجعوا، ومن وسن ضلالتهم ينتبهوا(٢)، لا ما يقول أهل الجهالة؛ ممن تحير وتكمه في الضلالة: إن الله املى لهم كي يزدادوا إثماً، وضلالة واجتراء، وكيف يملي لهم كذلك؛ وقد نهاهم عن يسير ذلك؛ فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢]، فنهاهم عن يسير الإثم وقليله، فكيف يملي لهم ليزدادوا من عظيمه وكثيره؟

---

(١) في (أ): نقضوا.

(٢) في (ب،ط): ينتهوا.

(٤٥١/١)

فأما قوله: {لِيَزْدَادُوا إِثْماً}؛ فإنما أراد سبحانه لأن لا يزدادوا إثماً؛ فطرح ((لا)) وهو يريدها؛ فخرج لفظ الكلام لفظ إخبار ومعناه معنى نفي، والعرب تطرحها وهي تريدها، وتثبتها وهي لا تريدها، قال الله سبحانه: {لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ١٩]، فقال: ((لئلا))؛ فأثبت ((لا)) وهو لا يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ إيجاب، ومعناه معنى نفي، أراد الله سبحانه ليعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله، وهذا فموجود في أشعارهم، مثبت في أخبارهم.

قال الشاعر:

نزلتم منزل الأضياف منا...فعجلنا القرى أن تشتمونا

فقال: فعجلنا القرى أن تشتمونا، وإنما معناه: فعجلنا القرى لأن لا تشتمونا، فطرح ((لا)) وهو يريدها، فخرج لفظ الكلام بخلاف معناه.

وقال أخر:

ما زال ذو الخيرات(١) لا يقول... ويصدق القول ولا يحول

فقال: لا يقول، فأتى بـ((لا)) وهو لا يريدها، وإنما معناها: ما زال ذو الخيرات يقول، فخرج اللفظ خلاف المعنى. تم جواب مسألته.

المسألة الثانية والثلاثون:

عن من أغفل الله قلبه، هل أراد الله أن يطيعه؟

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل في الإغفال: {وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهف: ٢٨]، فقال: أخبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره، هل أراد الله أن يطيعه؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك(٢) قولهم. تمت مسألته.

جوابها

(١) في (أ): ذو الجبروت.

(٢) في (أ): فذلك نقض لقولهم.

(٤٥٢/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: {وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا}، فقال: خبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره، هل أراد الله أن يطيعه؟ فتوهم ويحه وغوله؛ إن لم يتب من الله وويله ، أن الله تبارك وتعالى أدخله في الغفلة، وحال بينه بذلك وبين الطاعة، فليس كما توهم، ألا يسمع إلى قول الله عز وجل: {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}؟ فأخبر سبحانه أنَّه متبع في ذلك لهواه، ضال عن رشده تارك لهداه، ولو كان ذلك من الله لم يكن العبد متبعاً لنفسه هواء، بل كان داخلاً لله فيما شاء وارتضى.

وسنفسر معنى الآية إن شاء الله، والقوة بالله وله، فنقول: إن الله تبارك وتعالى نهى نبيه عن طاعة من أغفل قلبه ممن آثر هواه على هداه.

وأما معنى ما ذكر الله سبحانه من الإغفال؛ فقد يخرج على معنيين والحمد لله شافيين كافيين:

أحدهما: الخذلان من الله، والترك لمن اتبع هواه، وآثره على طاعة مولاه، فلما أن عصى، وضل وغوى، وترك ما دُلَّ عليه من الهدى؛ استوجب من الله الخذلان، لما كان منه من الضلال والكفران، فغفل وضل وجهل؛ إذ لم يكن معه من الله توفيق ولا ارشاد، فتسربل سربال(١) الغي والفساد.

وأما المعنى الآخر: فبين في لسان العرب موجود، معروف عند كلها محدود، وهو أن يكون معنى قوله: {أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا} أي تركناه من ذكرنا، والذكر فهو التذكرة من الله والتنبيه والتسديد، والتعريف والهداية إلى الخير والتوفيق، فيقول سبحانه: تركنا قلبه من تذكيرنا وعوننا وهدايتنا، بما أصر(٢) عليه من الإشراك بنا والاجتراء علينا، تقول العرب: يا فلان أغفلت فلاناً، ويقول القائل: لا تغفلني، أي تتركني، وتقول العرب: قم مني، أي قم عني، فتخلف بعض حروف الصفات ببعض، وتقيم بعضها مقام بعض.

(١) في (أ): سرابيل.

(٢) في (أ): اجترأ.

(٤٥٣/١)

قال الشاعر(١):
شربن بماء البحر ثُمَّ ترفعت...لدى لجج خضر لهن نئيج
فقال: لدى لجج، وإنما يريد: على لجج، فذكر السحاب ونشطها(٢) وشربها من البحار، واستقلالها بما فيها من الأمطار. وقال آخر:
أغفلت تغلب من معروفك الكاسي(٣)... فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي
(فقال: أغفلت تغلب من معروفك، أي تركتها من عطائك ونوالك، ومنتك وإفضالك، ثُمَّ قال: فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي) (٤)، فقال: منهم، وإنما يريد: عليهم مغضباً، فأقام حرف الصفة وهو((من))؛ مقام أختها وهي ((على))، فأقام ((منهم)) مقام ((عليهم))، فهذا معنى الآية إن شاء الله ومخرجها، لا ما توهم الجهال، على ذي المعالي والجلال؛ من الجبر لعباده والإضلال، والظلم والتجبر(٥) بالأغفال. تم جواب مسألته.
المسألة الثالثة والثلاثون:
عن قول الله: {ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً}
ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله في الأزّ(٦)، فقال: خبرونا عن قول الله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} [مريم: ٨٣]، فيقال لهم: هل أراد الله سبحانه أن يؤمن هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كفروا(٧) وجحدوا، وإن قالوا: لا؛ فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.
جوابها

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي، والبيت من الشواهد المعروفة.
(٢) يعني انتزاعها للماء من البحر، وفسر بعضهم قوله تعالى: {والناشطات نشطاً} بالسحاب.
(٣) في (أ): الفاشي.
(٤) سقط من (أ).
(٥) في (أ): والتحيير والإغفال.
(٦) في (أ): سبحانه في الإرسال في الأز.
(٧) في (أ): كذبوا.

(٤٥٤/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً}، فقال: هل أراد الله من هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين تؤزهم أن يكونوا به من المؤمنين؟ وبما أنزل عز وجل من المصدقين؟ وقد أرسل عليهم مردة الشياطين؟ فتوهم - بجهله - أن الله أرسل الشياطين على الآدميين إرسالاً، وجبرهم على تحييرهم وتضليلهم جبراً، وأدخل الشياطين في إغوائهم قسرا، ليضلوهم عن الهدى، ويوقعوهم في الردى، وأن ذلك كان من الله للشياطين أمرا وقضاء؛ قضى به عليهم(١) قسرا، وليس ذلك بحمدالله كما قال، ولا على ما ذهب إليه من فاحش المقال، وكيف يرسل الشياطين على عباده إرسالاً، ويدخلها في الإغواء لهم إدخالاً، ثُمَّ يعذبها عليه، ويعاقبها فيه؟! ألا تسمع كيف يقول سبحانه: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٥]، فلم - إن كان أرسله(٢) عليهم - إذاً يعاقبه(٣) على ما صنع فيهم؟ بل هو على غير ما يقول في الرحمن؛ أهل الضلالة والطغيان.

(١) في (ب): عليها.
(٢) في (أ): أرسلها.
(٣) في (أ): عاقبهم.

(٤٥٥/١)

ثُمَّ نقول من بعد ذلك: إن معنى قوله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ}، هو: خلينا، ولم نحل بين أحد من بعد أن أمرنا ونهينا. وليس إرساله للشياطين؛ إلا كإرساله للآدميين، فكل قد أمره

بطاعته، ونهاه عن معصيته، وجعل فيه ما يعبده به من استطاعته، ثُمَّ بصرهم وهداهم، ولم يحل بين أحد وبين العمل، فمن عمل بالطاعة أثابه، ومن عمل بالمعصية عاقبه، ولم يخرج أحداً من معصيته جبراً، ولم يدخله في طاعته قسراً، فكان ما أعطى من أعطى من الجن والإنس(١) من الاستطاعات، وترك قسرهم على الطاعات؛ إرسالاً وتخلية منه لهم في الحالات، لا ما يقول به أهل الجهالات: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٤٢]، فلما خذل الكافرين بكفرهم، ولعنهم بجرأتهم(٢)، وتبرأ منهم بعصيانهم؛ غريت(٣) بهم الشياطين، وسولت لهم وأملت، فاتبعوها ولم يعصوها ويبعدوها(٤)، ولم يتذكروا عندما يطيف بهم طائف الشيطان بل تكمهوا، وغووا وعموا، ولم يكونوا في ذلك عنده كالذين اتقوا؛ فيفعلوا عند إلمام الشيطان بهم كما فعلوا. قال الله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١]، يقول سبحانه: ذكروا ما نهاهم الله عنه من طاعته، وأمرهم به من مخالفته واتخاذه عدواً؛ حين يقول: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦]، فلما أن طاف بالمؤمنين، ودعاهم إلى ما أجابه إليه - من الكفر بالله - الفاسقون؛ ذكروا الله،

---

(١) في (ب) و(ط): فكان من أعطى من الجن والإنس. ولعل الصواب: فكان ما أعطى الجن والإنس.
(٢) في (ط): بجرائمهم.
(٣) في (ط): غويت.
(٤) في (أ): وتعبَّدوها.

(٤٥٦/١)

وتذكروا أمره ونهيه، وما أمرهم به من طاعته، وحذرهم من معصيته، فأبصروا الحق واجتنبوا اللعين(١) وعصوه، وفيما دعاهم إليه من العصيان خالفوه. ألا تسمع كيف أثنى عليهم بذلك ربهم، وذكر عنهم سيدهم وخالقهم؛ حين يقول: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢]، يقول سبحانه: إن عبادي المؤمنين، وأوليائي المتقين؛ لا يجعلون لك عليهم سلطاناً، ولا يطيعونك فيما تأمرهم به من العصيان، بل يحترسون منك بطاعة الرحمن، وتلاوة القرآن، ويخالفونك(٢) صاغراً في كل شأن، فلا يجري (ولا يجوز) (٣) لك عليهم سلطان، وليس تخليته للشياطين؛ إلاَّ كإذنه للساحرين؛ حين يقول: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ}، فإذنه في ذلك تخليته، وترك الصرف لهم جبراً عن معصيته، والإدخال لهم جبراً في طاعته. تم جواب مسألته.

المسألة الرابعة والثلاثون:

عن فرعون، هل كان يستطيع أن يقتل موسى حتى لا يرده الله إلى أمه؟

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه في موسى، وما وعد أمه أن يرده إليها ويجعله من المرسلين؛ فقال خبرونا عن قول الله سبحانه: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ} [طه: ٣٩]، هل كان فرعون يستطيع أن يقتل موسى(٤) حتى لا يرده الله إلى أمه، ولا يجعله من المرسلين؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها

---

(١) في (أ): الغي.
(٢) في (ط): ويخلِّفونك.
(٣) ليس في (أ).
(٤) في (أ): هل استطاع فرعون قتل موسى.

(٤٥٧/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل في موسى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ}، فقال: هل كان يستطيع فرعون أن يقتل موسى حتى لا يرده الله إلى أمه ولا يجعله من المرسلين؟ فقال: إن الله أخرج فرعون من أكبر المعاصي بعد الشرك به من قتله نبيه إخراجاً، ومنعه من معصيته منعاً، وقسره على الخروج قسراً، ولو جاز أن يخرج عدوه

(٤٦٠/١)

فأما ما سأل عنه من قوله: هل كانوا يستطيعون أن يطيعوا الله جميعاً فلا يعصوه؟ فكذلك نقول: إنهم كانوا يستطيعون طاعته، كما يطيقون(١) معصيته، ولكنهم افترقت بهم الأهواء، فمنهم من اختار الإيمان والتقوى، ومنهم من اختار الضلالة والعمى، والله تبارك وتعالى إنَّما حكم بالنيران؛ على من اختار من الثقلين العصيان، وكره ما أنزل الرحمن. فعلم الله وقع على اختيارهم، وما يكون من أفعالهم، ولم يدخلهم في صغيرة، ولم يخرجهم من كبيرة، ولو علم أنَّه إذا دعاهم، وبصرهم وهداهم؛ أجابوه بأسرهم، وأطاعوه في كل أمرهم؛ إذاً لأخبر بذلك عنهم، كما أخبر به عن بعضهم، وكذلك لو علم أنهم يختارون بأجمعهم المعصية؛ لحكم بالنار عليهم كلهم، كما حكم على الذين كفروا منهم.

وأما قوله سبحانه: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} فكذلك الله سبحانه، لو شاء أن يجبر العباد على طاعته جبراً، ويخرجهم من معصيته قسراً؛ لفعل ذلك بهم، (ولو فعل ذلك بهم) (٢)، وحكم به عليهم؛ لم يكن ليوجد عقاباً، ولا ليخلق ثواباً، ولكان الناس كلهم مصروفين لا متصرفين، ومفعولاً بهم لا فاعلين، ولكنه سبحانه أراد أن لا يثيب ولا يعاقب إلاَّ عاملاً(٣)، متخيراً مميزاً، فأمر العباد ونهاهم، وبصرهم وهداهم، وجعل فيهم استطاعات؛ ينالون بها المعاصي والطاعات، ليطيع المطيع فيستأهل بعمله وتخيره(٤) الثواب، ويعصى العاصي فيستوجب باكتسابه العقاب.

---

(١) في (أ): يستطيعون.
(٢) سقط من (ب).
(٣) في (ب،ط): عاقلاً.
(٤) في (أ): ويجزيه.

(٤٦١/١)

فأما قوله: {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، فهو: وجب وحق الحكم مني بما حكمت به، ومضى ووقع على(١) ما جعلته؛ من عقاب المذنبين، وثواب المحسنين؛ من الجنة والناس أجمعين. فهذا معنى قوله سبحانه لا ما قال المبطلون، ونسب إليه سبحانه الجاهلون؛ من ظلم العباد، والإدخال لهم في الفساد. تم جواب مسألته.

المسألة السادسة والثلاثون:

عن الطاعة والإيمان، هل هما مما خص الله به بعض خلقه دون بعض؟

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [الإسراء: ٢١]، فيقال لهم: ألستم تقرون أنَّه قد فضل بعض خلقه على بعض في الدنيا والآخرة، وخص بذلك بعض خلقه دون بعض؟ فإن قالوا: نعم؛ انتقض قولهم، و[ثبت] أن الطاعة والإيمان مما فضل الله به [بعض] عباده، وخصهم به من رحمته، وإن قالوا: لا؛ فقد جحدوا بآيات الله وكذبوا كتابه. تمت مسألته. جوابها

---

(١) في (ط): عليه.

(٤٦٢/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله جل جلاله: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [الإسراء: ٢١]، فقال: إن الله سبحانه فضل قوماً بأن أدخلهم في الإيمان؛ على قوم أدخلهم في الكفر والعصيان، فضل بذلك وغوي، وهلك عند الله وشقي، ونسب إلىالله سبحانه من ذلك الجور والردى، فتعالى وتقدس عن ذلك ربنا. وليس كما قال الجهال؛ من أهل السفاهة والضلال، بل هو كما قال ذو الجلال؛ حين يقول: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشورى: ٤٩]، وكما قال سبحانه لنبيه عليه السلام: {وَلاَ

تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [طه: ١٣١]، ففضل بعضهم على بعض بما وهب من الذكور، وبما يجعل ويوسع به من الأرزاق، ويمن به ويتفضل على من يشاء من الأرفاق، وما يرزق من يشاء من الحسن والجمال، والمنطق والتمام والكمال، فكم قد رأينا، وفهمنا وعاينا؛ من مولود يولد أعمى، وآخر يكون ذا زيادة ونقصان، وآخر سوي غير زائد ولا ناقص، قد تمت عليه من الله النعماء، وصرفت عنه وعن والديه فيه البلوى. فهذا وما كان مثله مما فضل الله به بعضاً على بعض؛ مما ليس فيه على الله حجة، يفعل من ذلك ما يشاء سبحانه ذو الجلال والحكمة، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

(٤٦٣/١)

وأما قوله: {وَلَلآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً}، يقول: إن عطاءنا وامتناننا، ومجازاتنا لأهل طاعتنا؛ في معادهم وآخرتهم على أعمالهم؛ أكبر درجات وأكبر تفضيلا، على اجتهادهم في مرضاتنا، فمن كثر عمله بالخير كان عند الله في الآخرة أكبر درجات ممن نقص عمله، وذلك قوله سبحانه: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الأنعام: ١٦٠]. تم جواب مسألته.

المسألة السابعة والثلاثون:

عن الطاعة والإيمان، هل هما مما خص الله به بعض خلقه دون بعض؟

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة عن قول الله تبارك وتعالى لإبليس: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِيْنَ} [الحجر: ٤٢]، وقال: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٩]، وقال إبليس: {لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر:٣٩]، فقال(١): أخبرونا عن هذا السلطان، ما هو؟ فإن قالوا: هو التخييل، فقل: فما أكثر ما لقي منه المؤمنون(٢) وأطفالهم، وإن قالوا: هو الدعاء. فقل: فهذا ما لا يدعو (٣) به المؤمن والكافر والخلق كلهم، حتى عرض للأنبياء فدعاهم والتمس فتنتهم، فدعاهم كلهم إلى المعصية، وإن قالوا: هو التضليل، ولن يصل بذلك إلى عباد الله المؤمنين، لأن الله عصمهم، وهو الوكيل عليهم؛ فقد أجابوا، ونقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها

---

(١) في (أ،ب): فقل.

(٢) في (أ): من المؤمنين.

(٣) في (أ): ما يدعو.

(٤٦٤/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله عز وجل لإبليس: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِيْنَ}، ومن قوله: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}. وعن قول إبليس حين قال: {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، فقال: ما هذا السلطان الذي ليس للشيطان على المؤمنين؟ فتوهم لجهله، وسوء نظره وعلمه، أن الله تبارك وتعالى حال بين إبليس وبين بعض العباد حولاً، ومنعه من الوسوسة لهم منعاً، وقسرهم عنه قسراً، وليس ذلك كما قال، ألا تسمع ما ذكر الله عن آدم وزوجه، وكيف كانت وسوسته لهما حتى أوقعهما فيه. وكذلك (اعترض لعيسى بن مريم حتى دحره، ولم يطمعه في شيء مما ذكره، ولغيرهما من الأنبياء) (١) والمؤمنين، فلو منعه الله من أحد من المؤمنين منعاً، وقسره عن الوسوسة له قسراً، لكان ذلك لأبيهم آدم صلى الله عليه، ولكنه سبحانه منعه من ذلك بالنهي له، والزجر عما هو عليه من إغوائه، وعاقبه عليه، وأعد له النار والعذاب فيه، فقال: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود:١١٩].

---

(١) سقط من (ب).

(٤٦٥/١)

فأما السلطان الذي ذكر الله عز وجل أنَّه ليس له على المؤمنين؛ في قوله: {إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِيْنَ}؛ فهو ما علم من المؤمنين من طرده ودحره، وترك طاعته في وسوسته وأمره، وأنهم لا يجعلون له عليهم سلطاناً بشيء من الطاعة له من العصيان(١) لربهم، وأنهم لا يزالون مؤثرين(٢) لطاعة الرحمن، محترسين من الشيطان بتلاوة القرآن، والاعتصام بذي الجلال المنان، فهم أبداً لله مراقبون، وفي طاعته ساعون، وللشيطان اللعين معادون، كما أمرهم ربهم حين يقول: {إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً}[فاطر:٦]، وفي كل ما أمرهم به مخالفون، فأولئك هم المهتدون؛ الذين على ربهم يتوكلون، فليس له على هؤلاء سلطان، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، وكذلك سلطانه على أوليائه، وهو دعاؤه لهم، وإغواؤه إياهم، وقبولهم منه، ومثابرتهم عليه، فلما أن قبلوا منه ولم يعصوه؛ كانت طاعتهم له السلطان له(٣) عليهم إذ(٤) أطاعوه، وفي دعائه اتبعوه. تم جواب مسألته.

المسألة الثامنة والثلاثون:

هل يخص الله برحمته من يشاء من خلقه، أم هي عامة؟

---

(١) كذا في النسخ، ولعلها: ومن العصيان.

(٢) في (أ): مؤتمرين.

(٣) في (أ): سلطان له.

(٤) في (ب): إذا.

(٤٦٦/١)

ثُمَّ أتبع ذلك المسألة فقال: أخبرونا، هل يخص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟ وإنما هو أمر عام، فمن شاء ترك ومن شاء أخذ؟ فإن قالوا ذلك فقد كذبوا، والله سبحانه يخبر بخلاف قولهم؛ إذ يقول لنبيه عليه السلام: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} [الإنشراح: ١-٢]، وقال أيضاً؛ لمن أراد أن يخصه بالهدى من خلقه: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}[الأنعام: ١٢٥]، وقال أيضاً: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ} [الزمر: ٢٢]، فقال: أخبرونا عن الشرح، ما هو؟ أهو الهدى؟ أم هو الدعاء؟؛ فإن قالوا: إنَّه الدعاء، زعموا أن كل كافر مشروح الصدر بالإسلام، وأن الخلق كلهم جميعاً قد شرحت صدورهم، لأنهم قد دعوا كلهم، وإن قالوا: هو الهدى، الذي يمن به على من يشاء؛ فقد أجابوا. تمت مسألته.

جوابها

وأما ما سأل عنه فقال: أخبرونا هل يختص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟

فإنا نقول كما قال الله سبحانه: {وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ} [الحديد: ٢٩]، ثُمَّ نقول: إن اختصاص الله برحمته من يشاء من عباده يخرج على معنيين:

(٤٦٧/١)

فأما أحدهما: فهو مشيئته أن يزيد المهتدين هدى، ويزيد المؤمنين تقوى. وذلك قوله سبحانه: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن:١١]. وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحديد:٢٨]، فشاء سبحانه أن يزيد ويختص برحمته؛ من ثابر على طاعته، وسارع إلى مرضاته، كما شاء أن يخذل من آثر هواه، وأسخط بفعله مولاه.

وأما المعنى الآخر: فهو ما يختص به من يشاء؛ من السلامة والإغناء، وصرف المكاره والبلوى، فتبارك الله الواحد الأعلى.

فهذا ومثله معنى اختصاص الله بالرحمة لمن يشاء، لا ما يقول الفاسقون، ويذهب إليه الضالون؛ من أن الله تبارك وتعالى؛ يخرج من المعصية عباده قسراً، ويدخلهم في طاعته جبراً.

(٤٦٨/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}؛ فإنا نقول: إن الشرح من الله لصدره؛ هو توفيقه وتسديده، وترغيبه بالهدى وتأييده، وتعليمه ما كان يجهله وتفهيمه، فشرح الله بالإيمان صدره، ورفع بالوحي المنزل قدره. وأما الوزر الذي وضعه الله عن ظهره؛ فهو ما يغفر له من ذنوبه. ومن الوزر ما كان منه من الضلال عن الوحي والهدى، فوضعه الله سبحانه عنه بهداه له. ومما خصه الله به(ما آتاه)(١)؛ من التبصرة(٢) والزيادة في تقواه؛ فجعله من بعد أن كان جاهلاً عالماً، ومن بعد أن كان متبعاً متبعاً. ومن ذلك ما وضع عنه من وزر الفقر وضراه، وما متن به عليه من بعد العيلة(٣) وأغناه، كما قال تباركت أسماؤه، وعزت بكريم ولايته أولياؤه: {وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} [الضحى: ٨]. وأما قوله سبحانه: {الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ}؛ فهو أوقره وفدحه، وغمه وكربه؛ من الضلال؛ عن العمل برضى رب الجلال، فوضع الله عنه ثقل ذلك بما بصره وأوحى إليه، وفضله وامتن به عليه. وليس ذلك الوزر حملاً من الأحمال على ظهره، ولا وقراً أوقر بحمله، وإنما ذلك على المثل، قال الشاعر(٤):

حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به...جزاك عنا إله الخلق رضوانا

---

(١) سقط من (ب،ط).
(٢) في (ب،ط): من النصرة.
(٣) العيلة: الفقر.
(٤) لم أعرف قائله.

(٤٦٩/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٢٥]، فجوابنا في ذلك أن الشرح من الله هو التوفيق والتسديد، والتبصير والتنبيه، وأن معنى قوله جل جلاله: {يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}، هو بما يَدَّارك عليه من الأمر والدعاء، وما أمر به عبده ورسوله ونزل عليه، فكلما زاد الله في إقامة الحجة عليهم، والدعاء لهم وإظهار الحق لديهم؛ ازدادوا طغياناً وإثماً، وتمادياً وعمى، فخذلهم الله لذلك وأرداهم، وأذلهم وأشقاهم، فعادت صدورهم؛ لما فيها من الشك والبلاء، وما يخافون من ظهور الحق عليهم والهدى؛ ضيقة حرجة كأنما تصعد في السماء. وإنما مثل الله ضيقها(١) بالتصعيد في السماء، لأن التصعيد أشد الشدة وأعظم البلاء، ولذلك ما قال الله جل ثناؤه في الوليد بن المغيرة المخزومي: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً* وَبَنِينَ شُهُوداً* وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ* كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً* سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} [المدثر: ١١-١٧]، فلما أنعم الله عليه بما ذكر، فأبى وأعرض واستكبر، وخالف وكفر؛ وعده الله إرهاق الصعود، وهو الأمر الصعب الشديد؛ من العذاب في دار الآخرة بالنار وأغلال(٢) الحديد، فلما أن كان الصعد الذي لا تعرض فيه، ولا سهولة في حيله(٣)، وأنه مصعد فيه أبداً، وكان أشد ما يلقى من سلك سبيلا؛ ماشياً أو راكباً؛ مثل الله به لهم ما أعد من العذاب والبلاء. تم جواب مسألته.

المسائل ٣٩ - ٤٣

---

(١) في (ط): صفتها.
(٢) في (ط): والأغلال.
(٣) كذا في النسخ.

(٤٧٠/١)

ثُمَّ أتبع ذلك (الحسن بن محمد)(١) المسألة عن قول الله سبحانه في التأييد، وذلك قوله لعيسى بن مريم: {وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} [البقرة: ٨٧]، وقوله للمؤمنين: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٤]، في آيٍ كثيرة، فخص الله من يشاء من خلقه من الأنبياء والمؤمنين، ألا ترى أن الله عز وجل لم يكلهم(٢) إلى ما زعمتم أنَّه جعله فيهم من الاستطاعة؟ وهي الحجة زعمتم على جميع خلقه، حتى جاءهم سوى ذلك من أمره، فأيدهم به، فظهروا بتأييده، ورعب عدوهم فغلبوا برعبه، ونصرهم فقهروا بنصره.
ثُمَّ قال فيما من به على المؤمنين، ويعلمهم ما صنع بهم مما لم يصنعه بغيرهم، فقال: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: ٤]، وقال أيضاً: {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا} [الفتح: ٢٦]،فلم يرض لهم ما زعمتم بما جعل من الاستطاعة حتى جاءهم من أمره وعونه سوى ذلك.

---

(١) ليس في (أ).
(٢) في (أ): لم يكلفهم إلا.

(٤٧١/١)

وقوله لرسوله: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} [الإسراء: ٧٤-٧٥]، وقوله لأصحاب الكهف: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً} [الكهف: ١٤]، فلم يرض لهؤلاء ما جعل فيهم من الإستطاعة التي زعمتم أنها حجة على خلقه، وأنه يحتج عليهم بما أخذوا أمره وركبوا معصيته؛ حتى أتاهم من أمره ما بلغوا به ما يشاء من رحمته وهداه، وكذلك هو يفعل ما يشاء سبحانه وبحمده، يضل من يشاء ولا يسأل عما يفعل والخلق يسألون.
وإن قالوا: أخبرونا عن الأعمال، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فأنتم تزعمون أن الله خلقها؟ فإن قالوا: فكيف نسبها الله إلى خلقه، وجعلهم الذين عملوا وتكلموا؟ فقولوا: ألا ترون أن الله عز وجل قد قال: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً} [النحل: ٨٠]، وقال: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} [النحل: ٨١]،وأنتم تعلمون أن الناس هم الذين غزلوا ونسجوا السرابيل، وعملوا الدروع، وبنوا البيوت، واتخذوا المظال(١)، وقد من علينا به، وأخبرنا أنَّه جعله، وذلك أنَّه ألهمنا بمنته(٢) أن غزلنا، وهو علمنا(٣) ذلك، ونسجنا وعلمنا ما عملنا(٤)، وأخبرنا أنَّه قد جعله. فكذلك خلق ما عملنا من طاعة أو معصية ونحن عملناهما جميعاً.

---

(١) في (أ): الظلال.
(٢) في (أ): وكذلك ألهمنا بمنه.
(٣) في (ب،ط): عملنا.
(٤) في (أ): ما علمنا.

(٤٧٢/١)

وكذلك قال أيضاً: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٤]. ألا ترون أن الله سبحانه خلق الثمرة في الشجرة وأخرجها منها، ثُمَّ نسب الخروج منها إليها؟ وقال: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} وكذلك أعمال العباد خلقها(١)؛ ثُمَّ نسبها إليهم، وأخبر أنهم عملوها.
فإن قالوا: أخبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال؛ من الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على ذلك، ومنهم من هو غير مجبور، فأما الذين جبروا على الطاعة فمنهم أهل مكة، افتتحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسراً، فأسلموا كرهاً، ولو لم يسلموا قتلهم، واستحل دماءهم وأموالهم، فهذا وجه القسر والجبر. وأما الوجه الآخر فإن الله تبارك وتعالى، قد قذف في قلوبهم الهدى، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثُمَّ قال: {أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧]، وقد قال في كتابه: {وَلَهُ أَسْلَمَ

تسخط غلظ عليهم، واشتد قلبه عن الرحمة بهم، لما أمره الله سبحانه فيهم، فكان ذلك تثبيتاً منه له عن أن يركن إلى ما يدعوه إليه الكرم والصلة للرحم من الرحمة، لا ما يقول الضالون على الله وعلى رسوله من أنَّه كاد أن يركن إليهم، ويميل بالمحاباة في صفهم. ثُمَّ قال سبحانه: {إذاً لأذقناكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، يقول: لو رحمتهم، ورفقت ـ من بعد نهينا لك عن ذلك ـ بهم؛ لكنت لنا من العاصين، وكنت عندنا على ذلك من المعذبين.

***

(١) في (أ): رفق بهم.

(٤٧٦/١)

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: {إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً}، فآخر هذه الآية دليل على تفسير ما سأل عنه في أولها، ألا تسمع منه كيف ذكر عنهم ما ذكر من الإيمان، والإخلاص لله الواحد الرحمن؟ فلما أن آمنوا زادهم إيماناً، وكذلك يفعل الله بعباده المؤمنين، ألا ترى كيف قال: {إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ}؟ فكذلك يفعل الله بمن آمن واتقى، كما يخذل من عند عن أمره وعصى، ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة أولا؛ ما نالوا زيادة الله لهم في الهدى آخراً، ولكن بما جعل فيهم من الاستطاعة ما(١) يقدرون على الطاعة والعصيان، فآثروا الطاعة ورفضوا المعصية؛ فصاروا بذلك مؤمنين، فاستأهلوا من الله الزيادة في كل خير، والدفع منه عنهم لكل ضير. ألا ترى كيف يقول: {إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}؟ يقول: لما أن عملوا الطاعة؛ بما فيهم من القدرة والاستطاعة؛ زدناهم من الخير والكرامة.

ثُمَّ قال الحسن بن محمد: وكذلك الله يفعل ما يشاء، يضل من يشاء، ولا يسأل عما يفعل والخلق يسألون، فتوهم ويحه! أن الله سبحانه يضل عن سبيل الرشاد؛ قوماً منعهم بالإضلال عن الرشاد. وكيف يكون ذلك وقد أمرهم بالاهتداء، وبعث إليهم الأنبياء؛ يدعونهم إلى البر والتقوى، وهم لذلك غير مستطيعين، ولا عليه مقتدرين، لقد ـ إذاً ـ ظلمهم فيما إليه دعاهم؛ إذ عنه قد حجرهم وأغواهم. فتبارك الله عن مقالة الجهال؛ من أهل الجبر والضلال.

* * *

(١) كذا ولعل (ما) زائدة.

(٤٧٧/١)

وأما ما تكلم وموه به فقال: إن سألونا عن أفعال العباد: مخلوقة هي؟ أم غير مخلوقة؟ ثُمَّ قال: هي مخلوقة؛ إذ نسبها الله إليه، كما نسب غيرها من أفعالنا إليه، من ذلك قوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً}، وقال: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}، والسرابيل والبيوت العباد يعملونها، وقد نسبها الله جل جلاله إليه، فكذلك أعمالنا، هي منا وهي فعله فينا(١).

فجوابنا في ذلك: أنَّه بخلاف ما قال، وأنه قد أخطأ في القياس؛ إذ قاس أفعال العباد التي هم فعلوها(٢)، ومن بعد العدم أوجدوها؛ إلى ما فعلوا فيه؛ من خرز الجلود، وعمل الحديد، ونسج الثياب التي الله تبارك وتعالى خلق أصلها، وأوجد أولها وصورها، فلما أن كان الله سبحانه الذي أوجد ذلك كله؛ كان هو الجاعل له في أصله، والممتن به على جميع خلقه، وأفعال العباد في ذلك فلم يخلقها الله سبحانه، ولكن الله أوجد ما ذكر من أصولها، والعباد صنعوا ما صنعوا فيها، وعملوا ما عملوا منها، فنسب الله إليه صنع ما أوجد من هذه الأصول التي فرعت، وجعلت ونقلت. فبين هذا وبين أفعال العباد فرق عند من كان له عقل.

هل(٣) رأى أو سمع خَلْقٌ في شيء من الكتاب المنزل، أن الله سبحانه ذكر أنَّه فعل شيئاً مما فعلوه؛ من الفجور والردى، وشرب الخمور وارتكاب الهوى؟ بل نسب ذلك كله إلى فاعله، ونفاه سبحانه عن نفسه.

(١) كتب هنا في (أ): الجزء الخامس من مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية.

(٢) في (ط): فاعلوها.
(٣) في (أ): هل يرى أو يسمع في شيء.

(٤٧٨/١)

فإن قالوا: إن الله سبحانه خلق الأدوات؛ التي تكون بها الأفعال في كل الحالات؛ من الفروج والأيدي والألسن واللهوات، كما خلق الجلود والقطن، والحديد والصوف، فنحن نقول ـ إذ قد أوجد أصل أفعال العباد ـ: إن منه أفعالهم، كما نقول: إن السرابيل منه إذ أوجد أصولها.
قلنا لهم في ذلك: ليس هذا كذلك؛ لأن الله سبحانه أوجد الأصل الذي نقل وصنع وعمل من هذه التي نسبها إليه من الجلود، والكرسف(١) والصوف والحديد، والعباد فعلوا الحدث الذي صرَّفوها به وأحدثوه فيها، من عملها ونسجها، وصناعتها وغزلها؛ بالأكف والأدوات التي جعلت لهم، والاستطاعة التي ركبت فيهم، فالتأم في ذلك جلود وأيد وحركات، فكان الله عز وجل الخالق للأيدي والجلود، وكان العباد الفاعلين للحركات، الصانعين لتلك المصنوعات. كذلك الله سبحانه خلق الحجارة والطين؛ والعباد بنوا الدور، وشيدوا ما بنوا من القصور، فاجتمعت في ذلك الحجارة والأكف العمالة(٢) والحركات؛ التي دبرت لها الحجارات، فكان الله جل ثناؤه خالق الأيدي والصخور، والعباد أحدثوا الحركات وبنوا الدور. وأفعال الله سبحانه فكائنة عندما يريدها بلا تحيل ولا حركات، ولا تأليف شيء إلى شيء بالأكف العاملات(٣).
ففي هذا أبين الفرق بين أفعال المخلوقين، وبين أفعال رب العالمين، فما كان من فعل الله فليس من أفعال العباد، وما كان من أفعال العباد فليس من أفعال ذي العزة والأياد.
كذلك لو أن رجلاً سرق صوفاً؛ فنسجه سربالاً وثوباً؛ لم يعذبه الله سبحانه على حزم الصوف، ولا على ما قبضه به من اليد والكف، وإنما يعذبه على أخذه، وحوزه عن ربه، واستئثاره عليه به، وما كان من انتفاعه به ولبسه، فعذبه سبحانه على ما كان من حركاته وفعله، ولم يعذبه على ما خلق وصور من نفس المسروق وصورته.

(١) في هامش (ط): هو القطن.
(٢) في (أ): العاملة.
(٣) في (ط): العمالات.

(٤٧٩/١)

وكذلك يعذب الزاني على زناه، والزنى فهو الإيلاج، والحركة والإخراج، ولم يكن الزنا إلاَّ بالفرجين والحركة، فالفرجان فعل الله، والحركة والزنا، فعل العبد ذي الفسالة والردى. فالله عز وجل يعذبه على زناه وإدخاله وإخراجه وحركاته لا على ما خلقه له من الفرج.
فخلق الله الآلات، وما أنعم به على العباد من الأدوات؛ لينالوا بها المنافع واللذات؛ من طريق ما أحل لهم، لا من وجه ما حرم عليهم، ثُمَّ أمرهم في ذلك باجتناب المعصية، وحضهم على فعل الطاعة.
وأما ما عنه سأل، وفيه قال بالمحال، وقاس على مقاييس الضلال فقال، قال الله تبارك وتعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، فقال: ألا ترون أن الله خلق الثمرة في الشجرة فأخرجها منها؟ ثُمَّ نسب الثمرة إليها؛ فقال: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}؟ فكذلك نقول: إن أعمال العباد الله سبحانه خلقها، والعباد عملوها، ثُمَّ نسبها إليهم وأخبر أنهم عملوها.

(٤٨٠/١)

فقولنا في ذلك: إنَّه غالط في القياس، أو أراد معنى فأخطأ في مقاله، لأنَّه مثل ما ليس بمأمور ولا منهي، فقاس فعل العباد فيما أوجدوه؛ بفعل الله الذي لم يفعلوه، وإنما قياس الشجرة، وما أوجد الله سبحانه فيها من الثمرة؛

قياس الناقة والامرأة، الله سبحانه خلق الأولاد فيهما، وهما ولدتا. قال الله سبحانه في امرأة عمران، وفيما نذرت مما في بطنها للرحمن؛ حين يقول: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى} [آل عمران: ٣٦]، فقال: {وَضَعَتْهَا}، فنسب الولد وما كان من تخليصها وتسليمها في وضعها لها إليها، والله سبحانه الذي جعلها في بطنها، وأخرجها بقدرته منها، ولولا إخراجه لها وتخليصه إياها؛ إذاً لم تخلصها أبداً أمها. قال الله عز وجل في ذلك: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [الروم: ١٩]، فلا شك أنَّه المخرج والمخلص للولد من الظلمات الثلاث؛ من المشيمة(١)، والرحم، والبطن، قال الله سبحانه: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [الزمر: ٦]، وقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً} [العنكبوت: ٨]، فنسب إليهما ولادتهما إياه، إذ كان الخارج منهما والمصور فيهما، والله سبحانه المصور له، والمقدر تصويره وخلقه. فكذلك نسب إلى الشجرة إيتاء أكلها، وهو الخالق لها ولثمرها.

(١) المشيمة: وعاء الولد في بطن أمه.

(٤٨١/١)

فأما قياس أفعال العباد التي نهوا عنها وأمروا بها، وعوقبوا عليها وأثيبوا بها؛ فليس هذا قياسها، وسنأتي به ونذكر إن شاء الله ما هو مثلها، فنقول لمن قال: إن الله سبحانه خلق أفعال العباد وركبها فيهم، وأنطقهم بها وقضى بها عليهم ثمَّ نسبها إليهم: ما تقول - إذا قلت ذلك، وكان الأمر عندك كذلك - في مشرك أشرك بالله وجحده؟ وفي قتل من قتل الأنبياء بغير حق؛ الذين قال الله فيهم: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: ٢١]؟ الله فعل ذلك فيهم؛ كما فعل غيره من أفعالهم؟ فإن قالوا: نعم، الله فعله وخلقه، وقضاه وركبه؛ فقد زعموا أن الله عز وجل كفر بنفسه، وأمر بالشرك به وقتل أنبيائه، وهذا فأكفر الكفر وأجهل الجهل بالرحمن، عند كل من عرف الحق وكان ذا إيمان. وإن قال: لا، رجع عن قوله، (وتاب إلى ربه، وإن قال: خلق(١) الطاعة وخلق بعض المعصية، ولم يفعل عظائم العصيان) (٢) ولا فوادح ما نأتي به من الكفران، قيل له: فلا نراك إلاَّ وقد أثبت للعبد فعلاً لا محالة دون الرحمن، فإن جاز أن يكون من العبد فعل لم يخلقه الله ولم يفعله جاز أن تكون له أفعال كثيرة، وأمور جمة غير يسيرة، والأمر في ذلك، فعلى قولنا لا قولك، وشرحنا بحمد الله لا شرحك؛ لأنك قد أجمعت معنا على قولنا؛ إذ قد أقررت لنا ببعض فعلنا، ونفيته عن خالقنا وربنا، ونحن لا نطمعك(٣) في قليل من ذلك ولا كثير، ولا ننسب إلى الله من أفعال عباده عظيماً ولا حقيراً. فهذا قياس ما إليه ذهب، لا ما ارتكب فيه من المحال والعطب.

***

(١) في (ط): فعل.
(٢) سقط من (ب).
(٣) في (ط): لا نطيعك.

(٤٨٢/١)

ثُمَّ قال إن قال قائل: خبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال(١)؛ من الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية والغدر؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على ذلك، ومنهم من هو غير مجبور، فأما الذين أجبروا على الطاعة فمنهم أهل مكة، افتتحها رسول الله صلى الله عليه وآله قسراً، فأسلموا لذلك كرها، ولو لم يسلموا قتلهم، واستحل دماءهم وأموالهم، فهذا وجه القسر والجبر، وأما الوجه الآخر، فإن الله قذف في قلوبهم الهدى، وحبب إليهم الإيمان، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثُمَّ قال: {أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}، ثُمَّ قال: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[آل عمران: ٨٣].

(١) في (أ): أعمالهم.

(٤٨٣/١)

فردنا عليه فيما يقول أنا نقول: الحمد لله على ما رزقنا من العقول، والفهم بما نقول، فيا ويح الحسن بن محمد! الجاهل، المتحير في أمره الغافل(١)، بينا هو يقول(٢): إن الله يجبر العباد؛ على الطاعة له والانقياد؛ إذ رجع فصرف ذلك إلى الرسول، فيا ويح ذي الجهل! من نازعه في ذلك؟ أو من ذا الذي لم يكن من أضداده قوله كذلك(٣). أو لم يسمع قول الله سبحانه، وتعالى عن كل شأن شأنه، فيمن أكرهته قريش على الكفر والعصيان، ودعته إلى الخروج من الحق والإيمان، وصالت(٤) عليه بصولتها، وأذاقته ما قدرت عليه من أليم عقوبتها، حتى أعطاهم ما أرادوا بلسانه وقوله، وقلبه مخالف لما لفظ به من مقاله، مطمئن بالإيمان، مخالف لدين أهل العصيان، فقال في ذلك الرحمن: {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ} [النحل: ١٠٦]، وكان الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان؛ عمار بن ياسر رحمة الله عليه، ذو المعرفة بالله والإيقان، فلا يشك مميز عاقل، ولا ينكر ما قلنا به جاهل، من أن الخلق يكره بعضهم بعضاً، على القول والفعل لما لا يحب(٥) ويرضى، وإن كان ضمير القلوب مخالفاً للكلام، وهذا موجود في (لغة) (٦) جميع الأنام، فأما علم الضمير؛ فلا يطلع عليه إلاَّ الواحد القدير.

***

---

(١) في (ب): الجاهل الوسن بينا هو..

(٢) في (أ): هو يزعم.

(٣) في (أ،ب): كذلك. والمعنى: أنه خرج عن محل النزاع الذي هو الجبر من الله جل شأنه إلى ما لا نزاع فيه من إكراه الخلق بعضهم لبعض، والله أعلم.

(٤) في (أ): وطالت.

(٥) في (أ): لما يحب.

(٦) سقط من (أ).

(٤٨٤/١)

ثُمَّ قال: إن معنى قوله سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}، هو جبر منه لهم على إسلامهم، وإخراج لهم من ضلالهم وكفرانهم؛ بالجبر والتحويل والقسر، واحتج في ذلك بقول الله سبحانه: {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ}، فلا تأويل معنى(١) الإسلام من الخلق أصاب، ولا في معنى ما ذكر الله عز وجل من التحبيب والتكريه أجاب.

وإنما معنى قول الله سبحانه: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}، هو المعرفة به، والإقرار بربوبيته، وأنه الخالق غير مخلوق، والرازق غير مرزوق، كما قال سبحانه: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت: ٦١]. فهذا معنى ما أراد الله - والله أعلم - بقوله: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}؛ لأن الإسلام يخرج في اللغة على معنيين:

فأحدهما: الإقرار بفعل الفاعل والتسليم له، وترك المكابرة له في فعله، والمعاندة له بالانكار لما يحدث من صنعه.

والمعنى الثاني: فهو الاستسلام لأمر الآمر، والإنفاذ لما حكم به، والانقياد لجميع ما قيد إليه وصرف من الأفعال فيه.

---

(١) في (أ): فلا معنى تأويل الإسلام.

(٤٨٥/١)

فعلى المعنى الأول ما يخرج(١) تفسير الآية، لا على المعنى الثاني الذي توهم الحسن بن محمد أن عليه يخرج معناها، ولو كان ذلك كذلك، أو قارب شيئاً من ذلك؛ لكان جميع الخلق لله مطيعين، وفي أمره سبحانه

متصرفين، طائعين كانوا أو كارهين، ولو كان كما يقول هو ومن معه من الجاهلين؛ إذاً لما وجد أنبياء الله في الأرض عاصين، ولكان الله تبارك وتعالى بإكراهه لهم على طاعته، وإدخالهم قسراً في مرضاته؛ مجتزياً مكتفياً عن نهيهم عن معصيته، ولما احتاج الخلق إلى المرسلين، ولما حذرهم الله مَنْ حذَّر(٢) من مردة الجن والعالمين.

(١) ما)) هنا زائدة.
(٢) في (ط): ما حذر، ومن حذّر في محل النصب على المفعولية.

(٤٨٦/١)

وأما قوله: {طوْعاً وَكَرْهاً}، فالمطيع منهم في ذلك هو من أطاع الحجة المركبة فيه، والشاهدة بالحق له وعليه؛ من اللب الذي ينال به التمييز بين كل شيئين، ويثبت له به الرضى والسخط في الحالين، فمن أنصف لبه، وقبل ما أدى إليه معقوله(١) من معرفة ربه؛ كان منصفاً طائعاً، متحرياً للحق خاضعاً. والمكره فهو من كفر وتعدى، وكابر لبه وأبى، وعند عن الحق وأساء، حتى [إذا](٢) أدركه البلاء، واشتد عليه الشقاء، ونزلت به النوازل، واغتالته(٣) في ذلك الغوائل؛ رجع صاغراً إلى إنصاف لبه، ولجأ فيما ناله إلى ربه، واستسلم وأسلم له. كمن ذكر ذو الجلال؛ ممن تعدى في الغي والمقال؛ حين يقول ويخبر عنهم، ويقص ما كان من أخبارهم، حين يقول ويخبر عن فرعون فقال: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيْلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ} [يونس: ٩٠]. ومثل قوله: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: ٦٥]. ومثل قوله: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوا رَبَّهُمْ مُنِيْبِيْنَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيْقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُوْنَ} [الروم: ٣٣].

(١) من معاني المعقول: العقل.
(٢) زيادة لاستقامة الكلام.
(٣) في (ب،ط): واغتال لبه.

(٤٨٧/١)

وأما معنى تحبيب الله عز وجل إلى العباد الإيمان، وتكريهه للكفر والفسوق والعصيان، فهو بما جعل وحكم لمن آمن واتقى من الجنان، والنعيم والجزاء والإحسان، وبما كان يريهم ويشرعه لديهم؛ من نصر المؤمنين والإظهار لحجتهم والاعزاز لدينهم(١). والتكريه منه لما ذكر؛ فهو بما أوجب على فاعل ذلك من العقوبات في الآخرة بالنيران، وفي الدنيا بالقتل والسبي والذل والخذلان، فلما جعل ما جعل من الخير والثواب للمؤمنين، وأعد(٢) وحكم بما حكم به من العقاب على الكافرين؛ رغب الراغبون في الثواب وأحبوا(٣) له الإيمان وآمنوا، وهاب واتقى وخاف العقاب الخائفون فاتقوا، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان لخوف العقاب فاهتدوا، وزهد(٤) أهل الكفر في كفرهم؛ لما يرون من ذلهم وصغارهم، وظهور الحق والمحقين واعتلائهم؛ فتركوا الفسق(٥)، ودخلوا في الحق.
فهذا إن شاء الله معنى ما ذكر من ذلك العلي الأعلى، لا ما قال وذهب إليه أهل الإفك على الله وقالوا فيه من الجبر للمخلوقين على ما يكون من أفعالهم، والادخال لهم بالقسر في فاحش أعمالهم؛ من الغي والفجور، والمنكرات والشرور، والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين.
***
ثُمَّ قال: إن قال قائل: خبرونا عن المشركين الذين لم يسلموا، هل جبروا على الشرك؟ قيل له: إن المشركين لم يريدوا الإسلام فيجبروا على الشرك، ذلك لو أنهم أرادوا الإيمان فأكرهوا على الشرك، كما أراد المشركون الشرك ورضوا به؛ وأراد الله جل ثناؤه أن يهديهم فجبرهم على الهدى وهم كارهون. ثُمَّ قال: فإن قال قائل: فإن لم يكونوا مجبورين ولا مكرهين، فهل يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى، فقل: لا، إن شاء الله.

(١) في (أ): وإظهاره لحجتهم وإعزاز دينهم.
(٢) في (ب،ط): وما أعد.

(٣) في (ط،ب): وأوجبوا.
(٤) في (ط: وزهدوا.
(٥) في (ب،ط): الفسوق.

(٤٨٨/١)

فزعم في آخر قوله أنهم لا يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى؛ فأبطل حجته وقوله أولاً، حين يقول: إنهم إنَّما يكونون مجبورين على الشرك لو أرادوا الهدى؛ فمنعوا منه وأدخلوا في الردى، فأثبت بهذا القول لهم الفعل، وأقر أنهم يقدرون على فعل مالا يريد الرحمن؛ حتى يجبرهم على غيره من الشأن؛ لأن الإرادة والنية فعل لصاحبهما، ولذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أن صاحب النية يعطى بها ويثاب فيها وعليها. وإذا صح أن العباد يفعلون ويريدون ما لا يشاء ربهم، حتى يجبرهم على غير ذلك من فعلهم؛ فقد بطل ما يخرصه الحسن بن محمد من زخرف قوله، وثبت وصح ما يقول به أهل المعرفة بالله من العدل بإقراره.
ثُمَّ زعم أن من لم يقدر على ترك الشرك والكفر بربه؛ غير مكره ولا مجبور على ما هو فيه من فعله، وهذا فعين المحال، وأفحش ما يقال به من المقال، وإبطال المعقول، والمكابرة لصحيح العقول. لأن من حيل بينه وبين القيام لسبب من الأسباب؛ فقد جبر على القعود بلا شك ولا ارتياب. وكذلك من أوقدت له نار ثُمَّ ألقي فيها، ومنع من التحرف عنها، وحيل بينه وبين الخروج منها؛ فقد جبر وجبل على الإحتراق فيها. وكذلك الطائر إذا قص جناحاه الخافقان؛ فقد حيل بينه وبين ما يريد من الطيران. وكذلك من لم يجعل فيه من الخلق استطاعة فعل؛ فقد حيل بينه وبينه، لا يشك في ذلك عاقلان، ولا يختلف فيه جاهلان.
***
وأما ما سأل عنه من قوله، وكذبه على ملائكة ربه؛ فقال: خبرونا عن الاستطاعة التي تزعمون أن الله جل ثناؤه جعلها في عباده حجة عليهم، وأنها مركبة فيهم ليعملوا أو يتركوا، هل جعلها في الملائكة المقربين أم لا؟ ثُمَّ قال: فإن قالوا: نعم، قد جعلها فيهم، وامتن بها عليهم؛ فقولوا لهم: فأنتم إذاً لا تدرون عن الملائكة هل بلغت؟! أم لا؟ أم هل أدت ما أمرت بإدائه؟ أم هل قصرت في شيء مما أمرت به؟ إذ تزعمون أنها قادرة على ما تهوى، تاركة لما تشاء.

(٤٨٩/١)

فقولنا في ذلك: إن الله سبحانه ركب الاستطاعة في عباده، وجعلها في جميع خلقه المأمورين المميزين، ومنهم الملائكة المقربون صلوات الله عليهم، ثُمَّ أمرهم ونهاهم؛ من بعد أن أوجد فيهم ما أوجده سبحانه في غيرهم؛ من الاستطاعة الكاملة، والنعمة الشاملة، وأمرهم ونهاهم، ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة لما جرى أمره عليهم. من ذلك قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ} [البقرة: ٣٤، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦]، فأمرهم بالسجود من أجله، ولما رأوا مما ابتدع من جليل صنعه، ولعظيم ما فيه من قدرته، إذ خلقه من طين؛ من صلصال من حمأ مسنون، والمسنون فهو ما داخله الأجون(١)، فأسن لذلك وأجن وتغير؛ فصار لما فيه من الأجون حمأ (٢) كما ذكر الله مسنوناً، ثُمَّ صوره رجلاً، ثُمَّ نفخ فيه الروح فصار جسماً متكلماً، لحماً وعروقاً وعظاماً ودماً، يقبل ويدبر، ويورد ويصدر، بعد أن كان طيناً لازباً، فسجد الملائكة عليهم السلام، لله المهيمن ذي الإنعام، من أجل ما أحدث في آدم صلى الله عليه من الخلق، وجعله أباً لكل الخلق، فكانوا بإئتمارهم في ذلك لله مطيعين، وعليه مثابين، ولأمر الله مؤدين، ولو لم يكن فيهم استطاعة، ولا ما يقدرون به على السجود من الآلة؛ لم يأمرهم سبحانه بما لا يستطيعون، ولم يكلفهم العدل الجواد مالا يطيقون، لأنَّه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأعدل العادلين. وليس ما ذكر المبطلون، وقال به في الله الضالون؛ من صفات الرحيم، ولا من فعال العزيز العليم، لأن من أمر مأموراً بأن يفعل مفعولاً لا يقدر على فعله؛ كان بلا شك ظالماً له في أمره، وكان قد كلفه في ذلك محالاً، وكان له بذلك غاشماً ظالماً، وليس الله بظلام للعبيد،كما قال في ذلك ذو الجلال الحميد(٣):{وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيْدِ} [فصلت: ٤٦]،

---
(١) في هامش (ط): هو الماء إذا تغير طعمه ولونه وريحه.
(٢) سقط من (أ،ب).
(٣) في (أ): المجيد.

(٤٩٠/١)

وقال سبحانه:{وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [الكهف: ٤٩].
فيا سبحان الله !! ما أجهل من نسب ورضي لربه؛ مالا يرضاه وما لا ينسبه إلى نفسه؛ من تكليف العباد ما لا يطاق، ثُمَّ رضي ذلك؛ ونسبه إلى الواحد الخلاق، فكان كما قال الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيْمٌ} [الزخرف: ١٧]، فأخبر سبحانه أنهم كانوا ينسبون إلى الله اتخاذ البنات، ولا يرضون بهن لأنفسهم ولا يحبون الإناث، بل إذا رزق أحدهم بما رضيه لربه؛ بانت الكراهية منه له في وجهه. فشابهوهم في فعلهم، واحتذوا في ذلك بقولهم؛ فقالوا: إن الله يكلف عباده ما لا يطيقون فعله، ويعاقبهم على ترك ما لم يقدرهم على صنعه، وهم ينفونه عن أنفسهم، ويبرئون منه أخس(١) عبيدهم، فسبحان من أمهلهم، وتفضل بالإنظار لهم.
ثُمَّ قال: ما يدريكم إن كان الملائكة مستطيعين، ولما يشاءون من الأعمال متخيرين، وعلى العمل والترك قادرين(٢)؟ لعلهم قد تركوا بعض ما به أمروا، وقصروا في أداء بعض الوحي، وفرطوا في نصر النبي والمؤمنين، وفي غير ذلك مما أمرهم به رب العالمين.

---

(١) في (أ): أخيَرَ عبيدهم.
(٢) في (ط): مستطيعون، متخيرون، قادرون، بالرفع، وهو خطأ.

(٤٩١/١)

فقولنا في ذلك له: إنا علمنا براءتهم صلوات الله عليهم، وإنفاذهم لكل ما أمرهم به ربهم ـ على ما أمرهم به، غير مفرطين في شيء منه ـ بقوله سبحانه فيهم، وثنائه بما أثنى به عليهم؛ من ترك التفريط في أمره، والاستقصاء في كل إرادته، والتقديس له والتسبيح في الليل والنهار، وذلك قول الواحد الجبار: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُوْنَ* يُسَبِّحُوْنَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُوْنَ} [الأنبياء: ١٩ـ٢٠]. وفي ترك التفريط فيما أمرهم به رب العالمين؛ ما يقول سبحانه في القرآن المبين: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُوْنَ} [الأنعام: ٦١]، ويقول تبارك وتعالى فيهم، ويثني بما يعلم من أفعالهم عليهم؛ حين يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُوْنَ} [التحريم: ٦]، وفي ذلك ما يقول سبحانه ويحكي عن المبطلين؛ بما قالوا في الله رب العالمين، حين يقول: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُوْنَ* لاَ يَسْبِقُوْنَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُوْنَ} [الأنبياء: ٢٦ـ٢٧]، فوجدناه تبارك وتعالى يذكر الاجتهاد منهم له عنهم، فقلنا فيهم بما قاله ربنا وربهم. فتعالى أصدق الصادقين؛ عن مقالة الفسقة الجاهلين.

(٤٩٢/١)

ومن الدليل على معرفة إحقاقهم(١)، والوقوف على محض فعلهم واجتهادهم؛ تولي الله لهم، ومعاداته لمن عاداهم. ألا تسمع كيف يقول، الواحد ذو الجلال والطول: {مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِيْنَ} [البقرة: ٩٨]؟ فذكر سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه؛ أنَّه عدو لمن عاداهم، وإذا صحت العداوة والمناصاة منه لمن ناصاهم(٢)؛ فقد ثبتت منه الولاية بلا شك لمن والاهم. ألا تسمع كيف جعل من عاداهم فاجراً؟ وسماه في واضح التنزيل كافراً؟ حين يقول في آخر الآية جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِيْنَ}، ولن يوالي أبداً من كان في أمره مقصراً، ولن يشهد بالوفاء لمن كان عنده سبحانه غادراً. فبهذا ومثله من تنزيله؛ مما قد ذكره وبينه في وحيه وقيله؛ شهدنا للملائكة المقربين؛ بالاجتهاد في الطاعة لرب العالمين.
ثُمَّ قال تغليظاً لمن كان معه على رأيه من أهل الجهالة، وذوي الحيرة والتكمه والضلالة: يسأل من أثبت في الخلق(٣) الاستطاعة، فيقال لهم: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا من الطاعة، مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟ (ثم قال) (٤): وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته؟.

(١) في (ط): حقائقهم.
(٢) في (ط): والمقاضاة منه لمن ناضاهم. ولعله تصحيف ما أثبت. والمناصاة: المفارقة، ناص عنه: تنحَّى وفارقه.
(٣) في (ط): الحق، وهو سهو.
(٤) ليس في (أ،ب).

(٤٩٣/١)

فبين بهذه الكلمات الآخرات في المعصية؛ على ما تكلم به في كلمات الطاعة؛ من فظيع ما جاء به من الكفر في قوله، والتظليم لله ربه، وبين جهله لتُبَّاعه دون غيرهم؛ ممن هو على خلاف رأيه ورأيهم؛ حين يقول: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا به من الطاعة مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟، ثُمَّ قال: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من المعصية؟ فبين(١) مسألته الثانية في المعصية، ولم يتمها كما أتم المسألة في الطاعة، خوفاً من أن يشهد وينطق على نفسه بالكفر والفضيحة، وذلك أنَّه كان يجب عليه أن يتم الثانية كما أتم الأولى؛ فيقول: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته؛ مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه. ولو كان ذلك في الله سبحانه كذلك؛ لكان الله عز وجل المدخل للعاصين في المعصية، المكره لهم عليها، ولو كان ذلك كذلك، تعالى الله عن ذلك؛ لم يكن في الخلق لله عاص، بل كان كلهم في أمر الله نافذاً ماضياً، ولم يكن إبليس عند الله بمذموم، ولا محمد صلى الله عليه وآله بمحمود، ولم تكن الملائكة المقربون؛ بأحمد عند الله من مردة الشياطين، إذ كلٌّ لا سبيل له إلى غير ما يفعل، ولا حيلة له من العمل في غير ما يعمل، لحتم الله وقضائه بذلك عليهم، وإدخالهم بقضائه فيه، وحملهم وجبرهم وقسرهم عليه، فتعالى الله عما يشركون، وتقدس عما يقول فيه المبطلون.
وفي (ب) و(ط): تمت(٢) مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية في تثبيت الجبر والتشبيه والإلحاد، ورد الهادي إلى الحق أمير المؤمنين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، ونفى ذلك عن الله سبحانه، وإثبات العدل له والتوحيد، وتصديق الوعد والوعيد، والحمدلله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم.

(١) كذا في النسخ، ولعلها: فبتر.
(٢) في نسخة(ب،ط) إلى .....

(٤٩٤/١)

قال في (ط): فرغ من تحريره في شهر جمادي الأولى من سنة إحدى وأربعين وألف (١).
الرد على المجبرة القدرية ـ الأول(٢)
مما أجاب به صلوات الله عليه ابنه المرتضى لدين الله محمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم جميعاً
بسم اللّه الرحمن الرحيم
الحمد لله أحق ما افتتح به رد الجواب، وخوطب به ذووا الألباب، حمداً يوصل إلى جنته، ويوجب المزيد من فضله، وإليه أرغب في الصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
سألتَ يا بني أرشدك اللّه ووفقك، وسددك للفهم وعلمك، عما اختلف فيه الناس، وكثر فيه عند أهل الجهالة الالتباس، حتى نسبوا اللّه فيه إلى أقبح الصفات، وبرأوا أنفسهم من ذلك، وصانوها بزعمهم عنه واستقبحوه، وبلغوا أشد ما يكون من الغضب على من نسبهم إلى شيء منه، ورضوا به في العزيز ودعوه به.
فزعموا أن اللّه شاء شيئاً ونهى عنه، وأراد شيئاً ومنع منه، وأنه أرسل رسله إلى جميع خلقه يدعونهم(٣) إلى أمر قد منعهم منه، وذكروا من هذا شيئاً وضروباً يكثر شرحها، وأنا مبين لك جميع ذلك، وشارحه في مواضعه، ومحتج لله سبحانه بالبراءة مما نسبوه إليه وسموه به ـ يا بني ـ حتى يصح لك فساد أمرهم، وقبيح لفظهم، بما فيه المنفعة والشفاء، والبرهان والإكتفاء، من كتاب اللّه الفصيح، وبما يصح عند كل ذي لب صحيح.
[شُبه المجبرة]

(١) في (أ): والحمد لله رب العالمين، وصلواته على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطاهرين، الأخيار الصادقين، الأبرار المنتجبين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وسلامه. تمَّ وكمل بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه ومنه. قال في الأصل: فرغ من كتابته أول شهر محرم مدخل سنة ست وسبعين وأربعمائه.
(٢) هذه الرسالة مما اختصت به (ب)، وقد اعتمدنا فيها على رسائل العدل والتوحيد بتحقيق د/محمد عمارة ورمزنا لها بالحرف: (ط).
(٣) في (ط): يدعوهم.

(٤٩٥/١)

---

* زعم أهل الجهل أن اللّه سبحانه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، فكذلك اللّه عزَّ وجل، وتأولوا ذلك بجهلهم على أقبح التأويل، وأسمج المعاني، ولم يعلموا ما أراد اللّه سبحانه من ذلك، ولو ميزوا ما قبل هذه الآيات وما بعدها لتبين لهم الحق ووضح.
فأما ما قال اللّه سبحانه مخبراً عن قدرته: {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ} [النحل: ٩٣]، ولم يقل: أضللتُ، ولا هديتُ، في هذا الموضع؛ لأنّه ذكر الضلال والتثبيت منه في موضع آخر، فانظر كيف ذكر ذلك، وكيف قاله مِنْ فعله، فقال سبحانه: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِيْ الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِيْنَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبرهيم: ٢٧] كل هذا التثبيت والضلال لم يكن إلا مادة وزيادة للمؤمنين، وحرباً ونقمة للظالمين. ألا ترى كيف يقول: {الَّذِيْنَ آمَنُوْا}، ولم يقل: الذين ظلموا؟ غير أنَّه لم يُثَبِّت إلاَّ المؤمنين والمستحقين اسم الإيمان بعملهم، ولم يضل إلاَّ الظالمين(١) المستوجبين اسم الضلالة(٢) بفعلهم.
ويخبر سبحانه عن قدرته في خلقه، وأنه إذا أراد هدى المؤمنين وثبتهم، وأنه لا يغلبه شيء من (جميع)(٣) الأشياء، إذا أراده من جهة الجبر والقسر لأهله، لكن اللّه سبحانه أخبر عن قدرته في خلقه، وأنه لو أراد أن يضلهم أو يهديهم جميعاً لكان ذلك غير غالب له، غير أنَّه لم يرد ذلك، إلاَّ من جهة التخيير منهم والاختيار لعبادته، والرغبة فيما رغبهم فيه، والوقوف(٤) عما حذرهم منه، وليخبر الجهال أن ما كان من العباد من الضلال والعمى لو أراد أن لا يكون لأمكنه ذلك، وأن قدرته تبلغ كل شيء.

(١) في ب: الضالين.
(٢) في ب: الضلال.
(٣) ليس في ب.
(٤) أي التوقف والامتناع.

(٤٩٦/١)

وإنما قوله: {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ} خبراً عن نفسه، وإثباتاً(١) له القدرة على كل شيء، لكي لا يظن جاهل أن اللّه عاجز عن أن يمنع الضُّلاَّل من الضلالة؛ لأن في الناس متجاهلين كثيراً، ألا ترى إلى قوله سبحانه يحكي عن الجهال، إذ قالوا: {إِنَّ اللَّهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: ١٨١]؟ فأراد سبحانه أن يثبت الحجة لنفسه على الجهال الذين يقولون مثل هذه المقالة فيه.
* واحتجوا أيضاً بقوله عزَّ وجل ذكره: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ} [يونس: ١٠٠] فصدق اللّه عزَّ وجل، لو لا أنه أذن لهم بالإيمان، وخلى بينهم وبينه؛ ما عرفوه، ولا دلّهم عليه، ولا أمرهم به، ولا أرسل إليهم المرسلين، حتى بيّنوا لهم فضله وشريف منزلته. فأي إذن أكبر أو فعل (٢) أخطر مما فعل اللّه بهم؟ ألا ترى إلى قوله: {وَآمِنُوا بِرَبِّكُمْ} {وَأَسْلِمُوْا لَهُ}(٣)؟.

(١) كذا في (ب) بالنصب، والصواب: خبر.. وإثبات.
(٢) في (ط): وأفعل واخطر.
(٣) يعني أن أمره لهم بالإيمان والإسلام أعظم الإذن.

(٤٩٧/١)

* واحتجوا أيضاً بقوله عزَّ وجل ذكره: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِيْنَ فَسَقُوْا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ} [يونس: ٣٣]، فصدق اللّه العظيم، لقد علم منهم أنهم لا يؤمنون، اختياراً منهم ومحبة للفسق، ولو أنهم كانوا عنده مطيعين - لا مستحقين(١) للفسق - ما سماهم به، وإنما حقت كلمته عليهم بعد فسقهم وصدهم عن أمره ونهيه، وبعد الكفر منهم؛ لا الابتداء(٢) منه لهم. ألا ترى إلى قوله: {حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِيْنَ فَسَقُوْا}، ولم يقل سبحانه: على الذين آمنوا(٣) ولا على المسلمين؟ وإنما معنى {حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِيْنَ فَسَقُوْا} أي وجب عليهم حكمه ووعيده، وقوله: {أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ} اختياراً منهم للكفر، ومحبة له، وأنه قد حكم عليهم بالفسق لمَّا فسقوا وخالفوا عن أمره ونهيه.

وأما قوله: {ادْخُلُوْا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} [البقرة: ٢٠٨]، يعني بكَافَّةٍ جميعاً، فإذا كان أمره للجميع؛ فكيف يدخل قوم في السلم قد أدخلهم فيه؟! وكيف يأمر قوماً بالدخول فيه وقد منعهم؟! هذا فعل (متعنت عتلّ)(٤) لا ينفذ له أمر في شيء مما يأمر به، ولا مما يريده، فتعالى اللّه عن ذلك أحكم الحاكمين.

(١) في (ب): بل مستحقين. والمعنى: لو علم ذلك منهم قبل فعلهم له ما سماهم به لمجرد ما سبق في علمه ولا حقت بذلك عليهم كلماته.
(٢) في ب: لا لابتداء.
(٣) في ب: على المؤمنين.
(٤) في ب: متلعب عبَّاث.

(٤٩٨/١)

* ثم احتجوا بقوله سبحانه: {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيْهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ}، وجهلوا ما قبل ذلك من قوله: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} [الجاثية: ٢٢] فصدق اللّه عزَّ وجل لم يضله حتى اتخذ إلهه هواه، وعبده(١) من دون الله، وعَلِمَ ذلك منه ومن فعله، فأضله اللّه بعد ما فعل، وبعد ما كان منه، ولعلمه أنه لا يؤمن ولا يدع ما هو عليه من الكفر. فهذا معنى علم الله به، لم يدخله العلم في شيء، ولم يَحُل بينه وبين شيء، وإنما هذا خبر بإضلاله له.

والإضلال من الله، إنما هو في إهماله وترك تسديده وتوفيقه للخير، ألا ترى كيف يقول سبحانه في موضع آخر: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ} [البقرة: ٦] ؟ وذلك(٢) لعلمه سبحانه أنَّه قد استحوذ عليهم إبليس، وأحبوا ما هم فيه من الكفر والضلال؛ حتى لم يتلفتوا(٣) إلى شيء مما يوعظون به، ولا تعمل فيهم الموعظة، ولا يتدبرون ما هم عليه من الكفر الذي قد دخل في قلوبهم، فسواء(٤) أنذرتهم أم لم تنذرهم؛ أو وعظتهم أم لم تعظهم (لا يؤمنون)، أي لا يصدقون بشيء مما تدعوهم إليه، ولا يخافون مما تخوفهم منه، قد أعمت(٥) حلاوة الكفر أبصارهم، وأصَمَّت أسماعهم، وختمت على قلوبهم حتى منعت حلاوة الموعظة أن تصل إليهم، أو تدخل في قلوبهم، أو يلتفتون إلى شيء مما يعظهم به محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) في ب: وعَبَدَ.
(٢) في ب: ولذلك وهو غلط.
(٣) في ب: لم يلتفتوا.
(٤) تصحفت في ب إلى: قسرا
(٥) في ب: أغشت.

(٤٩٩/١)

* واحتجوا أيضاً بقوله: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيْبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِيْ أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} [الحديد: ٢٢]، وتأولوا في ذلك بأقبح التأويل، ولم يتدبروا الآية فيصح لهم فساد تأويلهم، وزعموا أن المصيبة هي: الكفر وغيره من أعمال الإثم، وليس ذلك كذلك؛ لأن آخر الآية يدل على غير ما تأولوا وقالوا، وإنما أراد بقوله سبحانه؛ ما أصاب الناس في الأرض من مصيبة ولا أصابتكم في أنفسكم إلا وقد علم الله ذلك من قبل أن

يبرأ النفس وهو خلقها برؤها (١)، فعنى(٢): ما في الدنيا من الآفات التي تقع في الأموال والثمار، وغيرها من المصيبات التي يكثر شرحها، ولم يرد بذلك سبحانه الإيمان، والكفر والعصيان، ولو أراد سبحانه ما تأوله الجاهلون من الجبر على الإيمان والكفر، ما قال: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ}، وكيف يكون كافراً وفاسقاً من كان محسناً صابراً، ومبشراً بالخير؟ ألا ترى إلى تصديق ما قلنا في تمام الآية، حين يقول: {لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوْا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: ٢٣]؟، فصح عند كل فهمٍ أنَّه إنما أراد بهذا القول؛ محن الدنيا وبلواها، وفرحها وحزنها، وكثرة المال ونقصانه، وزكا ثماره(٣) ولو كان مراده عزَّ وجل بهذا القول الكفر والإيمان؛ لم يقل: لا تأسوا على الإيمان إن فاتكم ولا تسروا به إن نلتموه، ولا تفرحوا بفوات الكفر لكم، فأي سرور يسر العبد إذا لم يسره الإيمان؟ وأي فرح أعظم منه على العبد، وأحلى (٤) من فوات الكفر له، وتخلصه منه؟ والحجة في هذا تُفْسِدُ قول من قال بما ذكرناه[ومما يبين ما ذكرنا ويشهد له قوله سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوْعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ

(١) كذا في النسخ ولعل الصواب: وبرؤها هو: خلقها.
(٢) في ط: فمعنى.
(٣) أي نموها وزيادتها.
(٤) في ب: وأجل.

(٥٠٠/١)

وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ * الَّذِيْنَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُوْنَ}[البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] فقال سبحانه: {أصابتهم مصيبة} وإنما عنى بها ما ذكرناه] (١) ولم يقل(٢): الذين إذا أصابهم الإيمان والكفر فقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، فبهذا علمنا أن المعنى هو ما ذكرنا من محن الدنيا وآفاتها، ولو كان على ما تأوله الجاهلون ما سُمِّي مصيبة، ولا أمرهم بالصبر عليه للعلة التي شرحت لك. كيف يجوز أن يأمرهم بالصبر على الكفر ويبشرهم بالثواب؟! هذا أحول المحال.

* واحتجوا أيضاً بقوله: {إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩]، فصدق الله، لولا أنَّه يشاء لهم التعريف بالإيمان والكفر، ودلهم على ما عرفوه؛ فعرفهم به، وأرسل إليهم المرسلين وحضهم على اتباعهم؛ ما عرفوا الإيمان من الكفر، والرضى من السخط. ثم قال في ذلك: {يُرِيْدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوْبَ عَلَيْكُمْ} [النساء: ٢٦]، فهذه إرادة الله ومشيئته في خلقه، لا ما قال به الجاهلون.

(١) ما بين المعقوفين زيادة لاستقامة الكلام.
(٢) كذا.

(١/٢)

---

* ومما احتجوا به أيضاً: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ}[هود: ١٠٥]، فتأولوا ذلك على أحكم الحاكمين بأقبح التأويل، ولعمري لو نظروا ما في الآية من قبل هذا الكلام لأسفر لهم الأمر ولعرفوه، ألا ترى كيف يقول سبحانه: {يَوْمَ يَأْتِي لاَ تُكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ} [هود: ١٠٥]؟ يخبر عزَّ وجل ذكره أن ذلك الشقاء والسعادة إنما تكون في ذلك اليوم ـ يعني يوم القيامة ـ لا أيام الدنيا، ولعمري إن يوم القيامة؛ ليوم التغابن والحسرة والندامة، فمنهم ذلك اليوم شقي وسعيد، شقي قد شقي بعمله، وبما وقع عليه من حكم الله له بالعذاب، وسعيد قد سعد في ذلك اليوم بعمله، وبماحكم الله له به من الثواب. والشقي أشقى الأشقياء من شقي في ذلك اليوم، والسعيد أسعد السعداء من سعد في ذلك اليوم. وإنما أخبر الله سبحانه عن شقائهم وسعادتهم في ذلك اليوم لا في الدنيا، ألا ترى كيف يقول: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوْعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُوْدٌ} [هود: ١٠٣]؟ يعني يوم القيامة، ولو كان الأمر على ما ظنوا، لكانت المخاطبة عند أهل اللسان والمعرفة على غير هذا اللفظ، وكان اسم الشقاء والسعادة قد انتظمهم قبل ذلك اليوم، وكانوا مستغنين عن إرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، ولم يكن لله سبحانه عليهم حجة؛ إذ كان المشقي لبعض، والمسعد لبعض، والمدخل لأهل الشقاء في المعصية، ولأهل

السعادة في الطاعة. وهذا أقبح ما نسب إلى الله، وقيل به فيه. فنعوذ بالله من الضلالة والعمى، ونسأله الرشد والهدى.

(٢/٢)

---

* ومما يحتجون به أيضاً قول اللّه سبحانه: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ} [السجدة: ١٣]، يقول: بفعلهم وعملهم حق عليهم قولي، وثبتت عليهم حجتي، ووقع بهم العذاب؛ لأن قولي وحكمي بالعذاب قد سبق على من عصاني. ثم قال: {فَذُوْقُوْا بِمَا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيْنَاكُمْ وَذُوْقُوْا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ} [السجدة: ١٤]، فصدق اللّه عزَّ وجل، لو شاء أن يهديهم جميعاً من جهة الجبر لهم لفعله ولم يغلبه ذلك، ولكن لم يشأه سبحانه إلاَّ بالتخيير منهم والاختيار؛ لأنَّه لو جبرهم على ذلك، وأدخلهم فيه غصباً؛ كان المستوجب للثواب دونهم، ألا ترى إلى قوله في آخر الآية، متبرئاً من فعلهم: {وَذُوْقُوْا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ}؟ ولم يقل: بمشيئتي لكم. ولا: بقضائي عليكم. ولا: بإرادتي فيكم. ولا: بإدخالي لكم في القبيح من الفعل.
فافهم، وفقك اللّه ما شرحت لك.
والنسيان من اللّه؛ فهو: الترك لهم والإمهال، تقول العرب: نسيت الشيء ونسأته، أي تركته ولم أفعله.
* ومما يحتجون(١) به أيضاً قول اللّه سبحانه: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيْعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُوْنُوْا مُؤْمِنِيْنَ} [يونس: ٩٩]، فصدق اللّه، لو شاء ذلك لأمكنه أن يكرههم على الإيمان، إن شاؤا أو أبوا، ولم يكن ذلك بغالب له ولا ما هو أعظم منه؛ إذ كان ذلك معجزاً وغالباً لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يقدر على ذلك منهم، ولا يمكنه فيهم. فأخبر اللّه سبحانه أن ما لا يقدر عليه لو أراده هو من جهة الجبر والإكراه لأمكنه، ولكنه لم يرد إلاَّ من جهة التخيير منهم والاختيار والرغبة لما استوجبوا بذلك الفعل بثوابه وعقابه؟

---

(١) في ب: ومما احتجوا به.

(٣/٢)

فافهم ذلك وميِّزه إن شاء الله.
* ومما يحتجون به قول اللّه سبحانه: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء: ٧٨]، فصدق اللّه عزَّ وجل في قوله، غير أنهم لم يفهموا التأويل؛ لأنَّه يقول سبحانه: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران: ٧]، وليسوا من أولئك. وإنما أراد اللّه عزَّ وجل أن ينقض على الكفار قولهم؛ لأنَّه إنما كان الكفار إذا أصابهم مما يحبون (١) من جميع الخير، مثل الخصب، وزكاء الزرع، وكثرة النسل، ابتداءً لهم من اللّه بالإحسان والمن، وتوكيداً للحجة عليهم والإنعام؛ قالوا: هذا من عند اللّه وإذا أخذهم اللّه بشيء من فعلهم وخبث نياتهم وعظيم جرمهم وإكذابهم لمحمد صلى الله عليه وآله، ولما جاءهم به، وابتلاهم (الله)(٢) بنقص الخصب، وقلة المطر، والزرع، والنسل، قالوا: شؤم محمد ومن معه، فأخبر اللّه سبحانه أن هذه الزيادة والنقصان في جميع ما ذكرناه من الله، فقال: {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، ثم شرح ذلك فقال مبيناً للخير: {فَمَا لِهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ حَدِيْثاً مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٨ - ٧٩]، يقول: ثواب من الله سبحانه لكم على ما كان من الطاعة، وخزي وعقاب منه سبحانه لكم على ما كان من أنفسكم من المعصية، والعمل القبيح، وترك الإئتمار لأمره، فيقول: ما أصابكم من الزيادة فيه والصلاح، فمن نعم اللّه عليكم، وبفضله وإحسانه إليكم، وما أصابكم من نقصان ذلك وفساده فمن قبيح أعمالكم، وسوء نياتكم، وإصراركم على المعاصي، وإنما دخل عليكم من أنفسكم لمَّا فعلتم ما فعلتم؛ حتى وجبت الشنآة عليكم بذلك الفعل من اللّه سبحانه. وهذا تفسير ما جهلوا من ذلك.

---

(١) في ب: ما يحبون.
(٢) ليس في ب.

(٤/٢)

* ومما يحتجون به أيضاً، قول نوح عليه السلام لقومه عندما جادلهم في اللّه فأكثر، فقالوا: {يَا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ} [هود: ٣٢] فقال نوح عليه السلام: {إِنَّمَا يَأْتِيْكُمْ بِهِ اللّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللّهُ يُرِيْدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ} [هود: ٣٣ ـ ٣٤]، يقول لهم صلى الله عليه: إن جدالي ونصحي لا ينفعكم؛ إذا جاءكم عذاب ربكم ونزل بكم؛ لأنَّه لا يرد عذاب اللّه سبحانه إذا نزل بقوم، وهي سنته في الذين خلوا، لا يقبل توبتهم إذا نزل العذاب بهم، وكذلك إذا أراد اللّه أن يغويكم، فالإغواء من اللّه العذاب، فيقول: لا ينفعكم نصحي إذا نزل بكم إغواء اللّه وهو عذابه، كما قال عزَّ وجل في موضع آخر: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوْا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} [مريم: ٥٩]، ولم يرد نوح عليه السلام بالإغواء ما تأوله الجاهلون من الضلال (١) لهم، وإمدادهم بالغي، والتمادي والكفر(٢)، وإنما أراد بالإغواء العذاب النازل. ثم كذلك الإغواء في جميع ألسن العرب: لقيت غياً، أي عذاباً وتعباً (٣)، ولقي فلان غياً، كل هذا تحذير لهم لنزول العذاب بهم، وأنه لا تنفعهم نصيحة(٤) إذا نزل العذاب بهم، لم (٥) يصرف عنهم. كذلك قال اللّه سبحانه: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِيْ عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُوْنَ} [غافر: ٨٥].

(١) كذا في النسخ، ولعلها: الإضلال.
(٢) كذا ولعلها: في الكفر.
(٣) في ط: وبغياً.
(٤) في ب: لا ينفعهم نصحه.
(٥) كذا في النسخ.

(٥/٢)

وكثير مثل ما ذكرنا في القرآن مما احتجوا به، وتأولوه على غير ما أنزل اللّه، وفي فساد ما أفسدنا عليهم من تأويلهم فيما ذكرنا، واحتججنا عليهم به ما يغني عن كثير من حججهم، وقبيح تأويلهم، وباطل قولهم.

[القرآن يشهد لأهل العدل]

وقد قال اللّه سبحانه محتجاً على من نسب مثل ما نسبوا إليه في كثير من القرآن، وفي مواضع هي أكثر مما احتجوا به وتأولوه، فقال سبحانه: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذِيْ الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ} [النحل: ٩٠]. وقال عزَّ ذكره، مكذباً للمشركين ولمن قال بقولهم، ومحتجاً عليهم، ومخبراً بإفكهم وعوارهم: {وَإِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ أَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللّهِ مَالاَ تَعْلَمُوْنَ} [الأعراف: ٢٨].

ثم قال عزَّ ذكره: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُوْنَ} [التوبة: ١١٥]؛ ينفي عن نفسه عزَّ وجل ما أسندوا إليه من خلقهم شقياً وسعيداً، ومن أن يضلهم بعد أن كان منه من الابتداء لهم بالإحسان والدعاء، والدلالة على الهدى، وعلى ما يحب، وعلى ما يكره، وما يحذرون، وما يتقون، فإذا تبين لهم ذلك فصدوا عنه؛ حقت عليهم كلمة الضلالة، وحاق بهم الإضلال من اللّه بذنوبهم، ودنيء فعلهم.

(٦/٢)

ثم نسب من نسب إليه هذا القول، وقال به عليه إلى قول الذين أشركوا: {سَيَقُوْلُ الَّذِيْنَ أَشْرَكُوْا لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوْا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوْهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُوْنَ قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ} [الأنعام: ١٤٨ ـ ١٤٩]، يقول: مثل هذا القول قاله الذين من قبل هؤلاء، حتى نزل بهم بأسنا وذاقوه، وذلك أنهم كانوا يعملون الخبائث والمعاصي؛ فإذا نُهوا عنها وقال لهم أنبياؤهم ومن يتبع الأنبياء: لا تفعلوا، ولا تعصوا ربكم، قالوا: لو شاء اللّه ما أشركنا، ولكنه أدخلنا في المعصية وقضاها علينا، فأخبر اللّه عزَّ وجل أن ذلك ليس كذلك، وأنهم كانوا في ضلال وتكذيب لمن يقول لهم: إن اللّه لم يأمرهم، ولم يقض عليهم بالمعصية حتى ذاقوا بأسه وهو عذابه، وتبرأ من ذلك، وعلم أنَّه لو كان شاء لهم الإشراك ما نزل بهم بأسه. ثم قال محتجاً

عليهم: {هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوْهُ لَنَا} يقول: من علم عن الله فتبينوه لنا أن هذا الفعل والقول والمشيئة من عند الله. ثم قال مكذباً لهم أيضاً: {إِنْ تَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُوْنَ}، يقول: إن يتبعون إلاَّ أهواءهم بما يظنون، وإن هم إلاَّ يخرصون أي يكذبون في قولهم(١) على أنَّه شاء لهم ومنهم الكفر، وأنه لو شاء ما أشركنا، ولكنه أدخلنا فيه، ومنعنا من الدخول في الطاعة، ثم قال: {فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ} [الأنعام: ١٤٩]، يقول: فلله الحجة بما قدمه إليهم، ودعاهم إليه، وأنذرهم به على ألسن رسله صلوات الله عليهم، ثم

---

(١) في ب: قلوبهم، وهو تصحيف.

(٧/٢)

قال: {فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ} يعني يجبركم جميعاً على الهدى، ولكنه لم يشأ ذلك إلا بالتخيير منكم والاختيار له، وكذلك(١) أرسل إليكم الرسل، وأمركم بطاعتهم، وحذركم معصيتهم، ولو شاء لكم الإيمان بالجبر منه والإكراه والمنع لكم ما احتاج إلى أن يرسل إليكم رسله، ولا يدعوكم إلى طاعته؛ لأنَّه إذا أجبركم على ما يريد، ولم يمكنكم، ولم يفوضكم، ولم يجعل لكم إرادة، ولا قوة ولا استطاعة فهو الذي يجبركم على ما يريد، ولا خيار لكم، ولا حاجة له ولا لكم إلى الرسل، ولا إلى الدعاة(٢)؛ لأنه قد أشركم فيما يريد من خير وشر، ومن كانت هذه حاله فإنه لا يملك(٣) لنفسه ضراً ولا نفعاً؛ غير ملوم في عمل الشر، ولا محمود في عمل البر، ولا حجة عليه، فإن عُذِّبَ على قبيح فقد ظُلِم، وإن أثيب فلم يستأهل ثواباً على جليل الطاعة، وليست هذه الصفة من صفة الحكماء، ألا ترى إلى قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ مَا أُرِيْدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيْدُ أَنْ يُطْعِمُوْنِ} [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]، فأخبر سبحانه أنَّه لم يخلقهم إلاَّ لعبادته، ولم يخلقهم لمعصيته، ولم يُشقِ ولم يسعد، ولم يجبر ولم يَطبَع أحداً على شيء من هذا، ولم يُسَمِّ مؤمناً ولا كافراً إلاَّ بإيمانه وكفره، وفعله، لا بخلقه عزَّ وجل؛ لأنَّه ليس بظلام للعبيد، ولو طبعهم على شيء من هذا كان المُحْسِنُ غيرَ مُحْسِنٍ، والمسيء غير مسيء؛ لأن كل من فُعِلَ به شيء وأدخل فيه غصباً؛ كان غير محمود عليه ولا مذموم فيه، وكان المحسن ليس بأحق باسم الإحسان من المسيء، ولا المسيء بأحق باسم السواية(٤) من المحسن، والتبس الأمر فيما بينهما، وأمكن لكل أن يدعي ما أحب، لو قال المسيء: أنا محسن؛ لأمكنه ذلك، ولما عُرف المسيء من المحسن على

---

(١) كذا في النسخ ولعلها: ولذلك.
(٢) في ب: إلى الدعاء.
(٣) في ب: فإنما هو لا يملك
(٤) في ط: السوء به.

(٨/٢)

قولهم وقياسهم.
ثم قال سبحانه: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ} [النساء: ١٢٣]، يقول: يعمل، ولم يقل: عملت به، وقضيت عليه، وإنما كان أهل الكتاب - يعني اليهود وغيرهم من أهل الكتاب - يقولون: ليس يعذبنا الله، نعمل ما شئنا، نحن أبناء الله وأحباؤه، فأكذبهم الله، وأعلمهم وغيرهم أنَّه لا يظلم أحداً، وأنه من عمل شيئاً جزي به.
* ثم قال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ بَدَّلُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩]، يقول: بدلوا ما أنعم الله به عليهم(١) من إرسال الرسل، والدعاء والدلالة على الخير كفراً بذلك، أي جحدوا به، ودعوا الناس إلى المعصية والكفر به وأحلوهم(٢).
ثم قال مخبراً لهم محتجاً عليهم: {وَلاَ تَقْرَبُوْا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأنعام: ١٥١]، والله أعدل وأحكم من أن ينهى عن شيء وهو منه، أو ينهى عبداً عن شيء قد أراده، أو عن شيء لا يقدر على عمله، أو على(٣) الخروج منه، أو يأمرهم بشيء لا يمكنهم الدخول فيه، ولم يكلف الله عباده إلاَّ ما يقدرون عليه ويطيقونه، برحمته ورأفته وفضله، وكل ما نهى الله عنه فليس منه ولم يشأه، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجل:

{وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوْا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧]؟ معنى الكفر هاهنا: الجحود له ولنعمه، وفضله عليهم الذي ابتدأهم به، وإن يشكروا، أي يطيعوا فيعملوا بطاعته؛ يرضى(٤) ذلك الفعل منهم ويثيبهم عليه.

(١) في ب: نعمة الله من إرسال.
(٢) كذا في النسخ.
(٣) في ب: ولا على
(٤) كذا، والصواب: يرض، بحذف حرف العلة؛ لأنه مجزوم.

(٩/٢)

ثم قال أيضاً: {فَأَمَّا ثَمُوْدُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوْا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧]، يخبر عزَّ ذكره ويبين أن الذنوب من العباد بالاختيار والاستحباب منهم، وأنه قد هداهم فاستحبوا الكفر وآثروه على ما فعل بهم من الهدى، ثم قال: {وَالَّذِيْ قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: ٣] أي ابتدأ الخلق بما ذكرنا من الدلالة لهم على الخير والهدى.
ثم قال عزَّ وجل لنبيه عليه السلام متبرئاً من الضلالة، مسنداً لها إليهم: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوْحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيْعٌ قَرِيْبٌ} [سبأ: ٥٠] معنى ذلك: إن ضللت فإنما أضل من نفسي، (على) تقوم مقام (من)؛ لأن حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً، وهذا كثير في أشعار العرب، قال الشاعر:
شربن بماء البحر ثم ترفعت...لدى لجج خضر لهن نئيج(١)
يريد: من لجج، فجعل مكانها (لدى)، وكذلك حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً. أفترى محمداً يضل من نفسه ويهتدي من الله، وهذا الخلق يضلون من عند الله؟ معاذ الله، كيف ننسب هذا الفعل القبيح والاسم إلى الله والظلم، ونبرئ منه أنفسنا، والله عزَّ وجل يقول: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠]؟!

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي وفي بعض النسخ بدل (لدى): (متى)، وهو في وصف السحاب، والنئيج: الصوت العالي.

(١٠/٢)

ثم قال عزَّ وجل: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف: ٢٨]. وقال: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣] ولم يقل: وقضى ربك أن تكفروا به وتعبدوا سواه؛ من الحجارة والنار وغيرهما من المعبودات، فكان أمره وقضاؤه ومشيئته أن لا يعبدوا غيره بالتخيير من العباد، لا من جهة الجبر لهم على تركها، فقال(١): {وَلاَ تَقْتُلُوْا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيْراً}[الإسراء: ٣١]، ثم قال أيضاً: {وَلاَ تَقْرَبُوْا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيْلاً} [الإسراء: ٣٢]، ثم قال: عزَّ وجل: {وَلاَ تَقْتُلُوْا النَّفْسَ الَّتِيْ حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [الأنعام: ١٥١، الإسراء: ٣٣]، {وَلاَ تَقْرَبُوْا مَالَ الْيَتِيْمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الأنعام: ١٥٢ - الإسراء: ٣٤]، ثم قال: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُوْلاً} [الإسراء: ٣٦]، ثم قال: {وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوْماً مَدْحُوْراً} [الإسراء: ٣٩]، أفترى الله سبحانه قضى أن يجعل معه إلهاً آخر، ورضي ذلك أو أراده، أو شيئاً مما ذكرنا من قتل المشركين أولادهم، ثم عظم ذلك، وذم عليه فاعله أشد الذم؟ ورضي بالزنا، ثم قال: {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيْلاً}؟ وبقتل النفس بغير حق، أو بأكل مال اليتيم، أو الكذب، ثم قال: {كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُوْلاً}؟، فإن كان قضاه سبحانه، فكيف يسألهم عن شيء هو فعله بهم؟! وإن كان منهم فالسؤال لازم لهم، والحجة عليهم، وإن كان منه، فكيف يسألهم عن فعله؟!. هو سبحانه أعلم بما يفعل بهم منهم بأنفسهم.

(١) كذا في النسخ والصواب: وقال.

(١١/٢)

انظر إلى تبيان ذلك كيف يقول: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً} [الكهف: ٤ ـ ٦]، أفترى اللّه سبحانه وتقدست أسماؤه، قضى وأمر وشاء وأراد أن يقول الجاهلون: إنّه اتخذ ولداً، ثم قال: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}؟ فكيف تكون كبيرة وهي قضاؤه وأمره؟! ثم قال: {إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً} فكيف يقضي عليهم سبحانه بالكذب أو يكذب نفسه، تعالى عن إكذاب نفسه، وظلم عباده، فهو يتبرأ منه وينسبه إلى عباده. ثم قال لنبيه عليه السلام عندما عظم إشراكهم عنده: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} إن لم يؤمنوا، فلا تفعل بنفسك ذلك، فإنا قادرون على جبرهم وقسرهم على الإيمان.

(١٢/٢)

ثم قال: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩]، فقال مفوضاً إليهم: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} أفتراه قال هذا القول وقد منع الكافرين (١) من الدخول في الإيمان، وحال بين الفريقين وبين المشيئة والاختيار لأنفسهم، ثم قال ساخراً منهم مستهزئاً بهم: {فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}؟ معاذ الله، ما كان ربي بظلام للعبيد، لكن مكنهم وأعطاهم من القوة والاستطاعة ما مكنهم به من الإيمان والكفر، ورغبهم وحذرهم، ومكنهم وفوضهم، ثم قال حينئذ: من شاء الكفر فقد جعلت السبيل إليه، ومن شاء الإيمان فقد جعلت له الطريق إليه، ثم أعلمهم أن الكفر ظلم لأنفسهم، وأنه قد أعد للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها؛ زيادة لهم في الوعيد على معاصيه.
ثم قال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} [الكهف: ٣٠] فأخبر أنّه لا يضيع أجرهم إذا عملوا حسناً، ترغيباً منه لهم بالوعد على طاعته وترك معصيته، ولو كان قضاه عليهم ما قال عملوا؛ لأنهم مجبرون على ذلك الحسن، ومن جبر على شيء فغير محمود فيه، ولو كان ذلك كذلك لم يقل: {إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} كيف يكونون أحسنوا عملاً وهو المحسن بهم(٢) والحاتم عليهم، ثم ما أقبح ما أسند أهل هذا القول إلى اللّه سبحانه.

(١) في (ط): الكافرون. وما أثبته من هامش ط عن الأصل. وفي (ب): الكافر من.
(٢) في ط: لهم.

(١٣/٢)

ثم قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [النور: ٢١]، فأخبر سبحانه أن الفحشاء والمنكر من الشيطان، وتبرأ منهما ونسبهما إلى غيره، ووعد من اتبعه العذاب. فالله يبرئ نفسه من كل ظلم وفحشاء ومنكر وباطل وإضلال، والجاهلون يلزمونه ذلك.
وقال: {أَفَرَأَيتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيهِ وَكِيلاً}[الفرقان:٤٣]، كل هذا يخبر عنهم بالقدرة على المعصية والفعل لها، وأن ذلك ليس منه ولا أراده، لأنّه أكرم من أن ينهى عن شيء وهو يريده، أو يأمر بشيء وهو يريد غيره، أو يحمل العباد عليه، وكل ما نهى اللّه عنه فليس منه، وكيف يكون منه ما نهى عنه؟! هذا صفة اللعابين، تعالى اللّه عنها علواً كبيراً.
وقال مخبراً ومخيراً: {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل: ٨٩ ـ ٩٠] فأخبر سبحانه أنّه يجزيهم بفعلهم في الحسنة والسيئة لا بفعله بهم وقضائه عليهم، وأن ذلك منهم وفيهم، ألا ترى كيف يقول: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}؟ أي لم يظلمكم، ولم يجزكم إلاّ بعملكم لا بغيره توفيقاً منه لهم، وتبرياً من الظلم إليهم، فلو كان قضى ذلك عليهم لما كانت عليهم حجة، ولا تبرأ سبحانه من فعله ونسبه إليهم؛ إذ كان ذلك أكبر الظلم لهم، تبرأ اللّه عن ذلك ولم ينزهوه عنه، فقد ظلموا أنفسهم.
ثم قال أيضاً: {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيرٌ مِنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [القصص: ٨٤]، وهذا أيضاً القول فيه كالقول في الذي قبله.

(١٤/٢)

ثم قال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [العنكبوت: ٤]، يقول: أم حسب الذين يعملون المعاصي أنهم يغلبون ويسبقون إلى العمل بها، ولو شئنا ما سبقونا إليها، ولا فاتونا (١) بها، فكل هذا يُعْلَم أنَّه بريء من أفعال العباد، وأنها منهم بغير أمر له، إلاَّ بما فوض إليهم، ومكنهم وخيَّرهم.
ثم قال لا شريك له: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ} [العنكبوت: ٦]، وقال: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} [الروم: ٤٤]، فانظر كيف تبرأ في جميع الحالات من أعمال العباد، يخبر أنها منهم لا منه، وأنه يجزيهم بفعلهم وعملهم، لا بقضائه ولا بفعله، ولا شيء كان منه مُدْخِلاً لهم في شيء من هذه الأعمال.
وقال في قصة لقمان صلى الله عليه: {إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]، أفترى اللّه سبحانه استعظم الشرك وهو منه، وقد قضاه وقدره وحتم به على فاعليه(٢)، واستعظمه منهم وهو قضاه عليهم، وحتمه في رقابهم وأدخلهم فيه؟ يا سبحان الله!! ما أقبح هذا من القول والصفة في بني آدم، فكيف في الحكم العدل؟!

(١) في هامش ط: غير واضحة الدلالة في الأصل، وأثبت: غلبونا.
(٢) في ب: فاعله.

(١٥/٢)

وقال: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} [المدثر: ٣٧]، أفتراه لم يجعل فيهم مقدرة على التقدم ولا على التأخر وهو يقول: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}؟ ثم قال: {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[محمد: ٣١]، وقال: {لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[يونس: ١٤]، فلو كان الأمر على ما يقول الجاهلون ما كان إليهم تقدم ولا تأخر، ولا احتاجوا إلى بلوى، ولا لينظر عملهم، فكان بكل ما يدخلهم فيه عالماً أنَّهم لا يقدرون على غيره، وأي مشيئة لهم حين يقول: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}. وكيف لهم بالتقدم والتأخر وقد منعهم من ذلك، وحال - بقضائه وحكمه عليهم - بينهم وبين ما أمرهم به من التقدم والتأخر؟ ومعنى: (ننظر)، أي نحكم عليكم بما يكون من خبركم(١)، وكتاب اللّه كله على ما ذكرت من ثواب اللّه لعباده وعقابه لهم، كل بما كانوا يعملون، وبما كانوا يكسبون، وبما كانوا يجحدون، وبما كانوا يصنعون، لم يقل عزَّ وجل في شيء منه: بقضاي عليكم، ولا بمشيئتي، ولا بإرادتي، ولا بقدرتي فيكم، ولا بإدخالي لكم في الطاعة، ولا بإخراجي لكم من المعصية. كل هذا بيَّن أن ثوابه وعقابه على عملهم. والكتاب كما قلنا يُصَدِّقُ بعضه بعضاً، ليس من كتاب اللّه شيء ينقض شيئاً؛ لأنَّه من حكيم عليم، ولو لا ذلك لكان فيه الاختلاف، كما قال سبحانه: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}[النساء: ٨٢].

(١) في ب: ثم نخبركم.

(١٦/٢)

ثم قال: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[الشمس: ١٠ - ١١]، فكيف يقضي بالفواحش، ثم يقول: {قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}؟! أفتراه خيَّب نفسه؟! تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ثم قالوا: {رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِيْ النَّارِ} [ص: ٦١]، تعالى عن أن يقول مثل هذا لنفسه، ولكن قدَّمه شياطين الإنس والجن، ألا ترى إلى قوله: {رَبَّنَا إِنَّا أَطعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ} [الأحزاب: ٦٧]، اعترافاً منهم بذنوبهم، وأن عملهم وما نزل بهم من العقوبة كان بطاعتهم لسادتهم وكبرائهم، ولم يقولوا - وقد احتاجوا إلى الحجة لعظم(١) ما نزل بهم -: ربنا أطعناك، واتبعنا قضائك وأمرك وما قدرت لنا، ولو كان ذلك ما تركوا قوله، لما لهم فيه من الحجة على اللّه سبحانه. والسبيل فهو سبيل القصد والخير، ألا ترى كيف يقول: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان: ٣] ؟ يقول: دللناه على سبيل الخير، فإن شكر فذلك واجب عليه، ولنفسه يعمل ويمهد، وإن كفر بما قلنا به فذلك راجع ضرره عليه، وإن اللّه غني حميد عن شكره، وإنما ثواب شكره راجع عليه ونافع له.
وقال سبحانه: {رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ}[فصلت:

٢٩]، أفترى اللّه سبحانه أراد بهذا القول نفسه، إن(٢) كان في قولهم هو المضل لعباده؟ سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. ما أفحش ما يسندون إلى الله!!.

(١) في ب: لعظيم.
(٢) كذا في النسخ والصواب: إذ.

(١٧/٢)

ألا ترى إلى ما يقول آدم عليه السلام عند ما كان منه: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ} [الأعراف: ٢٣]، أفترى آدم عليه السلام استغفر ربه من قضائه عليه، وقدره وحتمه لمعصيته عليه؟ أم من ذنب عمله هو من نفسه والله بريء منه؟ أو ترى اللّه نهاه عن أكل الشجرة، وقد قضى عليه أكلها وحتمه في رقبته، ولو كان ذلك كذلك ما أقر عليه السلام على نفسه بالخطيئة، ولقال: هذا قضاؤك عليّ ومشيئتك، وإنما أخطأت وأكلت من الشجرة، ولو لا قضاؤك ومشيئتك ما قَدَرْتُ على أكلها، فلعلمه بالله أقر صلى الله عليه أن الخطيئة كانت منه، وبرَّأ ربه منها، تعالى اللّه عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.
وكذلك(١) قال موسى عليه السلام لما وكز الرجل فقضى عليه، فقال موسى عند ذلك: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِيْنٌ}[القصص: ١٥]، ولم يقل: هذا من قضاء اللّه عليّ، ولا من تقديره فيّ، ولا من إضلاله لي، فبرأه(٢) سبحانه من ذلك ونسبه إلى الشيطان وإلى نفسه، فقال: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي}[القصص: ١٦].
فهذا قول أنبياء الله، يلزمون الخطايا أنفسهم، ويبرؤن من ذلك خالقهم، والجهال يبرؤن أنفسهم من ذلك، ويلزمون الذنوب خالقهم.
وانظر إلى قول اللّه سبحانه: {حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقِين فَبِئْسَ الْقَرِيْنُ}[الزخرف: ٣٨] أفترى اللّه سبحانه يعني نفسه بذلك، أم يعني مجترم الذنب؟ تعالى اللّه من أن يضل أحداً، أو يكون له أحد قريناً.

(١) في ب: كذلك.
(٢) الضمير لموسى عليه السلام، يعني برأ ربه سبحانه.

(١٨/٢)

ثم أخبر عن كفرهم وقولهم الكذب على الله، وأنه غير راض بذلك، فقال: {أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُوْلُوْنَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[الصافات: ١٥٢ ـ ١٥٣]، أفترى اللّه أمرهم بالكذب عليه وقضاه عليهم، ثم تبرأ من شيء هو فعله ورمى به غيره سبحانه. ألا ترى كيف يقول عزَّ وجل: {ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً}[النساء: ١١٢]، أفتَرَى اللّه عزَّ وجل بهتهم بما لم يفعلوا، وظلمهم بما لم يعملوا، ووصف نفسه باحتمال البهتان والإثم المبين؟ كذب من قال على اللّه بهذا القول.
وقال تقدست أسماؤه: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الزمر: ٤١]، فبين لهم أنَّه بريء(١) من فعلهم، وأنه إنما يجزيهم بما يكون فيهم، بعد التبيين لهم والترغيب والتحذير، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ}[الأنفال: ٤٢] أي من أهلك نفسه بالمعصية بعد ما عرفها فهو الهالك المُهْلك لها؛ لأنَّه مدخل لنفسه فيها، ومن أحياها بالطاعة فقد عرف طريق الطاعة بما قلناه من تعريف اللّه لهم الطريقين، وهدايته لهم النجدين، لكيلا يكون لأحد على اللّه حجة(٢).

(١) في ب: أنَّه ناءٍ، يعني: بعيد.
(٢) في ب: بعد الرسل.

(١٩/٢)

ثم قال عزَّ وجل: {لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى}[طه: ٦١]، أفتراه يعني نفسه بهذا السحت؟! (١) ثم قال: {وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ}[النساء: ١٧١]، أفترى الله نهاهم عن قبيح اللفظ به وهو أمرهم به؟ وكره منهم أن يقولوا: {ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ}[المائدة: ٧٣] وهو قضاه عليهم، وشاءه منهم، وأراده لهم؟! جلَّ الله عن هذه الصفة المشبهة لصفات اللعابين والمتلعبين.
وقال أيضاً لنبيه عليه السلام: {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}[التحريم: ١] ؟ أفترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حرم ما أمر الله بتحريمه، وقدره عليه وقضاه له؛ ثم يستخبره(٢) عن ذلك التحريم فينهاه عنه، ويعاتبه فيه ويعيبه عليه؛ وهو الذي أدخله فيه وقضاه عليه؟! معاذ الله أن يكون هذا أبداً، لكن هذا التحريم كان من فعل محمد لا من فعل الله. ألا ترى إلى أمر الله سبحانه له بترك ما لم يرضه من فعله في ذلك، وَأَمَره أن يرجع إلى ما أحلَّ له ويكفر يمينه؛ فقال: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}[التحريم: ٢] .

(١) من معانيه: العذاب والهلاك والاستئصال.
(٢) في ط: في الأصل: نستخبره.

(٢٠/٢)

ثم قال سبحانه: {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} [ق: ٢٣ - ٢٦]. ثم قال سبحانه: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ}[ق: ٢٧ - ٢٩]، وقال: {الَّذِيْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ}، أفترى الله سبحانه الذي أضله، وأمره أن يجعل معه إلهاً آخر، ثم يقول ألقياه يعني: الضال والمضل، أفتراه أراد بهذا نفسه؛ إذ كان في قولهم أنَّه المضل لهم، والمدخل لهم فيما دخلوا فيه من خير وشر، فكيف وقد تبرأ في آخر الآية فقال: {لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}؟ ولم يقل سبحانه: لا تخاصموني ولا تحتجوا عليَّ؛ لأنهم لم ينسبوا إليه شيئاً من الظلم، ولا من الإضلال(١) لهم، ولا من إدخالهم في شيء مما نهاهم عنه، وإنما نسب ذلك بعضهم إلى بعض، ولو نسبوا(٢) إليه كانت الخصومة معه لا مع غيره، وكانت الحجة لهم والقول عليه، ألا ترى إلى قول المذنب الذي جعل مع الله إلهاً آخر كيف يلزم الذنب غير ربه؟ وكيف لم يقل: أمرني ربي أن أجعل معه إلهاً غيره؟ ثم قال: {كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ} أفترى أن هذه الصفات(٣) كلها القبيحة وصف الله بها نفسه؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) في ط: الضلال.
(٢) كذا في النسخ ولعلها: ولو نسبوه.
(٣) في ب: الصفة.

(٢١/٢)

ثم قال سبحانه: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ} [الأنعام: ١٣٧]، أفترى الله سبحانه أراد بذكر الشركاء غيره من المغوين، أم أراد نفسه بهذا التزيين؟ فإن كان شركاؤهم هم غيره، فقد برأ نفسه سبحانه أن يضل ويزين شيئاً من المعاصي لأهلها، وإن كان هو الشركاء فقد عنى إذاً نفسه بهذا القول، وهذا غير معروف في اللغة؛ يذكر غيره ويخاطبه وهو يريد بالذكر نفسه، هذا محال في القول لا يقبله العقل.
وانظر إلى قوله فيما يحكيه عن الهدهد، فقال: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُوْنَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ}[النمل: ٢٤] ولم يقل زين الله لهم السجود للشمس، ولا أنَّه صدهم عن السبيل.

(٢٢/٢)

وكل(١) نبي أو غيره ممن عقل أو أنصف يبرئ اللّه سبحانه من الذنوب ويستغفره منها، ويسند الخطأ بها إلى نفسه. ألا ترى إلى قوله سبحانه لموسى صلى اللّه عليه: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى}[النازعات: ١٧ - ٢٦] أفترى اللّه تبارك وتعالى الذي أضل فرعون، وأدبره عن الطاعة، ومنعه أن يتزكى، وأمره بالتكذيب والعصيان، وأن يدعي أنَّه اللّه الأعلى، وقد فطره اللّه على ذلك، وحمله عليه، ثم أرسل إليه موسى صلوات اللّه عليه يدعوه إلى أن يهتدي ويتزكى؛ وقد منعه منهما، وفطره على غيرهما، وحال بينه وبين العمل بهما، ثم يرسل إليه من أرسل، وأنزل به العذاب عندما كان من سعيه في طاعة اللّه وأمره؟ هذا أكبر الظلم، وأقبح الصفة في المخلوقين، تعالى اللّه عما أسند إليه الجاهلون من هذه المقالة الفاسدة الضالة. ألا ترى إلى قول اللّه سبحانه: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}[طه: ٧٩] ينسب الضلالة إلى فرعون والإضلال، ويبرئ منها نفسه.

وانظر أيضاً إلى قوله عزَّ وجل: {اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ}[البقرة: ١٧٥] يقول سبحانه: استحبوا(٢) الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، مُمَثِّلاً في ذلك بالبيع والشراء؛ لأنَّه في كلام العرب هذا المثل.

(١) في ب: فكل.
(٢) في ب: استوجبوا ولعله تصحيف.

(٢٣/٢)

وانظر أيضاً إلى قوله في ابن آدم: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[المائدة: ٣٠] ولم يقل سبحانه: قدَّرته، ولا قضيته عليه، ولا أمرته، ولا رضيته منه، بل برأ نفسه من فعله، وألزم المعصية أهلها وفاعلها، ألا ترى إلى قوله: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} أخبر أن ذلك الفعل من نفسه لا من غيرها.

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى يحكي عن نوح صلى الله عليه: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}[هود: ٤٥] أفتراه قضى هذا القول على نوح ثم عابه عليه، وعنفه فيه، فقال: {إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[هود: ٤٦]؟ وانظر إلى تبرئة نوح عليه السلام لخالقه من ذلك، وإلزامه الذنب نفسه، فقال عليه السلام: {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}[هود: ٤٧]، فأخبر أن هذه المسألة منه فاستغفر منها، ولم يقل: إنَّه قضاؤك وقدرك عليّ، ولو كان قضاء اللّه عليه ما استغفر منها، كيف يستغفر اللّه من فعله؟! إنما يتوب العباد إلى اللّه ويستغفرونه من أفعالهم لا من فعله، كذلك كل فاعل قبيح يتوب منه، ويستغفر ربه من فعله، ولا(١) يستغفر ربه من فعل غيره، ولا يُلْزِم اللّه من فعل غيره شيئاً.

(١) في ب: لا يستغفر.

(٢٤/٢)

وانظر إلى قوله عزَّ وجل لنبيه عليه السلام: {وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً}[النساء: ١٠٥]. أفترى(١) اللّه سبحانه نهى نبيه عليه السلام عن شيء هو يريده، وقد قضى عليه فعله، وأمر نبيه بترك شيء لا يقدر على تركه؟ لو كان ذلك كذلك ما نهاه عنه، لعلمه أنه لا يقدر على تركه. وكثير في كتاب اللّه عزَّ وجل مما نهى عنه أنبياءه وعابه عليهم، وعاتبهم عليه، أفترى اللّه سبحانه عاب ذلك عليهم، وكرهه من أفعالهم وهم لا يجدون إلى الخروج منه سبيلاً؟ أو عاتبهم عليه وهو يعلم(٢) أنهم يطيقون رفضه والخروج منه، فكذلك(٣) عاتبهم عليه، وذمه من أفعالهم.

وانظر إلى ما يقول لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: {وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ}[الشعراء: ٢١٣]، أفتراه نهاه عن شيء يقدر عليه، أو عَمَّا لا يقدر عليه؟ فإن كان نهاه عن شيء يقدر على تركه، فالحجة لله سبحانه قائمة على خلقه، وإن كان نهاه عن شيء لا يقدر عليه، فليس لله على

خلقه حجة؛ إذ كانت حاله كحالة من يُدْعَى إلى ما لا يطيق، وكُلِّف ما لا يقدر عليه(٤) وعُذّب بذلك مظلوماً، وكيف يكون ذلك كذلك، والله سبحانه يقول: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}[النساء: ٢٩]؟ فأين الرحمة ممن كلفهم ما لا يطيقون، وافترض عليهم ما لا يقدرون على تأديته، لمنعه لهم منه، وحجزه إياهم عنه؟ كذب من قال على اللّه بهذا القول، وخاب(٥) في الدنيا والآخرة.

(١) في ب: فترى.
(٢) في الأصل فوقها كلمة: عالم، وهي في ب.
(٣) كذا.
(٤) في ب: ما لا يطيق عليه.
(٥) في ب: وخاف، ولعله تصحيف.

(٢٥/٢)

ألا ترى كيف يخبر عن تمكينه لعباده وتخييره لهم، وعن تَخَيُّره لهم، وعن الاستطاعة والقدرة التي مكنهم بها من العمل للطاعة والمعصية؟ فقال: {وَلَو أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقوا لكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيْمِ}[المائدة: ٦٥]. ثم قال: {وَلَو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّورَاةَ وَالإنْجِيْلَ وَمَا أُنْزِلَ إليهمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ}[المائدة: ٦٦]. ثم قال: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[الأعراف: ٦٩].
فانظر إلى قوله: {وَلَو أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ}، {وَلَو أَنَّ أَهْلَ القُرَى}، {وَلَو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيْلَ}، {وَلَو أَنَّهُمْ فَعَلُوا}. وهذا في القرآن كثير يدل عند أهل اللغة والمعرفة والنصفة(١) على أنهم مُمكَّنون مفوضون قادرون على ما أمروا به من العمل به، والترك لما نهوا عنه، وكثير مما في كتاب اللّه عزّ وجل يشهد لنا بما قلنا، كرهنا بذكره التطويل عليك.
فميز يا بني علمك اللّه ما قد شرحت لك من هذا القول، وتدبر ما حكيت لك من قول الكذابين على اللّه يَبِنْ لك الصدق، وتعلم الحق؛ لأنَّه واضح مبين، لا يخفى على أهل المعرفة والعقل؛ لأن العقل أكبر حجج اللّه سبحانه على عباده، ولذلك لم يخاطب إلاّ ذوي الألباب والعقول، وإياهم قصد بالأمر والفرض والنهي، وأسقط جميع ذلك عن المجانين والصبيان الذين لا عقول لهم. فسبحان البر الرحيم بعباده المتفضل عليهم بالإحسان، الدال لهم على الإيمان، المبتدي لهم بالنعمة قبل استحقاقها، المعافي لهم من النِّقم بعد وجوبها.

(١) أي العدل والإنصاف.

(٢٦/٢)

واعلم يا بني أن جميع من قص اللّه عليك(١) نبأه في كتابه من المخاطبين الأنبياء عليهم السلام فمن دونهم مقرون بالذنوب، معترفون بها، مستغفرون اللّه سبحانه من جميع ذلك، وفي أقل مما ذكرت أكثر الحجج، وأبلغ الكلام، وأجمل الموعظة، وأحسن الهداية عند من عقل وأنصف.

[العقل يشهد لأهل العدل]

ومن أكبر الحجج عليه ما يصح ويثبت عند أهل النُّهَى أنهم زعموا أن جميع ما في الأرض من خير أو شر، اللّه قضاه وأراده، وشاءه وقدره، وفي الأرض من يقول: إن اللّه ثالث ثلاثة، وإن له سبحانه ولداً وصاحبة، ومنهم من يقول: إنَّه لا رب ولا خالق، وإن الأشياء لم تزل كذا ليل ونهار، وشمس وقمر، وسماء وأرض، ومطر وصحو، وموت وحياة، ومن ينكح أمَّه، وابنته، وأخته، وعمته وكل ذي رحم مُحَرَّم عليه، ويأتي كل قبيح من الفعل رديء، ويغشى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقول: أن ذلك من ا لله، ومن قضائه وإرادته ومشيئته، وأن كل عامل عمل منه شيئاً فبأمر اللّه ورضاه وإرادته.

(١) في ب: قضى اللّه عليه. ولعله تصحيف.

(٢٧/٢)

فيا سبحان الله!! ما أعجب هذا من قول وأشنعه، وأحمق من زعم أن أحداً مَّا يعمل شيئاً مما ذكرنا للّه عاص، وما أجهل من ذكر المعصية، كيف تكون المعصية(١) عندهم، ومن صلى ومن زنا كلاهما مطيع لله؟! قضى لهذا بالصلاة، وقضى على هذا بالزنا، فكل من عمل شيئاً من الأشياء حسناً كان أو قبيحاً، وإيمانا أو كفراً، أو غيرهما من الأشياء كلها، ففاعل ذلك الشيء مؤد لأمر الله وقضائه، مستعمل نفسه في أداء مشيئته وإرادته، فليس على وجه الأرض عاص، ولا تعرف المعصية من الطاعة، ولا يعرف من يقع عليه اسم الطاعة، ولا اسم المعصية، ولا من يستحقه، وكيف يكون من سعى في إرادة اللّه عاصياً؟! لا يعرف هذا الكلام في شيء من لغة العرب، ولا العجم، وقد حد اللّه اسم (٢) المعصية التي ذكرها اللّه في كتابه، وسمى قوماً عصاة، وسمى من عمل به عاصياً، وبطل(٣) كل ما جاء في الكتاب من ذكر ذلك، على قولهم وقياسهم. وكل ما جاء لغير معنى، إلاّ أن تكون المعصية غير هذه الأشياء كلها التي نعرفها ونعقلها مكنونة عند اللّه، لم يبينها لنا ولم يشرحها، ولم يدلنا عليها، غير أنه قد حذرنا العصيان ولم يعرِّفناه، وعرفناه(٤) وعرَّفنا الإحسان والطاعة وحدها(٥)، فنحن للعصيان منكرون(٦)؛ إذ كان أكبر الفواحش التي عدنا، وهي عند أهل القبلة أشد الكفر، وقد سموها جميعاً كبائر من العصيان والذنوب، وزعم هؤلاء أن اللّه شاءها، وأمر بها وأرادها، فما كان سواها وسوى ما سموا كبائر فأمره أقرب وهو

---

(١) في ب: يكون المعنى.
(٢) في ب: ولا اسم المعصية، وهو عطف على: لايعرف.
(٣) كذا في النسخ.
(٤) كذا في النسخ، ولعلهما نسختان: ولم يعرفناه، وعرفناه، وكلاهما مستقيم أما: ولم يعرفناه فعلى جهة الإلزام يعني أنه يحذرنا شيئاً لم يعرفناه وهذا لايليق به. وأما: وعرفناه فواضح، وهو تعقيب على دعوى أن المعاصي مكنونة لم نعرفها. والله أعلم.
(٥) في ب: وحدهما.
(٦) منكرون يعني غير عارفين به.

(٢٨/٢)

أهون، ولا يرى معصية ولا عاصياً؛ إذ كان ما كان مضاداً لما ذكرنا من الصلاة، والصيام، والحج، والإيمان، وجميع أعمال البر، اللّه شاءها، وقضاها وأمر بها(١)، فلا ترى بين المنزلتين(٢) فرقاً، ولا عنهما تأخراً، كلاهما فرض، وكل من عمل شيئاً من الفعلين فهو لله مطيع، والله بفعله راض، وليس على وجه الأرض لله عاص، كلا الفريقين مجتهد في أداء ما فرض(٣) اللّه عليه.
فلا بد لمن قال بهذه المقالة أن يبين المعصية أين هي؟ وإلا فهو مبطل، مفترٍ على اللّه أقبح الكذب. فنبرأ إلى اللّه من هذه المقالة، وممن قال على الله بها. فبالله(٤) إن الأمر لواضح، وإن الشبهة في هذه المعرفة لبينة. وفقنا اللّه وإياك لأجمل الأقاويل وأحسنها، وأليقها بالله؛ لأن اللّه سبحانه يقول: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}[الأعراف: ١٨٠]، فالله أحق بكل اسم حسن، وأبعد من كل اسم قبيح؛ من هؤلاء (٥) الخلق الذين(٦) يقولون عليه بهذا القول، الذي يُبَرئون أنفسهم منه، ويزعمون أنَّه لو كان منهم كان أكبر الظلم.

---

(١) يعني إذا كانت كبائر العصيان التي هي أضداد للطاعات مقضية مرادة لله كالطاعات لم يكن فرق بينهما ولم يكن احدهما بأولى باسم الطاعة من الآخر إذ هما سيان في الإرادة والقضاء.
(٢) في ب: المؤمنين. وهي غلط.
(٣) في ب: ما افترض.
(٤) في ب: فيا لله.
(٥) في ط: في الأصل: هذا، وكذلك في (ب).
(٦) في ط: في الأصل: الذي، وكذلك في (ب).

(٢٩/٢)

وزعم هؤلاء القوم أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بعثه اللّه ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام يدعون عباد اللّه إلى عبادة الله، ولعمري إن ذلك كذلك، قال اللّه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}[الأعراف: ١٥٨]، وقال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون لعنه الله: {إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ}[طه: ٤٧]، وقال: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[الصافات: ١٤٧]، معناها: ويزيدون؛ لأن اللّه سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولا تعروه سنة، ولا يدخل شك(١). وهذا في أشعار العرب كثير، قال الشاعر:

فلو كان البكاء يرد مَيْتاً...بكيت على عمير أو عقاق

ثم قال مبيناً أنَّه يبكي عليهما جميعاً في البيت الثاني:

على المَرئَيْن إذ هلكا جميعاً... لشأنهما بحزن واحتراق

فأقام (أو) مقام (الواو). وكذلك قال عزَّ وجل: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيهِمُ اثْنَينِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}[يس: ١٤]، فإذا كان الأمر على ما قال هؤلاء الظالمون: أن اللّه تبارك وتعالى قضى على قوم بالمعصية، لا يقدرون يعملون غيرها، ولا يخرجون منها إلى شيء من الطاعة، ولا من أعمال البر، وقضى على آخرين بالطاعة له، وبالعمل بما يرضيه، لا يقدرون يخرجون من الطاعة إلى العمل بشيء من المعصية، ممنوعاً من ذلك الفريقان، وكان [كل](٢) مستعملاً فيما حتم في رقبته، وقضى عليه، لا يطيق الخروج منه إلى غيره، فإلى من أرسل اللّه الأنبياء والمرسلين؟ وإلى من دعوا؟ ومن خاطبوا؟ وعلى من احتجوا؟ أم من تبعهم (٣) وأطاعهم؟ أم ما كانت حاجة العباد إليهم؟ أم ماكان المعنى عند اللّه سبحانه في إرسالهم؟ أتراه أرسلهم عبثاً أم سخرياً؟ أم بيانا وتوكيداً للحجة على العباد وتوقيفاً؟

(١) كذا في النسخ ولعلها: يدخله.
(٢) زيادة لاستقامة الكلام.
(٣) في ط: تعثهم، وهو تصحيف.

(٣٠/٢)

فإن كان سبحانه أرسلهم إلى قوم قد منعهم من طاعته، يدعونهم إلى الدخول فيها؛ وقد حال بينهم وبين ذلك، ومنعهم؛ طالباً للحجة عليهم بلا حجة لا زمة بيِّنة، فهذا أكبر الظلم، وأحول المحال، ليس أحكم الحاكمين يعبث ولا يلغو، ولا يسخر، ولا يستهزيء، ولا خلق الجنة والنار باطلاً، ولا أرسل المرسلين عبثاً، لو كان اللّه سبحانه على ما يقولون، ما أرسل إلى خلقه رسولاً، ولا دعاهم إلى طاعة، ولا دلهم على ما يرضيه مما يسخطه، ولا احتج عليم بالآيات المعجزات، ولا بالبراهين الواضحات، التي عجز عنها جميع الكهنة، والسحرة والفراعنة، وشياطين الإنس والجن، فلم يقدروا أن يأتوا منها بشيء، مثل: التسع آيات(١) التي كانت مع موسى عليه السلام، والمعجزات التي جاء بها غيره من الأنبياء، كل هذا احتجاج من اللّه سبحانه على خلقه، ليطيعوا أنبياءه ورسله، ويجيبوهم إلى خلع الأنداد، والأصنام، والأوثان، والآلهة المعبودة من دونه، ولكن اللّه سبحانه مكنهم وفوضهم، وأرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى ما هم قادرون عليه، ويندبونهم إليه، ليخرجوهم بذلك من ظلمة الشرك إلى نور الإسلام. ألا ترى إلى قوله عزَّ وجل: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة: ٢٥٧]؟ فلولا أن اللّه تبارك وتعالى قد علم أن عباده يقدرون على طاعة رسله ما أرسلهم إليهم، ولا أمرهم بطاعتهم(٢)، ولا حثهم على أداء ما جاءوا به من فرائضه، وما دعوا به من اتباع مرضاته، وذلك لما مكنهم اللّه منه، وجعل فيهم من القوة والاستطاعة ليركبوا بها طبقاً عن طبق، تفضلاً منه عليهم، وإحساناً منه إليهم، وإكمالاً للحجة فيهم، وعليهم(٣) لئلا يكون

(١) في ب: التسع الآيات.
(٢) في ب: بطاعته.
(٣) ليس في ب.

(٣١/٢)

لأحد على اللّه حجة بعد رسله، وما شرع من فرائضه، وما دعا إليه من طاعته وحذر من معصيته، وذلك قوله: {لِئَلاَّ يَكُوْنَ لِلنَّاس عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[النساء: ١٦٥].
ومن أكبر عجائبهم أنهم يزعمون أن اللّه تبارك وتعالى قضى على العباد بالمعاصي قضاء حتماً لا يمكنهم الخروج من ذلك القضاء، وقدره عليهم، وشاءه لهم، ثم زعموا مع هذا القول، أن محمداً صلى الله عليه وآله أُرْسِلَ إلى الناس كافة، وأن كل ما أمر به أو نهى عنه، من تحليل شيء أو تحريم آخر لله رضى وطاعة، ومراداً ومشيئة؛ إذ رجعوا فأكذبوا أنفسهم، وطعنوا على نبيهم، فزعموا أن جميع ما نهى اللّه عنه قضاء ومراد ومشيئة.
فانظر يا بني ما بين هذين القولين من التناقض والعمى والحيرة، بَيْنا محمد صلى الله عليه وآله يحث على طاعة اللّه والقيام بأمره، والأداء لفرضه إذ صار ينهى عن جميع ذلك.
وانظر إلى ما هو أعجب من هذا، قولهم في إبليس لعنه اللّه يزعمون مرة أنَّه لله عاص، وعليه مفتر، بل(١) قد افترض عليه ذلك في كتابه، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ومرة يزعمون أن إبليس لله ولي، يدعو إلى قضائه، في معنى قولهم، وما تلزمهم إياه الحجة، وإن كانوا غير مصرحين بولايته لله غير أنهم زعموا أن جميع الفواحش التي يدعوا إليها إبليس شاءها اللّه وأرادها، ومن كان إلى طاعة اللّه ومشيئته ومراده [داعياً] (٢) فهو لله ولي مطيع (فَمَرَّةً عندهم إبليس مطيع) (٣) ومرة عدو مفتر..

(١) في ط: هنا في الأصل: عبارة زائدة هي: قد افترى. وكذلك في ب.
(٢) زيادة يقتضيها الكلام.
(٣) سقط من ب سهواً.

(٣٢/٢)

وانظر أيضاً إلى هذا التمييز، وهذه العقول، التي جعلوا بها سبيل محمد وسبيل إبليس سواء، حتى جعلوا الصفة فيهما واحدة متشابهة، كلاهما(١) وهو عندهم يدعو إلى قضاء اللّه وأمره ومراده، ويصدقون محمدا عليه السلام مرة فيما جاء به من القرآن والدعاء إلى الله، وإلى أمره ومراده، ومرة أخرى يكذبون ذلك، ويقولون: إن المعاصي من اللّه، وإن اللّه شاءها وأرادها من العباد، وإنه عليه السلام ينهى عن مشيئة اللّه وإرادته، فإن كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عما ذكروا أن إبليس يدعو إلى ذلك الذي أراده اللّه من العباد(٢)، فلا تراه في قياسهم لله عاصياً، ولا عليه مفترياً؛ إذ كان في الدعاء إلى قضاء اللّه مجتهداً، ومن كانت هذه سبيله فهي غير سبيل العاصين، ولا أعرف كما قلنا وعلى قولهم بينه وبين محمد عليه السلام فرقاً في الدعاء إلى قضاء اللّه خاصة؛ إذ كان محمد يدعو إلى بعض قضاء الله، ثم أمر ونهى بزعمهم عن بعض قضاء اللّه وأمره، وكذلك إبليس لعنه اللّه يدعو - على قولهم - إلى بعض قضاء اللّه وأمره، وينهى عن بعض قضاء اللّه وأمره، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نهى عما يدعو إليه إبليس من هذا القضاء، وإبليس لعنه اللّه يدعو إلى ما ينهى عنه محمد وكلاهما عدو الآخر.
فيا سبحان الله!! ماذا بينهما من التباعد! وما أشد اختلافهما، وأبين تناقض أمرهما عند أهل المعرفة والعقل، وأخبث قولهم هذا الذي قالوا به.

(١) كذا.
(٢) كذا في النسخ.

(٣٣/٢)

ومن الحجة عليهم أيضاً التي لا يجدون لها نقضاً، ولا بد لهم عندها من أن يكذبوا أنفسهم وقولهم، أو يلزموا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم المعصية والتعدي فيما أمره اللّه به، يقال لهم: أخبرونا عن محمد عليه السلام، حين أمره اللّه بدعاء الناس كافة إلى عبادته، والعمل بفرائضه، فوجدهم صلى الله عليه وآله وسلم على ما كانوا عليه وبه عاملين من عبادة النار والحجارة والأصنام والأنداد، وأكل الربا، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وقتل الأطفال، وسفك الدم الحرام، والقول أن اللّه ثالث ثلاثة، وأن له ولداً وصاحبة، وأنه بخيل، وأن يده مغلولة، وما أشبه هذا (١) من الفواحش، أمَرَهُم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلزوم ذلك،

وحثهم على العمل به، والاجتهاد فيه، وأمر أيضاً من وجده يعبد اللّه وحده، ويقول: إنَّه ليس معه شريك، ولا له شبيه، ويسجد له من دون المعبودات كلها، ويحرم الزنى والربا، وأكل مال اليتيم، وقتل الطفل، ويأمر بخلع المعبودات كلها من دون الله، أمرهم بلزوم ما هم عليه، وحثهم على أدائه، لم يغير على أحد من العالمين شيئاً، ولم ينههم عن شيء، ولم يأمرهم بشيء غير الاجتهاد فيما (٢) هم فيه؟ فقد صدق (٣) من زعم أن جميع الأشياء من الله، وله رضا وقضاء، وأمر ومشيئة، وإن كان صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن شيء مما ذكرنا من العملين، وميز بين المنزلتين، وسمى أحدهما طاعة، ووعد من عمل بها الجنة، وسمي المنزلة الأخرى معصية، وتوعد(٤) من عمل بها النار، فقد كذب من زعم أن كل شيء مراد لله وقضاء (٥) فإن أحبوا فيكذبوا أنفسهم، للزوم الحجة لهم، وأن أحبوا أن يقولوا: إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عاصٍ، متعدٍ عليه، ناهٍ عن قضائه

(١) في ب: هذا القول.
(٢) في ط: في الأصل: فيها هم كذا. وفي (ب): فنهاهم، وما أثبت على الظن.
(٣) في ط: في الأصل: فصدق.
(٤) في ب: وتواعد.
(٥) في ط: مراد اللّه وقضاؤه، وفي هامشه: في الأصل: قضا.

(٣٤/٢)

وأمره، وأن اللّه تبارك وتعالى لم يأمرهم بتحريم شيء مما حرم، وأن جميع ما حرم أحل(١) منه بالتكليف(٢) منه لا من الله، نقض من قال هذا كتاب اللّه عزَّ وجل؛ إذ يقول له صلى الله عليه وآله وسلم: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}[ص: ٨٦] {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ}[الأنعام: ٥٠، يونس: ١٥، الأحقاف: ٩] وهذه الصفة والقول لا يجوزان في محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا له.

(١) كذا في النسخ ولعلها: أو أحل.
(٢) كذا في النسخ ولعلها: بالتكلف.

(٣٥/٢)

ومن الحجة عليهم أن يقال لهم: أخبرونا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أكان عندكم رؤوفاً رحيماً، حريصاً على العباد شفيقاً، مريداً لهم أن يطيعوا اللّه ولا يعصوه؟ وعن قول اللّه سبحانه فيه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيْزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨] أكان كذلك؟ أم كان عندكم على غير هذه الصفة، من قلة الرأفة والرحمة والحرص؟. فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: كان صلى الله عليه وآله وسلم رؤوفاً رحيماً، كما وصفه الله، فحينئذ يقال لهم: فأين الرأفة والرحمة ممن يأمر العباد بترك طاعة الله، والخروج عن مشيئته ومراده، والرد لقضائه وأمره؟ وكيف يكون عندكم حال من نهى عما ذكرنا، وحال من أطاعه في ترك ما ذكرنا. مما هو لله مشيئة ومراد؟! وأين الرأفة والرحمة ممن يأمر العباد بما لهم فيه الهلاك والغضب عند الله؟ هذا قول ينقض القرآن ويفسده، وهو حجة اللّه العظمى على عباده، وفيه تحريم ما حرم وتحليل ما أحل، فإذا كان المؤدي له ـ في قولكم وعلى مذهبكم ـ ينهى عن طاعة اللّه ومشيئته ، فكيف السبيل عندكم أن يوثق به فيما أدى إلينا من تحليل وتحريم؛ إذ كان ينهى عن قضائه ومراده؟ فقد احتمل ـ إن كان يفعل ذلك بلسانه ـ أن يفعله ومثله في الكتاب الذي أداه، فيحلل الحرام، ويحرم الحلال. تعالى اللّه عما أسند إليه أهل هذه المقالة الحمقاء، من التقلب(١) بعباده، والعبث بخلقه، وجل شأن محمد عليه السلام أن يكون فيه شيء من هذه الصفة، أو يكون على شيء مما يكره اللّه سبحانه. بل لم يزل صلوات اللّه عليه ناهياً عن نهي الله، داعياً إلى أمر الله، مستقلاً في ذلك كله بعداوة الآدميين والناس أجمعين، باذلاً لنفسه، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى قبضه اللّه إليه، وقد غفر ذنبه، وشكر فعله، صلوات اللّه عليه وعلى آله.

(١) في ب: التلعب.

(٣٦/٢)

فميز يا بني القولين، وفكر فيما بين المنزلتين، تصح لك الحجة، ويَبِنْ لك الحق؛ لأن الحق غير خفي، على ذي مِرَّة سوي(١).
نسأل اللّه التوفيق والتسديد، ونعوذ به مما أسند إليه المبطلون، وقال به فيه الجاهلون، فكل من قال على اللّه سبحانه شيئاً مما ذكرنا، أو أسند إليه سبحانه ما حكينا؛ من قول أهل الضلالة والردى، والحيرة والعمى، فما عرف الله العلي الأعلى، في شيء من أيام الدنيا، وهو عند اللّه من أجهل الجاهلين، وأكفر الكافرين، وأضل الضالين؛ لأنَّه قد نسبه سبحانه إلى أقبح صفات المخلوقين المستهزئين، العيابين المنهكين لعباد الله(٢)، الحاكمين فيهم بغير حكم الله، فتعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً.
تم الكتاب والحمد لله رب الأرباب، وصلى اللّه على محمد النبي وعلى آله الطيبين، وسلم وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

كتاب

الرد على المجبرة القدرية الثاني(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:
الحمد لله الذي لا تراه عيون الناظرين، ولا تحيط به ظنون المتظننين، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الداني في علوه، العالي في دنوه، الذي أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، وأعطى على قليل كثيراً، البريء من(٤) أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن القضاء بالفساد، الممكن لعباده من العملين، الدال لهم على النجدين، المبين لهم ما أحل لهم، الموضح لهم ما حرم عليهم، المرسل إليهم الأنبياء الداعي لهم إلى الخير والهدى، المخوف لهم بالنيران، المرغب لهم بالجِنَان، الذي لا تحويه الأقطار، ولا تُجِنُّه البحار، ولا تواريه الأستار،...وهو الواحد العلي الغفار.

(١) في ط: استوى.
(٢) في ب: المتفكهين بعباد الله.
(٣) ليس في (أ،ج): الثاني.
(٤) في (أ): عن.

(٣٧/٢)

وأشهد أن لا إله إلاَّ هو سبحانه شهادةً حقاً، أقولها له جل جلاله تَعبُداً ورقاً. الذي رفع السماء فبناها، وسطح الأرض فطحاها، {وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥].
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالبينات، ونزل معه الآيات، وأنقذ به من الهلكات، وأكمل به النعم والخيرات، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، وعبد ربه حتَّى أتاه اليقين، ثُمَّ تولى فقيداً محموداً، فصلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين، الطيبين الأخيار، الصادقين الأبرار، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وجعلهم أمناء على وحيه، ودعاةً لخلقه، أمر العباد بطاعتهم، وافترض عليهم ما افترض من اتباعهم، (اختصهم دون غيرهم بذلك، وجعلهم عنده كذلك، تكريماً منه لهم)(١)، وتعظيماً لما به خصهم؛ من ولادة المصطفى؛ محمد خير الأنبياء، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيْمٌ} [الأنفال:٤٢].
ثُمَّ نقول من بعد الحمدلله والثناء عليه، والصلاة على محمد صلى الله عليه وعلى آله:
أما بعد فإن القدرية المجبرة الغاوية، الضآلة المضلة؛ زعمت أنها إنَّما أُتِيَتْ(٢) في ارتكاب سيئاتها، وفعل كبائر عصيانها(٣) من ربها، لا من أنفسها، تبارك ربنا عن ذلك وتعالى علواً كبيراً.
ثُمَّ قالوا: إنَّه سبحانه أدخلها بقضائه عليها في كبائر ذنوبها، جَبَرها على ذلك جبراً، وأدخلها فيه قسراً؛ ليُعذبها على قضائه، إشقاء منه لها بذلك، تعالى ربنا أن يكون كذلك، (ولعنة الله على أولئك) (٤).
فرأينا عندما قالت وذكرت، وبه على الله من عظيم القول اجترأت، أن نضع كتاباً نذكر فيه بعض ما ذكر الله في منزل الفرقان(٥)، مما نزله على محمد خاتم النبيين، في الكتاب من إكذاب القدرية المجبرين.

(١) سقط من (أ).
(٢) في (ج): أوتيت.
(٣) في (أ): كبائرها.
(٤) ليس في (أ).
(٥) في (أ): القرآن.

(٣٨/٢)

***
فكان أول ما نقول لهم من ذلك ونسألهم عنه؛ أن نقول لهم: خبرونا عن قول الله تبارك وتعالى فيما حكى عن الفاسقين الظلمة، المنافقين الفجرة، المتخلفين عن الجهاد مع رسول رب العالمين صلى الله عليه وآله وسلم: {يَحْلِفُوْنَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة: ٤٢].
فقلنا للقدرية: أتزعمون أنهم حين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه كانوا مستطيعين للخروج معه، أو غير مستطيعين له؟.
فإن قالوا: نعم، كانوا مستطيعين له، وأنهم تركوه عنوةً واجتراءً على ذي الجلال والطول، واطرحاً لقول الله وقول رسوله صلى الله عليه وآله؛ تركوا قولهم الذي كانوا يقولون به: من أنَّه لا يستطيع أحد فعل شيء حتَّى يقضي (الله) (١) عليه به، ويدخله الله سبحانه فيه.
وإن قالوا(٢): إن المتخلفين عن الخروج مع الرسول لم يكونوا مستطيعين(٣) للخروج معه، وإنهم كانوا غير مستطيعين للجهاد؛ فقد قالوا كما قال المتخلفون، وصدّقوا قول المنافقين، وأكذبوا قول رب العالمين، لأن الله سبحانه قد أكذبهم، وشهد بخلاف ما قالوا من قولهم؛ حين يقول: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}. قالت المجبرة: هم صادقون(٤) لا يستطيعون، ولو استطاعوا لخرجوا، وقال الله سبحانه هم كاذبون فيما تقولون، ويشهد أنهم للخروج مستطيعون، وأنهم لو أرادوا الخروج لخرجوا، ولذلك أكذبهم الله في قولهم، لأن الله تبارك وتعالى لا يكذب صادقاً، ولا يصدق كاذباً.
***
ثُمَّ قلنا لهم: أخبرونا عن قول الله تبارك وتعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، أليس إنَّما أمر العباد أن يتقوا الله ما استطاعوا؟

---
(١) ليس في (أ).
(٢) في (أ): فإن قالوا.
(٣) في (ج): بمستطيعين.
(٤) في (ب): الصادقون.

(٣٩/٢)

فإذا قالوا: نعم، قيل لهم: فإن رجلاً لم يُصل ولم يصم من شهر رمضان إلاَّ يوماً واحداً، أو ركعة واحدة في كل يوم وليله، هل كان يستطيع غير ذلك؟
فإن قالوا: نعم، تركوا قولهم. وإن قالوا: لا يستطيع. قيل لهم: أفتأمرونه بالصلاة والصيام وهو لا يستطيع ذلك؟
فإن قالوا: لا نأمره بشيء من ذلك؛ فقد أجازوا له ترك الصلاة والصيام. وإن قالوا: بل نأمره وإن كان غير مستطيع، خالفوا القول، وردوا كتاب الله؛ لأن الله يقول: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [البقره: ٢٨٦]، ويقول:{لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقره: ٢٨٦]، ويقول: {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧]، فقد كلفتموه ما لم يؤته ربه.
ثُمَّ يقال لهم: أرأيتم إنساناً قوياً جلداً صحيحاً، قال: لست أقدر على أن أصوم من شهر رمضان غير عشرة أيام(١)؟ ماذا كنتم تقولون له؟ وكذلك إن قال: لست أقدر على الصلاة.
فإن قالوا: نأمره بالصلاه والصوم، ونقول له أنت مطيق لذلك؛ تركوا قولهم؛ لأنَّه يقول لهم: إنَّما أمرني الله أن أعبده ما استطعت، فلست(٢) أستطيع غير هذا، وأنتم تأمرونني أن أتعبد لربي(٣) بما لا أستطيع، وأعبده بما لا أطيق، فأيكم أولى أن أقبل قوله أنتم أو ربي؟ لأن ربي لم يكلفني إلاَّ ما أستطيع، وأنتم تكلفوني(٤) ما لا

أستطيع. وإن قالوا له: لا تصم ولا تصل، لأنك لا تستطيع كما قلت، ولو نزل عليك من الله الإستطاعه لفعلت؛ كانوا قد أباحوا للعباد ترك الصلاة والصيام، وهذا كفر بالله وشرك.

***

ثم يقال لهم(٥): خبرونا عن قول الله تبارك وتعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: ٩٧]، ما هو السبيل عندكم؟

(١) في (أ،ج): أكثر من عشرة.
(٢) في (أ): ولست.
(٣) في (ب): تأمروني أن أعبد لربي.
(٤) في (أ): تكلفونني.
(٥) في (أ،ج): ويقال لهم.

(٤٠/٢)

فإن قالوا: هو أمان الطريق، وإمكان الزاد والراحلة، وصحة البدن؛ (قيل لهم) (١): أفرأيتم رجلاً كثير المال كثير الأبل، صحيح البدن، آمن الطريق؛ جلس ولم يحج، وقال: لم يُقْضَ ليْ بالحج، ماذا تقولون له؟ أتقولون إن فرض الله(٢) قد لزمه، أو لم يلزمه؟ فإن قالوا: قد لزمه، وعليه أن يحج؛ تركوا قولهم. وإن قالوا: لا يمكنه الحج حتَّى يُقْضى عليه به؛ ردوا كتاب الله، ونقضوا قوله، وخالفوا كل الأمة.

***

ثُمَّ يسألون فيقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {وَالَّذِيْنَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّيْنَ مِسْكِيناً} [المجادلة:٣ ـ٤] أرأيتم من حنث في ظهاره، وكان موسراً، كثير الرقيق، صحيح البدن، قوياً على الصيام؟ فقال: لا أعتق رقبة ولا أصوم، ولكني أطْعِم. فقيل له: هذا لا يجوز لك؛ لأن الإطعام لمن لا يجد عتقاً، ولا يقوى على صيام. فقال: أنا غير مستطيع لذلك؛ لأن الله لم يقض لي به، فلست أفعل إلاَّ ما قضى الله لي به من الإطعام، ما تقولون له؟ فإن قالوا: نقول له: أطعم، ولا تعتق ولا تصم؛ لأن الله لم يُقدِّره عليك ولم يقض لك به؛ ردوا كتاب الله، وخالفوا رسوله. وإن قالوا: (بل نقول له) (٣): هذا لا يجوز لك، وقد أوجب الله عليك العتق فاعتق؛ تركوا قولهم، ورجعوا إلى الحق.

***

(١) سقط من (أ).
(٢) في (أ): فرض الحج.
(٣) في (ج): يقولون له.

(٤١/٢)

ومما يسألون عنه يقال لهم: أخبرونا عن قول موسى عليه السلام للخضر: {لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً} [الكهف: ٧٧]، أتقولون: إنَّه قال: لو شئت وهو لا مشيئة له؛ فتخطئون موسى عليه السلام؟ أم تقولون: إنَّه لم يقل إلاَّ الحق، وأن الخضر قد كان يقدر أن يفعل؟ فإن قالوا: لا مشيئة له ولا استطاعة؛ خطَّؤا نبيَّ الله وجَهَّلوه. وإن قالوا: قد كانت له مشيئة واستطاعة؛ تركوا قولهم، ورجعوا إلى الحق.

***

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله عز وجل: {يُرِيْدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيْداً} [النساء: ٦٠]، أفتزعمون أنهم أرادوا أن يتحاكموا إلى الطاغوت، أم الله أراد ذلك وقضى به عليهم؟ فإن قالوا: إن الله أراد ذلك وقضى به عليهم؛ ردوا كتاب الله وخالفوه؛ لأن الله سبحانه قد نسب ذلك إليهم، وذكر أنهم (الذين) (١) أرادوا ذلك، والمجبرة القدرية يزعمون أن الله أراد منهم أن يتحاكموا إلى الطاغوت دونه ودون رسوله(٢) صلى الله عليه وعلى آله. وإن قالوا: بل هم أرادوا ذلك، والله لم يرده؛ خرجوا من الباطل ورجعوا إلى الحق، وقالوا على الله بالصدق. فيقال لهم: قد نسمع

الله سبحانه يقول ويذكر أن الشيطان هو الذي أراد أن يضلهم ضلالاً بعيداً. والمجبرة تزعم(٣) أن الله أضلهم، والله أولى بالصدق منهم، والله سبحانه أصدق الصادقين، وأبعد الأبعدين من إضلال الضآلين، والمجبرة والقدرية فأكذب الكاذبين(٤). على الله رب العالمين.
***

---
(١) ليس في (أ).
(٢) في (أ): رسول الله.
(٣) في (أ): يزعمون.
(٤) في (أ): الأكذبين.

(٤٢/٢)

ويسألون عن قول الله سبحانه؛ فيقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: {إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة:٩١]، أتقولون إن ذلك من الشيطان كما قال الله؟ أم تقولون إنَّه من الرحمن؟ فإن قالوا: هو من الشيطان كما قال (الله)(١)، وهو قضاء منه وتزيين لا من الله؛ تركوا قولهم، ورجعوا إلى الحق، وإلى قول أهل العدل. وإن قالوا: هو من الله لا من الشيطان؛ خالفوا في ذلك وردوا قول الله؛ لأن الله يقول: {إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ}، وهم يقولون: إنَّما يريد الرحمن، وكفى بهذا لمن قاله كفرا(٢).
***
ومما يسئلون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله عز وجل: {وَمَا اللَّهُ يُرِيْدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ} [فصلت: ٤٦]، وعن قوله: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦]، فهل تقولون: إن الله يريد ظلماً لأحدٍ من عباده؟ فإن قالوا: لا؛ تركوا قولهم الذي يقولون به: إن الله أدخلهم في المعاصي؛ ثُمَّ يعذبهم عليها ويُشقيهم بها. وإن قالوا: إن الله يريد ظلمهم؛ ردوا كتابه وكفروا به.
***

---
(١) ليس في (أ).
(٢) في (ب): وكفى بهذا القول لمن قال به كفراً.

(٤٣/٢)

ومما يسألون عنه في محكم كتاب الله أن يقال لهم: أخبرونا(١) عن قول الله سبحانه: {يُرِيْدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ وَاللَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيْدُ الَّذِيْنَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيْلُوا مَيْلاً عَظِيْماً} [النساء: ٢٦- ٢٧]، أفليس إنَّما أراد الله البيان والتوبة والهدى، وأراد الكافرون الزيغ والردى؟ فإن قالوا: نعم؛ رجعوا إلى الحق وتركوا قول الباطل. وقالوا بقول أهل العدل. وإن قالوا: بل الله الذي أراد الميل وقضى به عليهم؛ خالفوا الله في قوله، واستوجبوا منه العذاب.
***
ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله عز وجل: {تُرِيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيْدُ الآخِرَةَ} [الأنفال:٦٧]، أليس قد أخبر الله تبارك وتعالى أنهم يريدون غير ما أراد، وأنهم يفعلون غير ما يشاء؟ فإن قالوا: نعم؛ تركوا قولهم ورجعوا إلى العدل.
وإن قالوا: إنهم لا يشاؤن إلاَّ ما شاء(٢) الله، ولا يريدون إلاَّ ما أراد الله خالفوا الله في قوله؛ لأن الله قد أخبر أنهم يريدون الدنيا وأنه يريد الآخرة، والدنيا غير الآخرة؛ فكذلك إرادة الدنيا غير إرادة الآخرة. ومن زعم أنهم أرادوا ما أراد الله؛ فقد زعم أنهم أرادوا الاخرة، وفي ذلك رد كتاب الله؛ لأن الله يقول: {تُرِيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيْدُ الآخِرَةَ} [الأنفال: ٦٧].
***

---

(١) في (أ): خبرونا.
(٢) في (أ): ما يشاء.

(٤٤/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا(١) عن قول الله تعالى: {يُرِيْدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ}[البقرة: ١٨٥]، أتزعمون أن الله أراد ما يريد(٢) كثير من الناس من العسر أم لم يرده؟ فإن قالوا: بل الله يريده ويقضي به على من (فعله من الناس) (٣)؛ ردوا كتاب الله صراحاً. وإن قالوا: إن الله لا يريده، تركوا قولهم ورجعوا إلى الحق.
***
ومما يسئلون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ} [الأنعام: ١٣٧]، أتقولون: إن شركاءهم هم الذين زينوا لهم قتل أولادهم؛ ليردوهم بقتل أولادهم؟
فإن قالوا: نعم، هم المزينون لهم دون الله؛ رجعوا عن قولهم، وقالوا بالحق في ربهم. وإن قالوا: بل الله قضى بذلك عليهم، وزينه لهم؛ فقد ردوا كتاب الله بذلك.
ثُمَّ يقال لهم: كيف يزين الله لهم ذلك ثُمَّ(٤) يرمي به شركاؤهم، وهو الفاعل له دونهم؟!! أما تسمعونه سبحانه يقول: {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيْئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيْئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً} [النساء: ١١٢]؟ فكيف يعيب سبحانه شيئاً، ثُمَّ يفعل مثله؟! تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.
***

(١) في (أ،ج): خبرونا.
(٢) في (أ): ما أراد.
(٣) بياض في النسخ، وما أثبته نخ، وفي هامش ج: وفي نخ: من شاء، وظنن بـ أراده.
(٤) في (ج): ثُمَّ يرم.

(٤٥/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ} [الأنفال:٤٨]، أتقولون: إن الشيطان زين لهم أعمالهم، وقال لهم ما قال مما ذكر الله عنه؟ أم تزعمون أن الله الذي قال(١) وزينه لهم؟ فإن قالوا: بل الشيطان زينه لهم وقاله؛ تركوا قولهم، وخرجوا من الباطل، وإن قالوا: إن الله الذي زينه لهم؛ لزمهم أن يقولوا: إن الله (الذي) (٢) زين لهم الخروج إلى قتال النبي صلى الله عليه واله وسلم، وأنه هو الذي قال للمشركين: {لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ اللَّهِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ}، وهذا إكذاب الله والكفر به.
ومما يحتج به عليهم ويسئلون عنه؛ أن يقال لهم: أخبرونا(٣) عن قول الله سبحانه: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥]، فيقال لهم: هل الله الذي جعل آلهة تعبد من دونه وقضى بذلك فيها؟ فإن قالوا: إن الله جعل ذلك وقضى به؛ ردوا كتاب الله وكفروا به. وإن قالوا: لم يجعله ولم يقض به؛ تركوا قولهم، وخرجوا من الباطل(٤) إلى الحق.
***
ويقال لهم: أليس الله {(هُوَ) (٥) أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر: ٥٦]، كما قال وذكر إنَّه أهلهما؟ فإن قالوا: نعم؛ قيل لهم: فهل يجوز أن يكون الظلم والمعصية من الله؛ كما كانت التقوى والمغفرة منه؟
فإن قالوا: نعم. كفروا وخالفوا الكتاب، ونسبوا إلى الله غير الصواب. وإن قالوا: لا يكون الظلم والمعصية من الله؛ تركوا قول المبطلين، ورجعوا إلى قول المحققين.
***

(١) في (أ،ج): قال لهم وزين.
(٢) سقط من (ج).

(٣) في (ج): خبرونا.
(٤) في (أ،ج): من الظلم.
(٥) سقط من (أ،ج).

(٤٦/٢)

ومما يسئلون عنه: أن يقال لهم: أخبرونا(١) عن قول الله سبحانه: {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} [الإنسان: ٢٩]، وعن قوله: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِيْنَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩]، أمن شاء أن يفعل خيراً فعله، أم ليس(٢) هو عندكم كما قال الله؟ فإن قالوا: ليس هو كما قال الله؛ كفروا، وإن قالوا: هو كما قال الله؛ رجعوا إلى الحق، وقالوا على الله سبحانه بالصدق، وأقروا أن العباد ممكنون من العمل، وأنهم يفعلون ما شاؤا بما جعل الله فيهم، من الاستطاعة الَّتِي ركبها فيهم. فإن قالوا: ليس هذا كذلك؛ ردوا كتاب الله وكذبوه، ومن فعل ذلك فقد كفر.
***
ومما يسئلون عنه من محكم كتاب الله أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١٤٨]، أفتقولون: إنهم صدقوا في قولهم: إن الله لم يشأ إيمانهم. فإن قالوا: صدقوا، كذبوا الله في قوله(٣)، وكفروا بالله. وإن قالوا: لا بل كذبوا على الله في قوله(٤)، وقد شاء منهم الإيمان ودعاهم إليه، ولم يشاء منهم الشرك؛ رجعوا عن قولهم، وصاروا إلى القول بالحق.
***

---
(١) في (أ): خبرونا.
(٢) في (ب): وليس.
(٣) في (ب): في قولهم له.
(٤) في (أ): قولهم.

(٤٧/٢)

ومما يسألون عنه قول الله سبحانه: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} [الزخرف: ٢٠]. يقال لهم(١): أليس قد أخبر الله أن قوماً قالوا: لو شاء الرحمن ما عبدنا غيره؟ فإذا قالوا: نعم؛ يقال لهم: أليس قد قال الله: {مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [الزخرف: ٢٠]، والخرص فهو: الكذب؟ فما(٢) تقولون في ذلك؟ فإن قالوا: صدق الله، إنهم لكاذبون فيما ادعوا(٣) عليه؛ تركوا قولهم، ورجعوا إلى الحق، وقالوا بالعدل. وإن قالوا: هم كما قالوا: لو شاء الله ما عبدوا غيره؛ فقد صدَّقوا قول الفاسقين، وردوا قول رب العالمين، ومن قال بذلك كان بالله من الكافرين، ولعذابه من المستوجبين.
***
ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {يُرِيْدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ} [الصف: ٨]، أفتقولون: إن الكافرين هم الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله من دونه؟ أم هو الذي أراد أن يحملهم على إطفاء نوره(٤)؟ فإن قالوا: أراد إتمام نوره؛ تركوا قولهم، ورجعوا إلى الحق، وقالوا بقول الله في ذلك.
وإن قالوا: بل الله الذي أراد إطفاء نور نفسه؛ ردوا قول الله وكفروا به؛ لأن الله يقول في كتابه: {يُرِيْدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُوْرَهُ} [التوبة: ٣٢]، (والله يقول: إنهم يريدون إطفاء نور الله (٥)، والمجبرة القدرية(٦) تقول: بل الله يريد إطفاء نور نفسه؛ إذ زعمت أنَّه يقضي على الفسقة بذلك.
***

---
(١) في (أ،ج): فيقال.
(٢) في (أ): فيما ، ولعلها: فبما.

(٣) في (أ): ادعوه.
(٤) في (ب،ج): نور الله.
(٥) سقط سهواً من (ج).
(٦) في (أ) و(ج): والمجبرة والقدرية.

(٤٨/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله تعالى: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} [آل عمران: ٢٨]، أتقولون: أن فاعل ذلك فعله بغير قضاء من الله؟ فإن قالوا: نعم، فعله بغير قضاء من الله، وأن فعله ليس من الله في شيء؛ دخلوا في قول المعدِّلين، وقالوا بالحق في رب العالمين. وإن قالوا: فِعْلُ ذلك من الله، وإنه ليس بمعدول عنه، وإنه بقضاء منه؛ فقد ردوا على الله قوله، وخسروا خسراناً مبيناً؛ إذ قالوا: هو من الله، والله يقول: ليس هو منه.
ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الفتح: ٢٥]، أتقولون: أنهم صدوهم عن المسجد الحرام كما قال الله؟ أم الله صدهم وقضى بذلك عليهم؟ فإن قالوا: الله الذي صدهم؛ ردوا قول الله، وخالفوا تنزيله. وإن قالوا: بل المشركون صدوهم عن المسجد الحرام، والله تبارك وتعالى برئ من فعلهم، ولم يقض به عليهم؛ خرجوا من قولهم، ودخلوا في قول المحقين.
***
ومما يسألون عنه أن يقال لهم خبرونا عن قول الله تعالى: {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} [النجم:٢٣]، أتزعمون أنهم سموها وآباءهم كما قال الله سبحانه؟ أم تزعمون أن الله سماها دونهم؟ فإن قالوا: إنهم سموها دون الله؛ فقد أصابوا وصدَّقوا قول الله، وخرجوا من الباطل إلى الحق. وإن قالوا: إن الله الذي سماها دونهم؛ خالفوا قول الله، وردوا عليه قوله؛ لأنَّه يقول سبحانه: {سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ}، وهم يقولون: سماها دونهم، وهذا فأكفر الكفر، وأجل الشرك.
***

(٤٩/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩-١٠]، نبئونا عن المزكي والمدسي من هو؟ واحد هو أو اثنان؟ فإن قالوا: الله زكاها ودساها؛ قيل لهم: إن الله قد ذم من دساها، أتقولون: إنَّه ذم نفسه، أم ذم غيره؟ فإن قالوا: ذم غيره؛ خرجوا بذلك من قولهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم، وقضى بها عليهم؛ إذ أثبتوا أن العبد مذموم على فعله، لا على قضاء ربه. وإن قالوا: بل ذم نفسه؛ إذ هو القاضي على المدسي بالتدسية، فهو الفاعل بالعبد الحامل له على التدسية، لا أن العبد حمل نفسه؛ كفروا بقولهم، ونسبوا إلى الله الذم لنفسه؛ على فعله لعباده.
***
ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩]، فيقال لهم: قد نجد الله سبحانه قد أخبر أن السيئات أفعال العباد لا من فعله، أفتقولون: إنَّه كما قال الله سبحانه أم لا؟ فإن قالوا: بل هو كما قال الله؛ خرجوا من الجبر، وتركوا قولهم بالباطل. وإن قالوا: هو على غير (قول) (١) الله كفروا بالله.
***

(١) بياض في (أ).

(٥٠/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قوله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [المائده: ١٠٣]، أفتقولون فيما فعلوه: إن الله فعل(١) ذلك، وقضى به وبفعله على من فعله من مشركي قريش؟ فقد صح لنا أن أول من فعل ذلك ((قصي بن كلاب)). فإن قالوا: إن الله جعله(٢)، وقضى به، وأدخله فيه؛ فقد صدَّقوا قول قريش: إن الله قضى بذلك وفعله بهم، وأكذبوا قول الله؛ لأن الله قد نفى ذلك عن نفسه، وأخبر أنَّه لم يقض به، وأكذبهم فيما قالوا به عليه من ذلك وفيه؛ حين يقول: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ}، والقدرية تقول: هو فعل(٣) الله وقضاؤه، ولولا أن الله قضى به ما فعلته قريش ولا أطاقته، أقَوْلُ اللهِ أصدَقُ عند من عَرَفَ الله أم قولُ قريش القدرية؟ بل قول الله أصدق، وقولَ(٤) قريش باطل.

(١) في (أ،ج): جعل.
(٢) في (ج): فعله.
(٣) في (أ،ج): جُعْل الله.
(٤) في (أ،ج): وقول من سواه.

(٥١/٢)

ومما يسألون عنه مما لا يستطيعون رده من كتاب الله قول الله سبحانه: {إِنَّ الَّذِيْنَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} [آل عمران: ١٥٥]، فيقال لمن زعم أنَّه لا يقدر عبدٌ على فعلٍ إلاَّ بعد قضاء الله به عليه، وإدخاله إياه فيه، بالقضاء اللازم: أما تجد الله سبحانه يخبر أن توليهم عن النبي صلى الله عليه وآله كان من استزلال الشيطان؟ وأنه منهم ومنه، وأنتم تزعمون أنَّه من الله، وأنه قضى به عليهم وبالتولي، (ما تقولون: أقول الله أصدق (١)، أم قولكم؟ فإن زعموا أن قول الله أصدق؛ رجعوا عن قولهم وصاروا إلى العدل. وإن قالوا: إن قولهم أصدق) (٢)؛ فقد كفروا بالله، وكذبوا على الله؛ لأن ربنا قد ذكر أن ذلك من عدو الله الشيطان، والقدرية تزعم أنَّه من الرحمن، وأن الشيطان منه بريء.

***

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {وَدَّ كَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوْنَكُمْ مِنْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} [البقره: ١٠١]. أفتقولون: إن هذا الحسد من عندالله، قضى به على الكفار أن يحسدوا المؤمنين على الإسلام؟ أم حسداً من عند أنفسهم يعاقبون عليه؟ فإن قالوا: هو من عندالله قضى به عليهم؛ برأوا الكفار من الذنب المذموم، وجعلوه لله دونهم، وقد قال الله تعالى خلاف ذلك، فقد كذبوا الله في قوله وكفروا به. وإن قالوا: هو من عند أنفسهم ومنهم لا من الله كما قال الله؛ خرجوا من الباطل (إلى الحق) (٣)، ورجعوا إلى العدل.

***

(١) في (ب): أصدق القائلين.
(٢) سقط من (أ).
(٣) ليس في (أ).

(٥٢/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِيْنَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: ٢٥]، أفتقولون: إن الشيطان بريء من ذلك، وإنه لم يسول لهم منه شيئاً؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا الله، وخرجوا بذلك من الدين. وإن قالوا: بل هو كما قال الله سبحانه (من الشيطان) (١) لا من الرحمن؛ فقد صدقوا، ورجعوا إلى الحق، وقالوا بالعدل، وأقروا بأن الإرتداد من المرتدين بتسويل من الشيطان لهم، لا بقضاء الله بذلك عليهم؛ لأن الله لا يقضي بالإرتداد، ولا غير ما أمر به من اتباع دينه، والإئتمار بأمره والانتهاء عن نهيه.

***

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى

هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥]، أتزعمون أنَّه من عند أنفسهم كما قال الله؟ أم هو قضاء من عند الله قضاه(٢) عليهم؟ فإن قالوا: إن ذلك من أنفسهم؛ قالوا بالحق، وتعلقوا بالصدق. وإن قالوا: هو من عند الله، وهو قضاؤه. قيل لهم: أفقولكم(٣) أصدق، أم قول الله سبحانه؟ فإن قالوا: قول الله سبحانه؛ صدقوا وأسلموا. وإن قالوا: قولنا كفروا؛ لأن المصيبة لم تكن إلا بمخالفتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أمرهم أن(٤) لا يبرحوا من باب الشعب فخالفوا ورجعوا، فوجد الكافرون السبيل إلى دخول الشعب فدخلوا؛ فأصابوا ما أصابوا، ووقعت المصيبة، فكانت منهم بمخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوالهم من مواقفهم الَّتِي أوقفهم لانتظار أمره.

***

(١) سقط من (أ).
(٢) في (أ): قضي.
(٣) في (أ): فقولكم.
(٤) في (أ): بأن.

(٥٣/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه فيما حكى(١) عن نبيه يوسف صلى الله عليه من قوله: {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف: ١٠٠]. أفتقولون: إن الشيطان نزغ بينهم كما قال الله سبحانه؟ أم تقولون: إن الله الذي نزغ بينهم، وأدخلهم فيما فعلوا بنبيه صلى الله عليه، وقضى به عليهم فلم يجدوا منه بداً؟ فإن قالوا: إن الشيطان الذي نزغ كما قال الله وذكر يوسف؛ صدقوا، ورجعوا إلى الحق من بعد الباطل، وخرجوا من الجبر إلى العدل. وإن قالوا: بل الله الذي نزغ بينهم؛ بقضائه بذلك عليهم؛ أكذبوا قول يوسف في الشيطان، وردوا الذنب على الرحمن، وقالوا على الله بخلاف قوله في نفسه وقول نبيه فيه. فهل يقول بإكذاب الله سبحانه وإكذاب نبيه يوسف وتصديق المجبرة من دون الله مؤمن يؤمن بالله سبحانه أو يعرفه؟

***

(١) في (ج): يحكي.

(٥٤/٢)

ومما يسألون عنه من كتاب الله سبحانه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ} [المجادله: ١٠]، يريد أي بتخلية الله، والتخلية (هاهنا)(١) فهي: ما جعل الله في الشيطان من الإستطاعة الَّتِي أمره أن يطيعه بها ويرضيه، فنهاه عن الوسوسة للعباد والمقاربة لهم. أفتقولون: إن النجوى من الشيطان؛ كما قال الرحمن؟ أم تقولون: إنها من الرحمن، وتبرون(٢) منهاعدو الله الشيطان؟ فإن قالوا: بل نقول: إنها من الشيطان، كما قال الله وقوله الحق لا من الله؛ صدقوا، وخرجوا بذلك من الجبر والظلم(٣) لله، والكفر به والعدوان. وإن قالوا: بل نقول: إن كل ما جاء من نجوى الكافرين، وتناجيهم بالإثم والعدوان، والتراضي(٤) بالعدوان، والمحاربة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قضاء من الله، قضى به عليهم في نبيه وأدخلهم فيه، وأنه من الله لا من الشيطان؛ كفروا بالله وأكذبوا قوله، وخرجوا بذلك من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ورجعوا وتعلقوا بدين الجاهلية الأولى، وقولهم الذي أنكره الله تعالى عليهم وأكذبهم فيه.

***

(١) ليس في (أ).
(٢) في (أ): وتنزهون.
(٣) في هامش (ج): والتظليم. نخ.
(٤) في (أ): والتقاضي. وفي (ب): والتواصي.

(٥٥/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيْهِ اخْتِلاَفاً كَثِيْراً} [النساء: ٨٢]، أفتقولون: إن ما كان من قول الجاهلية ـ من قولهم: إن القرآن الذي جاء به محمد عليه السلام ليس هو من الله، بل هو من عند نفسه، وأنه يكتبه(١) ويكذبه على الله ـ هو كما قالوا، وأن الله قضى بذلك القول عليهم في نبيه، وأنطقهم به عليه، وأنهم لم يقولوا ذلك إلاَّ بقضاء الله عليهم به؟ فإن قالوا: نعم نقول بذلك ونزعمه؛ ردوا الكذب على الله بإكذاب نبيه، وزعموا أن الله أكذب نبيه لا قريش، وفي ذلك الكفر بالله والشرك به.

وإن قالوا: بل هو من عندهم لا من عند الله؛ رجعوا إلى الحق، وقالوا له ولرسوله بالصدق، وصاروا من أهل القرآن.

***

(١) في (أ): تكهنه وتكذبه.

(٥٦/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله الرحمن، فيما نزل من النور والفرقان: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيْقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِاللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٨]، أتقولون أن لَيَّهم بالكتاب، وتمويههم على المؤمنين بذلك وفيه من أنفسهم؟ فإن قالوا: من الله قضاء قضى به عليهم. قيل لهم: فإنا نجد الله يقول بخلاف قولكم، ويبطل ما لفظتم به؛ لأنَّه يقول: {وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}، {وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} فذكر انهم يكذبون عليه فيما قالوا: إنَّه منزل هذا الباطل وجاعله، فشهد عليهم سبحانه بالكذب عليه في ذلك، وأنتم(١) تشهدون لهم بالصدق في قولهم(٢)؛ لأنكم(٣) تزعمون أن كل فعل منهم فمن الله لا منهم، وبقضائه لا بفعلهم، وفي ذلك والقول به ما به الكفر بالله والشرك.

وإن قالوا: هو كما قال الله من عندهم، وهو كذب منهم والله منه بريء؛ رجعوا إلى الحق، وقالوا في الله سبحانه بالعدل.

***

(١) في (أ): وأنهم.
(٢) في (أ،ج): قولكم.
(٣) في (أ): إنكم.

(٥٧/٢)

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: { لاَتَكُوْنُوا كَالَّذِيْنَ آذَوا مُوْسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيْهاً} [الأحزاب: ٦٩]. أفتقولون: إن موسى عليه السلام كان بريئاً مما قالوا به فيه وكذبوا عليه سبحانه بأنه شهد لموسى(١) بالبرآة ـ وقالوا هم: ليس ببريء، ومن شهد بالبرآءة ـ لغير بريء؛ فهو فاسق غوي، والله عن شهادة الزور فمتعال علي. وإن قالوا: إن موسى عليه السلام بريء من ذلك، وإن الله صادق فيما شهد له به؛ (آمنوا) (٢) ورجعوا إلى الحق، وقالوا في الله بالصدق والعدل. وإن قالوا: بل الله (الذي) (٣) قضى عليهم بأذية موسى عليه السلام؛ فقد زعموا أن الله المتولي أذية نبيه موسى صلى الله عليه وسلم، وقضى عليهم(٤) بالقذف له، وفي هذا إبطال ما قال الله وشهد به عليهم، وبرأ نفسه ونبيه من هذا الفعل العظيم.

***

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله عز وجل فيما يحكي عن نبيه نوح صلى الله عليه وسلم،

إذ يقول: {أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس: ٤١]، أفتقولون: إن نبي الله صدق في قوله: {أَعْمَلُ} و{تَعْمَلُونَ} فتوجبون له العمل؟ أم تقولون: إنَّه ليس له في ذلك اختيار ولا عمل ولا لهم، وإن ذلك كله من الله دونهم؟ فإن قالوا: بل نقول: عمله و عملهم، وأنه صادق في ذلك فقد برؤوا الله من أفعال العباد، ورجعوا إلى الحق.

وإن قالوا: بل هو فعل الله، لا فعله ولا فعلهم؛ فقد كفروا، وكذبوا قول رسول الله صلى الله عليه.

***

(١) كذا في النسخ، وهو غير مستقيم، ولعل العبارة: فإنه سبحانه شهد لموسى بالبراءة، وقالوا..
(٢) سقط من (أ).
(٣) سقط من (أ).
(٤) كذا في النسخ.

(٥٨/٢)

ومما يسألون عنه عن قول الله سبحانه: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} [التوبة: ٣]. فما قولكم فيما برئ(١) الله منه من المشركين؟ هل هو خَلْقُ أبدانهم وما فطر من صورهم؟ أم هو أفعالهم وما يأتون به من كفرهم وعصيانهم؟ فإن قالوا: إنَّه تبرأ من أن يكون خلقهم وجعلهم، وأوجدهم وفطرهم؛ كفروا بالله، وأشركوا في الخلق معه (غيره) (٢)؛ تعالى الله الكريم. وإن قالوا: تبرأ من أفعالهم وعصيانهم؛ فقد أقروا أنَّه بريء من أفعال العاصين، متعال عن القضاء بفساد المفسدين، وتركوا قولهم بالإجبار، وصاروا من القائلين على الله بالعدل والإحسان.

***

ومما يسألون عنه أن يقال لهم: أخبرونا عن قول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [الشعراء: ٢١٦]، أتقولون: إن الله عز وجل أمر نبيه أن يتبرأ (مما تبرأ(٣) الله منه؟ أم تقولون : إن الله أمره أن يتبرأ مما لم يتبرأ) (٤) منه؟ فإن قالوا: بل أمره أن يتبرأ مما تبرأ منه؛ فقد صدقوا، وإلى الحق رجعوا، وقالوا: إن الله لم يقض بما برئ منه، ولم يدخل فيما نهى عنه. وإن قالوا: إن الله أمره أن يتبرأ مما لم يتبرأ هو منه؛ فقد زعموا أن الله أمر نبيه بمخالفته، وبأن يتبرأ(٥) مما لم يتبرأ منه مما تولى هو جل جلاله، وهذا فاكفر الكفر (بالله) (٦) وأبين الشرك به، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

***

(١) في (ج): مما تبرأ.
(٢) سقط من (أ).
(٣) في (ج): يتبرأ.
(٤) سقط من (أ).
(٥) في (أ،ج): وبأن يتبرأ هو منه، ويتبرأ مما تولى.
(٦) سقط من (ج).

(٥٩/٢)

ومما يسألون عنه قول الله سبحانه فيما يحكي عن أهل النار: {رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ} [الأعراف: ٣٨] أتقولون: إن الله سبحانه الذي أضلهم؟ وأن أهل النار ظلموا هؤلاء الذين ادعوا عليهم، وإن الله حكى باطلاً من قولهم، وإنه مضل لهؤلاء المعذبين دون من ذكروا؟ أم تقولون كما قال الله سبحانه وحكى؛ إن الكافرين بعضهم أضل بعضاً؟ فإن قالوا: بل الله أضلهم لا هؤلاء؛ كفروا وردوا ما حكى الله من الحق.

وإن قالوا: بل هؤلاء أضلوهم دون الله، لإان الله لم يضل عباده عن طاعته؛ صدقوا وآمنوا، ورجعوا إلى الحق.

***

ومما يسألون عنه قول الله سبحانه: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٣٠]،

فيقال لهم: خبرونا أللّه سبحانه طوع له ذلك(١) وقضى عليه؛ أم نفسه كما قال الله؟ فإن قالوا: بل نفسه طوعت له ذلك، ولم يقضه الله عليه، ولم يدخله فيه؛ فقد أصابوا وتركوا قولهم، وما كانوا عليه من كفرهم. وإن قالوا: بل الله طوع له ذلك بقضائه عليه، وإشقائه له به؛ فقد خالفوا الله وكذبوه في قوله. فالمجبرة تقول: إن الله طوع له ذلك، وقضى به عليه، وأدخله فيه، ولولا أنَّه قضى بذلك عليه لم يفعله، والله يتبرأ عن ذلك، ويخبر أن نفسه طوعت ذلك له، وأنه برئ من ذلك سبحانه.

***

(١) في (أ): ولم يقضه الله عليه. وهو خطأ.

(٦٠/٢)

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه فيما يحكى عن الكافرين في يوم الدين؛ من القول حين يقولون(١): {رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ} [ص: ٦١]، فقال سبحانه: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} يريد سبحانه: لكم ولمن قدم ذلك لكم، وبه أمركم وزينه في قلوبكم، وأدخله في صدوركم، فيقال للمجبره: أخبرونا عن الذي قدم ذلك لهم، وأدخلهم فيه، وقضى عليهم به، فإنا نجد الله سبحانه يخبر أن له ولهم ضعفاً من العذاب. فإن قالوا: إن الله قضى به، وأدخلهم (فيه) (٢) بقضائه؛ فقد زعموا أن الله سبحانه قد أوعد نفسه العذاب وأوجبه عليه؛ إذ قضى بالكفر عليهم وأدخلهم بقضائه فيه، وهذا الكفر بالله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وإن قالوا: إن الله سبحانه لم يقض بذلك عليهم، ولم يدخلهم فيه؛ وإن إخوانهم من شياطين الجن والإنس أدخلوهم فيه، وزينوه لهم وحملوهم عليه، وإنهم هم أهل الوعيد الذي ذكر الله سبحانه؛ فقد أصابوا، وخرجوا من قول المجبرة، ورجعوا إلى قول أهل العدل.

***

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه فيما يحكي عن الفاسقين، الكفرة الضآلين، حين يقولون: {رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِيْنَ} [فصلت: ٢٩]،فيقال للمجبرة: قد نجد أهل العذاب من الكفار يقولون يوم القيامة ما تسمعون، وينسبون ما كان من سبب إغوائهم وإضلالهم إلى الجن والإنس، ويبرؤون الله سبحانه في ذلك اليوم من فعلهم، وأنتم تزعمون أن الله هو الذي أدخلهم في الضلال، دون من زعم أهل الضلال. أفتقولون كما يقولون؟ أم تقولون لهم كذبتم لم يضلوكم(٣)؟ فإن قالوا كما قال الله؛ أصابوا وخرجوا من الكفر. وإن قالوا: بل الله أضلهم دون من ذكروا من الجن والإنس؛ كفروا وخالفوا قول الله.

***

(١) في (ب): يقول.
(٢) ليس في (أ).
(٣) في (أ،ج): لم يضلكم. وما أثبته من (ب) أولى.

(٦١/٢)

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه: {يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧١]، فيقال لهم: خبرونا من لبس الحق بالباطل، وخلط عليهم أمرهم، وأخرجهم من هداهم ورشدهم؛ أنفسهم أم الله؟ فقد نجد الله جل جلاله يقول ويذكر أن ذلك منهم، فما قولكم أنتم؟ فإن قالوا: هو من الكفار وليس هو من الله؛ فقد أصابوا ورجعوا إلى الحق. وإن قالوا: هو من الله بقضاء وقدر، ولولا قضاء الله وقدره(١) لم يدخلوا في ذلك، ولم يلبسوا الحق بالباطل؛ فقد كذبوا قول الله وصدقوا قول الجاهلين(٢)، وهذا هو الشرك بالله. بل قول الله هو الحق المصدَّق، وقولهم الكذب المكذب.

***

ومما يسئلون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول آدم صلى الله عليه: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} [الأعراف: ٢٣]. أفتقولون: إن آدم الذي ظلم نفسه بالخطيئة، وأساء إليها بإدخالها في المعصية، كما قال صلى الله عليه وسلم؟ أم تقولون: أن الله أدخله في المعصية، وأخرجه بالقضاء من الطاعة، وظلمه بذلك، وأن آدم وحواء؛ لم يظلما أنفسهما؟ فإن قالوا: بل الله الذي أدخلهما في المعصية بقضائه بها عليهما؛ فقد كذبوا قول آدم وما حكى الله

عنه، وفي ذلك الأمر العظيم، والجرأة على الله عز وجل وعلى آدم صلى الله عليه. وإن قالوا: بل صدق آدم؛ فقد رجعوا إلى العدل، وتركوا القول بالجبر وأسلموا.

***

(١) في (أ،ج): ولولا القضاء والقدر.
(٢) في (ب): الجاهلية.

(٦٢/٢)

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧]، يريد آثروا الضلال والغي والهوى؛ على ما إليه دعوا وبه أمروا من الهدى. أفتقولون: إنَّه كما قال الله، وإنهم آثروا العمى؛ على ما إليه دعوا من الهدى؟ أم تقولون: إنهم لم يستحبوا ولم يؤثروا العمى على الهدى، وإنهم أدخلوا في الهوى، وأخرجوا من الهدى؛ بالقضاء من الله الغالب لكل أحد، الذي لا غالب له؟ فإن قالوا: بل هم الذين استحبوا(١) ودخلوا في الهوى من أنفسهم، وخرجوا من الهدى؛ فقد آمنوا وقالوا بقول الله تعالى في ثمود.
وإن قالوا: بل الله أخرجهم من الهدى، وأدخلهم في الهوى؛ فقد كذبوا قول الله، وكفروا به، وضلوا ضلالاً بعيداً.

***

ومما يسئلون عنه قوله سبحانه: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: ٢٣]، فأخبر سبحانه أن الهدى من الله. وزعمت القدرية أن الضلال بأمر الله(٢). وإذا ثبت ذلك فالهدى من رأيهم لا من رب العالمين، لأن الهدى والضلال ضدان، مختلفان متباينان، لا يجتمعان (٣) لجامعهما في حالة، ولا يفعلهما فاعل. والقدرية تقول(٤): إن الهدى لم يأت العاصين الضآلين من رب العالمين. والله يقول: قد أتاهم الهدى من قبله، وحل لديهم من عنده؛ فتركوه ولم يفعلوه، وخالفوه ورفضوه. فأي القولين أصدق وأحق بأن يقبل؟ أقولُ الله، أم قولهم؟ بل قول الرحمن الصدق والحق، وقولهم الباطل والمحال والفسق.

***

(١) في (ج): إنهم الذين استحبوه.
(٢) في (أ): أن الضلال من الله.
(٣) في (ب): لا يجبان.
(٤) في (ب): يقولون.

(٦٣/٢)

ومما يسئلون عنه أن يقال لهم خبرونا(١) عن قول الله سبحانه؛ فيما حكى عن أهل جهنم من القول حين يقول: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّيْنَ} [المؤمنون: ١٠٥-١٠٦]. فذكر إقرارهم على أنفسهم؛ بأن الفسق والمعاصي كانت منهم، ونفاها عن نفسه أن يكون قضى بها عليهم، بل قال واحتج في ذلك عليهم بقوله: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ}؟ فأخبر أن الأمر بالطاعة لهم ونهيه إياهم عن المعصية كان في حياتهم منه إليهم، فأبوا واتبعوا الهوى، وتركوا ما به أمرهم ربهم من اتباع الهدى. ولو كان ذلك من الله نزل بهم؛ لقالوا: ربنا غلب علينا قضاؤك، ولم يقولوا: غلبت علينا شقوتنا. فإن قالت المجبرة: إن قضاء الله الذي منعهم من الطاعه، وغلبهم على المعصيه؛ فقد كذبوا قول الله.
وإن قالوا: بل هو كما قال المعذبون، وحكاه الله عنهم؛ فقد تابوا وآمنوا، ورجعوا إلى الحق والعدل. والمعذَّبون مقرون بالحق على أنفسهم، والمجبرة ترمي به الله، وتلزمه إياه، فتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

***

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} [الليل: ١٢]، ولم يقل: إن منا الضلالة والردى. فيقال لهم: أفتقولون: إنَّه كما قال: إن منه الهدى الذي ذكره الله ولم يذكر ضده؟ أفتقولون: إنّ ما ذكره عن نفسه فهو منه، وما لم يذكره فليس منه؟ أم تقولون: إنَّما ذكره ونفاه عن نفسه فهو كله منه؟ فإن قالوا: بل ما ذكر أنَّه منه فهو منه، وما لم يذكر أنَّه منه فليس منه؛ فقد رجعوا إلى الحق وآمنوا. وإن قالوا: بل ما قال إنَّه منه فهو منه، وما قال أيضاً ليس منه فهو منه؛ فقد كفروا، وكذبوا على الله.

***

(١) في (أ): أخبرونا.

(٦٤/٢)

ومما يسئلون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه فيما يحكي عن موسى عليه السلام في قتله الكافر الذي قتله عن غير دعوة منه له إلى الله، ولا معرفة أن موسى رسول الله: {قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِيْنٌ} [القصص: ١٥]، ولم يقل: هذا من قضاء الله ولا عمله(١). أفتقولون: إن ذلك كما قال رسول الله عليه السلام، وأنه من قبل الشيطان؟ أم تقولون: إن موسى عليه السلام أتي من قبل الرحمن، فإن قالوا: أتى من قبل الشيطان كما قال الله وكما قال موسى عليه السلام وهو أعرف بالله وبكل أمر كان من الله، ولو كان من الله لقال صلى الله عليه هذا من قضاء الله؛ فقد صدقوا، ورجعوا إلى الحق وتابوا، وخرجوا من الباطل وصاروا عادلين، ولنبي الله عليه السلام مصدقين. وإن قالوا: بل لم يؤت موسى في ذلك إلاَّ من الله، والله أدخله في قتله ومعصية ربه؛ بقضائه(٢) على موسى بقتل الرجل، ولولا قضاء الله لم يقتله موسى؛ كانوا في ذلك لموسى عليه السلام مكذبين، وقد زعموا أنهم أعلم بالله من موسى عليه السلام. وهذا غاية الطعن على الله عز وجل، وعلى نبيه صلى الله عليه، وفي ذلك الكفر بالله صريحاً(٣).

***

(١) في (أ): وعلمه.
(٢) في (أ): لقضائه.
(٣) في (أ،ج): صراحاً.

(٦٥/٢)

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢]، فيقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: {لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أفتقولون: إنَّه كما قال الله عنه، وإنه هداهم إلى صراط مستقيم؟ أم تقولون: لم يهدهم؟ فإن قالوا: بل هداهم بأمر الله، وذلك فعل لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم حمده الله وأثنى به فيه عليه؛ فقد صدقوا وآمنوا، وقالوا بالحق في الله وفي نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم. وإن قالوا: لم يهد محمد أحداً، وإنَّما فعل محمد هو فعل الله، والله أدخله في ذلك كرهاً، وجبره عليه جبراً، ولم يكن لمحمد فيه فعل؛ فقد زعموا أن الله مدح محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بفعله، لا بفعل محمد نفسه، وأنه أثنى عليه بغير ما اكتسب وفعل، وهذا غاية الفسق.

***

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان: ٣]، فأخبر جل جلاله أنَّه هدى الخلق، ولم يهد من عصاه، وخالف أمره وأباه، وأنه قد اهتدى بهداه الموقنون(١)؛ فكانوا هم الشاكرين، وكان المخالفون هم الكافرين. فإن قالوا بهذا؛ آمنوا، واهتدوا وصدقوا. وإن قالوا: بل نقول: إن شكر من شكر وكفر من كفر من الله، وبقضاء منه، وإدخال لهم فيه؛ كان ما كان من ذلك؛ أبطلوا قول الله وكذبوا(٢)، وخرجوا من الإسلام بذلك.

***

(١) في (أ): المؤمنون.
(٢) في (أ،ج): وكذبوه.

(٦٦/٢)

ومما يسئلون عنه، ويكذبون به في قولهم؛ قول الله عز وجل فيما يحكي عن الفاسقين، من القول والإقرار على أنفسهم في يوم الدين، من قوله سبحانه: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِيْنَ} [سبأ: ٣١]، ولو كانوا أتوا من قبل الله؛ لقالوا: لولا الله لكنا مؤمنين، ولكن ذلك اليوم يوم لا يقال فيه إلاَّ بالحق، ولا ينفع فيه إلاَّ الصدق. فماذا تقول القدرية والمجبرة أهُوَ كما ذكر الله عمن يقول ذلك أم لا؟ فإن قالوا: بل هم كاذبون، وإنَّما أتوا من قبل الله لا من قبل المشركين،من إخوانهم المجرمين؛ فقد قالوا باطلاً وزوراً، وقد أكذبهم المستكبرون في قولهم؛ لأنهم يزعمون أن المستضعفين من قبل الله أتوا وصدوا، وقد قال المستكبرون للمستضعفين في ذلك اليوم وفي ذلك الموقف مجيبين. وكلتا الفرقتين(١) المستضعفين والمستكبرين لم يقولوا كما(٢) قالت القدرية، بل كلتاهما برأت الله من ذلك سبحانه وجل جلاله؛ ولم تقولا فيه بقول القدرية.

***

ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، والإزاغة منه هاهنا فهي: الخذلان لهم، والتبري منهم، فلما تبرأ منهم، وعدموا(٣) التوفيق، وفقدوا الترشيد؛ زاغوا، وتزايدوا في الردى، والزيغ عن الهدى.

(١) في (ب): الفريقين.
(٢) في (أ) و(أ): بما.
(٣) في (أ): أعدموا.

(٦٧/٢)

أفتقولون: إن الله عز وجل ابتداهم بالزيغ كما تذكرون، أم بقول الله وما ذكر عن نفسه تقولون؟ فإن قالوا: بل هو ابتداهم بالإزاغة قبل زيغهم، وقضاه عليهم(١)، وأدخلهم فيه؛ كفروا بإكذابهم قول ربهم، لأنَّه يقول: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، والقدرية تقول بل الله سبحانه بالزيغ ابتداهم. وإن قالوا: إن الإزاغة من الله عقوبة لهم، على زيغهم عن الهدى، وتركهم ما أمروا به من التقوى؛ قالوا بالحق، وتعلقوا بالصدق، وشهدوا لله بما شهد لنفسه. وفي ذلك ما يقول الرحمن الرحيم: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، ويقول سبحانه: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال: ٥٣].

***

(١) في (أ،ج): وقضى به.

(٦٨/٢)

ومما يسئلون عنه من قول الله سبحانه؛ مما يبطل ما في أيديهم قوله سبحانه: {فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُوْنَ هَذَا مِنْ عِنْدِاللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنَاً قَلِيْلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيْهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقره: ٧٩]. فأخبر سبحانه أنهم مختارون(١) لكتاب ما كتبه(٢) المشترون المكتسبون لفعل ما فعلوا(٣) (وأوعدهم على ذلك، وأخبرهم أنهم من أهل النار، والويل لهم إذا فعلوا)(٤)، مالم يرد، وما لم يشاء. وقالت القدرية: إن الله أدخلهم فيما عنه نهاهم، وإن ذلك الكتاب منه، ولولا أنَّه قضى به عليهم وجعله فيهم؛ لم يفعلوه، ولم يكتبوه. فأكذبوا قول الرحمن، وصدقوا قول الشيطان، وزعموا أنهم أعلم بقول(٥) الكاذبين المجرمين؛ من رب العالمين، وادعوا أن قولهم الصدق، وزعموا بذلك أن قول ربهم باطل، وأنه ادعى عليهم ما لم يفعلوه(٦)، ورماهم بما لم يكتسبوا(٧)، وأنه فعل ذلك بهم، وذكره عنهم، ورده عليهم. كان لم يسمعوا قول الله عز وجل وذمه لمن كان كذلك، أو قارب شيئاً من ذلك، حين يقول: {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيْئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيْئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيْناً} [النساء: ١١٢]!!.

***

(١) في (ب): يختارون.

(٢) في (أ): ما كتبوه المشترون، وهو على لغة: أكلوني البراغيث.
(٣) في (أ): ما فعلوه.
(٤) سقط من (ب).
(٥) في (أ،ج): بأمر.
(٦) في (أ): يفعلوا.
(٧) في (ب): يلبسوا.

(٦٩/٢)

ومما يسئلون عنه قول الرحمن الرحيم، الواحد الكريم: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيْدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيْدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} [الذاريات: ٥٦- ٥٧]. فأخبر سبحانه أنَّه خلقهم لعبادته وطاعته، ومن أطاعه أدخله الجنة. وزعمت القدرية أنَّه خلق الخلق من الجن والإنس ليعبدوا غيره وليطيعوه، وأنه خلق الكافر كافراً في بطن أمه. والله يقول غير ذلك، ويكذبهم في قولهم، ويرد عليهم في كذبهم، بقوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}.
ومما يسئلون عنه قول الله سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} [التوبة:١٥٥].
(تم كتاب الرد إلى هاهنا ولم ينقص منه شيء بحمد الله وعونه)(١).
الرد على سليمان بن جرير
بسم الله الرحمن الرحيم
ذكر الهادي عليه السلام ومن وافقه من العلماء ـ ما خالفه في ذلك إلاَّ سليمان بن جرير، وهو ممن يدعي العلم وهو من المجبرة ـ أن الرضى، والسخط، والولاية، والمحبة، من صفات الفعل، وأنها محدثه، وأنه تعالى لا يسخط ولا يرضى، ولا يوالي ولا يعادي؛ إلاَّ عند وجود الأفعال من العبد الَّتِي يستحق بها ذلك، وذكر عن سليمان بن جرير أنَّه قال: إن الله تعالى لم يزل ساخطاً على من علم أنَّه يعصيه، وراضياً على من علم أنه سيطيعه(٢)، موالياً من لم يوجد من أوليائه، معادياً لمن هو معدوم من أعدائه؛وأن العبد قد يكون مؤمناً والله معاد له، ساخط عليه؛ إذا كان ممن يكفر في آخر عمره، ويكون راضياً عن الكافر، موالياً له، محباً له؛ إذا كان يؤمن في آخر أمره(٣).

(١) سقط ما بين القوسين من (أ،ج).
(٢) في (ج): يطيعه.
(٣) في (ج): عمره.

(٧٠/٢)

قال الهادي إلى الحق عليه السلام: واعلم أن السخط، والرضى، والولاية، والمحبة، كما ذكرنا من صفات الأفعال، والسخط: اسم لكراهية الفعل إذا وقع، لوجود المكروه، وكذلك الرضى هو: اسم لإرادة الفعل؛ إذا وقع من العبد من الوجوه(١) المرادة، وكذلك يوصف من أراد فعل غيره، ووقع على مراده وعلى ما أراد، لأنه(٢) راض عنه، ويوصف من كره فعل غيره، ووقع على ما كرهه؛ بأنه ساخط له، وكذلك يوصف العبد بما دخل تحته من الأفعال، وقد يقال في الفعل الواحد: إن زيداً راض به، وعمراً ساخط له؛ إذا أراده زيد وكرهه عمرو. وإذا لم يكن حقيقة السخط والرضى ما ذكرنا؛ لم يمتنع أن تكون هذه الصفات(٣) من صفات الذات، وإذا كانت(٤) كذلك فكان من علم أنه يطيعه مرضياً عنه وهو في حال كفره، وإذا كان العلم هو الموجب للطاعة والمعصية؛ فلا يخرج(٥) العبد إذاً من ذلك.
قال الهادي عليه السلام: وقد يكون العبد في المعاصي الجليلة؛ فيكون الله ساخطاً عليه، معادياً له؛ ثُمَّ ينتقل إلى الطاعة، فينتقل عليه ضد ذلك، من الرضى والولايه، والمحبة والمعونة له، وقد يكون في طاعة الله عز وجل فيكون الله راضياً عليه؛ ثُمَّ ينتقل إلى المعاصي؛ فينتقل عليه ضد ذلك الرضى، وهو السخط.

(١) في (ج): على الوجوه.

(٢) في (ج): بأنه.
(٣) في(أ) و (ج): الصفة.
(٤) في (ب): وكذلك.
(٥) في (أ): فلا مخرج للعبد إذاً.

(٧١/٢)

واعلم أن الرضى بالفعل، هو غير الرضى عن الفاعل، وإنَّما يرضى عن الفاعل إذا أتى كمال مراده منه، ولأن العبد قد يرضي الله في جميع أفعاله، ويسخطه في وجهٍ، يبين ذلك أن الصغيرة الواقعة من الأنبياء عليهم السلام مسخطة لله، وإن كان سائر أفعالهم مرضية له. ويبين(١) ذلك أيضاً أن الواحد منا قد يكون مرضياً لغيره في وجه، ومسخطاً له في آخر. وكذلك في طاعة الكافر وكفره، فإذا صح ذلك لم يجز متى رضي تعالى ببعض أفعال المكلف، أن يكون راضياً عنه، لأن الرضى هاهنا معلق بالفعل، وإنَّما يتعلق الرضى بالفاعل إذا أرضى الله عز وجل في أفعاله، على قولنا في استحقاق المدح والثواب، فإذا كان العبد مسخطاً لله في وجه، ومرضياً له في وجه؛ قيل: إن الله راض ببعض فعله، ساخط لبعضه، ولم يتعلق السخط والرضى هاهنا بالفاعل، فإذا عُلق بالفاعل كان محالاً أن يوصف الله بأنه راض على من هو ساخط عليه.
فأما الولاية من الله تعالى للمؤمنين؛ فإنما يتولى تعظيمهم ومدحهم، ويأمر بذلك بعد استحقاقهم لذلك بأفعالهم.
وأما العداوة فحقيقتها إنزال المضار بالعاصي، واستعمال العداوة لله من الكافر مجاز؛ لأن الكافر لا يقدر على إنزال المضار به تعالى، وإنَّما يوصف بذلك من حيث كان عدواً لأوليائه، والمحبة من الله للمؤمنين فإنما المراد بها منه إيصال المنافع إليهم تفضُّلاً واستحقاقاً.

---
(١) في (أ): ويبين مهملة.

(٧٢/٢)

واعلم أن هذه الصفات إرادة من حيث كان عدوّاً لأوليائه(١)، والمحبة من الله للمؤمنين، فإنما يجوز أن يريد الأفعال ويكرهها. والإرادة فقد صح أنها من صفات الفعل، وإنَّما يجب أن لا يجيز هذه الأوصاف على الله عز وجل من لا يثبته مريداً على الحقيقة ولا كارهاً، فإذا صح أنها من صفات الفعل؛ وجب القضاء بأنه إنَّما سخط ورضي بعد وجوب ما يوجب ذلك، وذلك لا يجوز إلاَّ بعد التكليف، وبعد تصرف المكلفين بالطاعة والمعصية؛ لأن جميع ذلك منه تعالى جزاء على الأفعال، ولا يحسن مجازاة الفاعل قبل إقدامه على الفعل، وذلك بين لا يحتاج(٢) فيه إلى إطناب.
فأما ما ذكر عن سليمان بن جرير فإنما أتي فيه من قبل قوله بأنه يقول: إن الله تعالى لم يزل مريداً، ويثبت ذلك من صفات الذات؛ فقال ما قاله، وقد دللنا على بطلان(٣) ذلك؛ ببطلان أصله الذي يتعلق به في أن الإرادة من صفات الذات.
ومما يبين فساد ذلك أن الساخط إنَّما يحسن منه أن يسخط على من فعل قبيحاً من [حيث] علمه فاعلاً لذلك القبيح، لا لعلمه بأن الفعل المسخط له سيقع. ألا ترى أن ذلك يقبح قبل وقوع القبيح، كما يقبح منا أن نعاقب بالضرب والإيلام من لم يأت ما يستحق ذلك منه. فإذا ثبت ذلك؛ لم يجز منه تعالى أن يسخط على المؤمن من حيث علم أنَّه سيكفر في آخر أمره، ولو حُسن ذلك منه؛ لحسن أن يسخط عليه ويعاقبه، ويحرمه(٤) في حال إيمانه؛ لعلمه بما سيقع منه، لأنَّه بعلمه عاقبه لا بفعله، لأنَّه لم يقع منه فعل يوجب عقابه، لكن بعلمه عاقبه ولو حسن ذلك منه لحسن أن يعاقبه، وأن يقدره على الطاعة، ويحسن(٥) أيضاً أن يعاقبه مع أنَّه المانع له من الطاعة، وفساد ذلك ظاهر، وهذه طريقة ما سلكها أحد من الأئمة،ولا من العلماء من غيرهم، سوى هذه المجبرة فاعلم ذلك.
تم والحمدلله وصلى الله على سيدنا محمد وآله.
****

---
(١) كذا في النسخ.
(٢) في (ب): أبين مما.

(٣) في (ج): إبطال.
(٤) في (أ) ويخترمه.
(٥) في (أ): ولحسن.

(٧٣/٢)

رسائل وكتب
في
النبوة
إثبات النبوة
m
سألت أكرمك الله(١) فقلت: إن سألني ذمي عن اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أين تثبت؟
فقلتَ: ما أقول له؟
الجواب في ذلك أن يقال له: ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصحت؛ من حيث ثبتت نبوة موسى وعيسى صلوات الله عليهما، والذي ثبتت به نبوتهما في بني إسرائيل، ووجبت طاعتهما؛ فبه ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم سواءً سواء.
فإن قال: وما ذلك الذي ثبتت به نبوتهم؟
قيل له: هي: المعجزات التي أتوا بها، والآيات التي أظهروها، التي لا ينالها مخلوق، ولا تكون إلاّ من الخالق، ومعجزات كل واحد منهم معروفة عند أهل العلم، وقد شرحنا ذلك في مسائل ابني أبي القاسم(٢)، التي في إثبات النبوة والوصية والإمامة.
والجواب في مسألتك هذه للمسلم والذمِّي سواء.
ويقال: إن كانت معجزات موسى وعيسى أثبتت نبوتهما (على أممهما، فقد أثبتت نبوة محمد معجزاته على جميع الخلق، وإن لم تكن معجزاتهما أثبتت نبوتهما) (٣) عندك؛ فأخبرنا: بم تثبت نبوتهما مما هو غير ذلك؟ حتى نأتيك في محمد صلى الله عليه وسلم بحجج تقطعك وتقمعك.
فلا تجد بداً إن شاء الله أن تقول: إن المعجزات من الآيات هن اللواتي يثبتن ويصححن النبوة، ويقمن لله ولرسوله الحجة على الأمة.

---
(١) لا نعرف من هو السائل ولعله من الطبريين أو من أهل اليمن والله أعلم.
(٢) هو الإمام محمد بن يحيى المرتضى عليه السلام.
(٣) سقط من (ب).

(٧٤/٢)

فإذا أقر بنبوة محمد لثبات الحجة عليه، ووضوحها لديه، ولزومها له ـ إذ إقراره بها يثبت نبوة نبيه، ومكابرتُه فيها وقولُه بالدفع لها؛ يُبطِل قوله في نبيه ـ قيل له: اتق الله، وأجب محمداً داعياً إلى الله ورسُوله إليك وإلينا.
فإن قال: قد أثبتم علي الحجة بما لم أقدر أن أدفعه في إثبات نبوته؛ إلاَّ أن أدفع نبوة نبيي؛ فقد أقررت لكم بنبوته حين اضطررت إلى ذلك؛ فهو نبيكم ورسولكم، وليس إلينا برسول.
قيل له: بل هو رسول إليك وإلى آبائك من قبلك(١)، بإقرارك لا بإنكارك، فقد أقررت بذلك ولزمك؛ من حيث ثبتت عليك الحجة في الإقرار بنبوته، وإن كنت لم تعقل ذلك ولم تفهمه، ولم يحط به عقلك فيعلمه.
فإن قال: ومن أين حكمت عليّ بذلك، وجعلتني في الحكم كذلك؟ أبنْ لي بذلك قولاً صواباً، وأزح لي به شكاً في قلبي وارتياباً.
قيل له: ألست قد أقررت بأنه رسول الله ونبيه؟ فلا يجد بداً من أن يقول: نعم. فيقال له: هل يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم أن تأتي بشيء من أنفسها؛ ثم تزعم أنَّه من الله دونها، وفي ذلك مالا يخفى عليك من الكذب على الله، وحاشا لرسل الله صلوات الله عليهم من ذلك. فلا يجد بداً من أن يقول: لا يجوز ذلك في الأنبياء صلوات الله عليهم والرسل.
فإذا قال ذلك، قيل له: أفليس القرآن الذي جاء به محمد من الله، وذكر أنَّه من الله؛ هو من الله، فلا يجد بداً أن

يقول: نعم، هو قرآن بعث به إليكم دوننا. فإذا قال ذلك، قيل له: قد أقررت بنبوءته صلى الله عليه، وأقررت بالكتاب الذي جاء به أنَّه حق من الله؛ فقد وجدنا في هذا الكتاب تصديق إرسال محمد إليكم.
فإن قال: وأين ذلك؟

(١) في (أ، ج): من قبل.

(٧٥/٢)

قيل له: هو قول الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفتح: ٨ - ٩]. وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، ويقول: {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [البقرة: ٤١]. فكل هذا القول - الذي في الكتاب - الذي لم تجد بداً أن تقر به أنَّه من عند الله؛ فإن بطل منه حرف بطل كله، وإن ثبت أنَّه من الله؛ ثبت ووجب عليك ما أمرك الله به فيه، ولزمك الإيمان به والتصديق؛ إذ قد أقررت بنبوءة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يجد حينئذ الذميُّ بداً أن ينصف فيقر بالحق، أو يكابر بعد ثبات الحق وبيان،، فيستدل بمكابرته على جهله وحمقه، ويستغنى بظهور جهله عن مناظرته؛ لأن الجاهل المكابر محيل، وصاحب المحال لا حجة معه.
تم ذلك
تثبيت نبوة محمد
صلى الله عليه وآله وسلم
m
(قال يحيى بن الحسين بن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم): إن سأل سائل فقال: ما الدليل على نبوة محمد صلى اللّه عليه وآله؟
قيل له: الدلائل كثيرة على ذلك، ولكن ليس لمنكر أن يسألنا عن هذه المسألة إلا أن يكون من أهل الكتب الذين أجمعوا معنا على التوحيد والنبوات. وأما الملحدون فليس لهم أن يسألونا عن تصحيح النبوة، وهم لم يؤمنوا برب الأنبياء عليهم السلام.

(٧٦/٢)

فمن سألنا من اليهود والنصارى، وأهل الكتاب المقرين بالتوحيد، قلنا لهم: الدلائل كثيرة على تصحيح نبوته عليه السلام، وذلك أنَّه أتى بما يعجز الخلائق عن مثله، فلما أن أتى بما يعجز الخلائق عن مثله؛ علمنا أنَّه ليس في قدرة المخلوقين فعله، وأنه لم يفعله إلاَّ الخالق، ولم يضعه إلاَّ على يدي أمين صادق.
فإن قال: فما الأعلام التي جاء بها تعجز الخلائق عن مثلها؟ قلنا له: ذلك أكثر من أن يحصى.
منه الماء القليل الذي سقى منه العالم الكثير.
ومنه الخبز القليل الذي أطعم منه البشر الكثير.
ومنه أن ذئباً تكلم على نبوءته.
ومنه أنَّه أمر شجرة فأقبلت تحد الأرض، ثم أمرها فرجعت.
ومنه كلام الذراع المسمومة له. وواحدة من هذه الأعلام تجزي، بعد أن تكون معجزة للخلق.
فلما أن أتى صلى الله عليه بهذه المعجزات(١) التي ذكرنا، علمنا أنَّه نبي صلى الله عليه وآله.
فإن قال: فما الدليل على أنَّه جاء بهذه الأعلام التي تذكرها، ومن خالفك لا يقر لك بذلك؟
قيل له: الدلائل على ذلك: الأخبار المتواترة، التي لا يجوز على مثلها الشك، عن قوم متفرقي(٢) الديار، بعيدي الهمم، مختلفي التجارات والصناعات، والألسن والألوان، يعلم أن مثلهم لا يجوز عليهم الإجتماع والتواطؤ، فلما أجمعوا ينقلون هذا الخبر؛ علمنا عند خبرهم - إذ جاء هذا المجيء - أنَّه حق وصدق؛ لأنه لو جاز على مثل ما ذكرنا التواطؤ (على الكذب)(٣) لكنا لا ندري لعلنا إذا دخلنا مثل البصرة والكوفة، أو بعض هذه الأمصار التي لم ندخلها؛ فقيل لنا: هذه مكة، هذه الكوفة، وهي المدينة، أنهم قد كذبوا، وأن أهل البلد قد تواطؤا على أن يخبرونا بخلاف ذلك.

فإن قلت: لا يجوز لأهل بلد واحد أن يتواطؤا، ويجتمعوا على شيء واحد.

(١) في (أ): الأعلام نخ، وفي (ج): بهذه المعجزات الأعلام.
(٢) في (أ، ج): مفترفي.
(٣) زيادة من (ج).

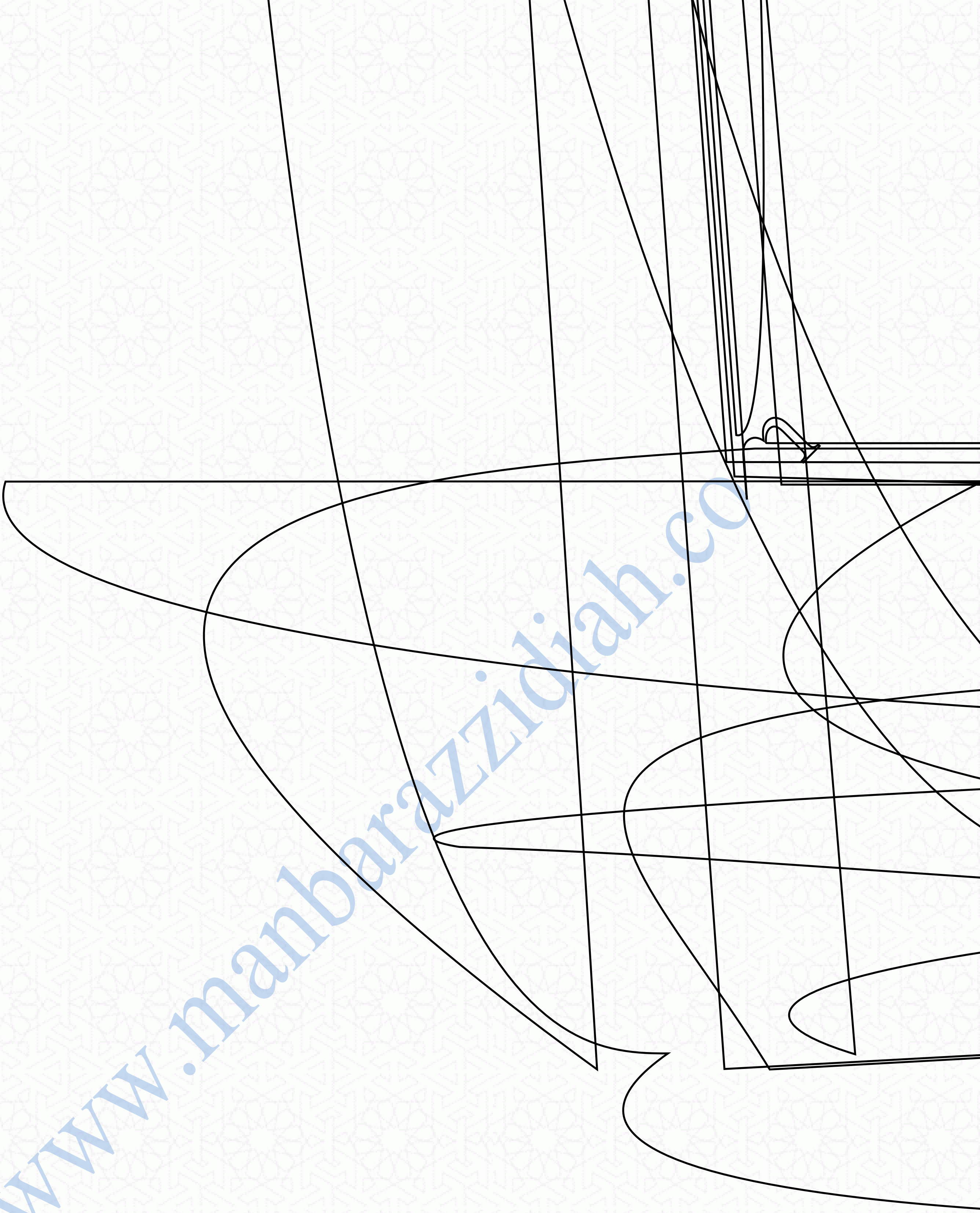
(٧٧/٢)

قلنا: وكذلك لا يجوز أن يكون من خبرنا عن نبينا محمد عليه السلام أنَّه فعل كذا، أو جاء بكذا، وأخبر عن كذا؛ أن يكونوا كذبوا؛ لاختلاف أجناسهم، وبعد هممهم.
فإن كان السائل يهودياً فارجع عليه؛ فقل: بما صح عندك نبوة موسى؟ فإنه يقول: بالإعلام التي جاء بها، التي تعجز الخلائق عن مثلها.
قيل له: وبما علمت أنَّه جاء بالأعلام؟ فإن قال: بأخبار من خالفنا، فلما أن اجمعتم معنا والنصارى معكم مع خلافكم لنا؛ علمنا أن مقالنا كما قلنا، وأن خبرنا حق.
قلنا له: فأخبرنا عن أسلافكم الذين كانوا قبل أن تكونوا، إذ كانت النصارى لم تصح لكم نبوة موسى.
فإن قال: بلى.
قيل: ولم وبما، وليس هناك مسلمون ولا نصارى يجمعون معك، وزعمت أنَّه لا يصح الخبر إلاَّ بإجماع من خالفك بعدُ؛ فلو آمن الناس كلهم بموسى وصاروا على دينك بطلت نبوة موسى، إذ زعمت أن الأخبار لا تصح إلاَّ بالمخالفين. فبهذه وللنصارى مثلها على اليهود فافهمها.
ومن دلالته صلى الله عليه وعلى أهل بيته وعلامته هذا القرآن، لا يقدر أحد أن يدعيه، ولا أنَّه جاء به أحدٌ غيره صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قد أعجز أهل دهره من الفصحاء والبلغاء، فلم يقدر إلى يومنا هذا كلُّ الخلق أن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، ليس يشبه(١) الشعر، ولا الرجز، ولا الخطب، بأَن من كلام المخلوقين، وفيه أخبار الأولين والآخرين، وبعثه صلى الله عليه والعرب متوافرة، ليس فخرهم إلاَّ الشعر والبلاغة والخطب، فتحداهم بأجمعهم من أن يأتوا بسورة من مثله، عجزوا(٢) وأقروا بالعجز، فعلمنا - إذ عجزوا أن يأتوا بمثله وهو بلغتهم - أن غيرهم أعجز، وعلم أهل النهى - إذ عجز الخلائق عن مثله - أنه من عند أحكم الحاكمين، وأنزله على رسوله صلى الله عليه نوراً وهدىً للعالمين.

(١) في (ب): يشبهه.
(٢) كذا في النسخ.

(٧٨/٢)

ومن معجزاته أن قوماً من آل ذريح وهم حي من أحياء العرب، وهم بمكة؛ أرادوا أن يذبحوا عجلاً لهم، وذلك في أول مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أضجعوه ليذبحوه أنطق الله العجل فقال: يا آل ذريح، أمر نجيح، صائح يصيح، بلسان فصيح، يؤذن بمكة لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله؛ فتركوا العجل، وأتوا المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائم في المسجد وهو يقول: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأني محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
ذكر خطايا الأنبياء
صلوات الله عليهم
مما سأله إبراهيم بن المحسن العلوي رحمة الله عليه (١)
m
[قصة آدم عليه السلام وإبليس وخطيئة آدم]
سُئل الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات الله عليه عن قول الله تبارك وتعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ}[البقرة: ٣٤، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦] كيف كان السجود من الملائكة صلوات الله عليهم؟
فقال: معنى {اسْجُدُوا لآدَمَ}؛ إنما أراد بذلك: أسجدوا من أجل (٢) آدم؛ تعظيماً لخالقه؛ إذ خلقه من أضعف



فقال: إنما كان جبريل عليه السلام ينزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم على صورة(١) لطيفة يقدر على رؤيتها وعيانها. وصح عندنا أن النبي محمداً عليه السلام رأى جبريل في صورة ((دِحْيَة الكلبي (٢)))، وإنما ذلك خلق احدثه الله فيه، وركبه عليه؛ لما علم من ضعف البشر، وأنهم لا يقدرون على النظر إلى خلق الملائكة؛ لعظيم خلقهم، وجسيم مركَّبهم. فلما علم الله تبارك وتعالى من محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ـ ولم يكن جبريل عليه السلام يقدر على تحويل صورته ومركَّبه من حال إلى حال؛ لضعف المخلوقين وعجزهم عن ذلك ـ نقله الله سبحانه على الحالة التي رآه محمد عليه السلام فيها، نظراً منه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وما فعله الله فليس من فعل خلقه. فلك في هذا كفاية إن شاء الله.

قلت: فهل كان آدم صلى الله عليه طمع في الخلود؛ لما قاسمه (عليه)(٣) إبليس على النصح؟ قال: إنما كان ذلك منه صلوات الله عليه طمعاً أن يبقى لطاعة الله ولعبادته، فأراد أن يزداد بذلك قربة من ربه.

قلت: فما معنى قوله: {فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا}[طه: ١٢١]؟

قال معنى قوله: {بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا}؛ فهو سوء فعلهما، لا كما يقول من جهل العلم، وقال بالمحال: إن اللّه كشف عورة نبيه وهتكه. وكيف يجوز ذلك على الله في أنبيائه؛ والله لا يحب أن يكشف عورة كافر به؟ فكيف يكشف عورة نبيه؟

---

(١) في (أ): في خلقةِ صورةٍ.

(٢) هو: دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابي جليل، نزل المِزَّة، ومات في عهد معاوية.

(٣) ليس في (ج).

(٨٢/٢)

قلتُ: فقوله (١): {يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا}[الأعراف: ٢٧] فقال: قد اختلف في ذلك، ورويت فيه روايات. وأصح ما في ذلك عندنا، والذي بلغنا عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أن لباسهما هو لباس التقوى والإيمان، لا ما يقول به الجاهلون من أنّه لباس ثياب، أو ورق من ورق الشجر. فهذا معنى قول الله: {يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا}، وإنما أراد بذلك من قوله: {لِبَاسَهُمَا} أي لباس التقوى، بما سوَّل ووسوس لهما من الكذب والمقاسمة التي سمعها منه.

قلت: فقوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ}[الأعراف: ٢٢] قال: إنما كانا في الجنة في ظلها وتحت أشجارها، فلما أخرجا منها(٢) وأصابتهما الشمس بحرها ورمضاء(٣) الأرض، فأرادا أن يجعلا لهما موضعاً يكون لهما فيه ظلال، كما يفعله من خرج من منزله في سفر ونيته إلى غيره من البوادي وغيرها، فلا يجد ظلالاً(٤) ولا مسكناً، فلا يجد بداً من أن يعرش عريشاً يُكِنّه، ويستره من الحر، ويقيه من شدة البرد. فهذا معنى قوله: {يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا}.

قلتُ: فالجنة التي كانا فيها، أفي السماء كانت، أم في الأرض؟

قال: هي جنة من جنان الدنيا، والعرب تسمي ما كان ذا ثمار وأنهار جنة.

قلت: فقوله: {اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً}!

قال: ذلك جائز في لغة العرب ، ألا ترى أنك تقول: هبطنا نجران، وهبطنا اليمن، ونريد أن نهبط الحجاز. فلما كان ذلك معروفاً في اللغة؛ جاز أن يقول: {اهْبِطُوا مِنْهَا}.

وسألته عن قول الله تبارك وتعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيهِ}[البقرة: ٣٧]، ما الكلمات التي تلقاها آدم من ربه؟

---

(١) في (أ): فكيف ينزع.

(٢) في (أ، ج) خرجا.

(٣) في (أ، ج): ورمض.

(٤) في (أ، ج): ظلاً.

(٨٣/٢)

قال: قد اختلف فيها، والصحيح عندنا أن الكلمات: هو ما كان الله تبارك وتعالى قد أعلمه؛ بخلق من سيخلقه من ذرية آدم ونسله، وأنه سيكون منهم مطيع ومنهم عاص باختيارهم، وأنه سبحانه يقبل التوبة من تائبهم، إذا تاب وأصلح، وأخلص التوبة وراجع. فلما كان منه ما كان من أكل الشجرة؛ ذكر ما كان الله قد أعلمه من القبول للتوبة؛ فقالا {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.[الأعراف: ٢٣] فهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه صلوات الله عليه.

[قصة سليمان وخطيئته عليه السلام]

وسألته عن قول الله سبحانه: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ}[ص: ٣٤].

(٨٤/٢)

فقال: معنى قوله: {فَتَنَّا سُلَيمَانَ}، يقول: امتحناه، وإنما كان ذلك من أجل ما سألته مَلِكَةَ سبأ؛ من طلبها حين طلبت منه قرباناً تقرب به على ماكانت تفعل في قديم أفعالها، فسألته صلى الله عليه أن يأذن لها في بقرة فلم يجبها، ثم سألته شاة فكره ذلك عليها، ثم طيراً فأعلمها أن ذلك لا يحل لها، فوقعت في صدرها جرادة؛ فقالت: فهذه الجرادة إئذن لي فيها، فتوهم وظن أنها مما لا إثم عليها فيها؛ إذ كانت مما لا يقع عليه ذَكَاة، فسكت ولم يمنعها عن ذلك؛ فقطعت رأس الجرادة وأضمرت أنها قربان. فلما خرج صلى الله عليه يريد أن يتطهر على جانب البحر؛ نزع خاتمه من يده، وكان لا يتطهر حتى ينزع الخاتم من يده، وهذا الواجب على كل متطهر، إذا أراد أن يتطهر من جنابة أو غيرها للصلاة، أن ينزع خاتمه، أو يديره في إصبعه حتى يصل الماء إلى البشر(١) الذي يكون تحته، وينقى من الدرن ما حوله. فلما نزع الخاتم ومضى لطهوره، خرج حوت من البحر فابتلع الخاتم وذهب في البحر، فلما فرغ سليمان من طهوره؛ نظر إلى الموضع الذي كان وضع فيه خاتمه فلم يجده، فعلم أن ذلك لسبب قد أحدثه، وأن الله سبحانه أراد بذلك فتنته، فدعا الريح فلم تجبه، ثم دعا الطير فلم تجبه، ثم دعا الجن فلم تجبه، لما ذهب عنه الخاتم، وإنما كان الخاتم سبباً من الله لملكه قد جعله الله فيه، وبه كان يطاع؛ فعلم سليمان أن العقوبة قد وقعت، ووثب العفريت الملعون على سريره عند ذلك وهو مُلْكُه، فكان يتكلم على شبه كلام سليمان عليه السلام، وهو من وراء حجاب، لا يظهر ولا يرى له شخص، ودعا فلم يجبه إلاَّ الإنس، ومضى سليمان باكياً نادماً على فعله، وجعل يتبع الصيادين على سواحل البحر يخدمهم ويعينهم، وهم لا يعرفونه، ولا يعلمون أنَّه سليمان، فأقام على ذلك وقتاً اختلفت(٢) فيه الرواة، فقال بعضهم: أقام أربعين يوماً. وقال آخرون: بل مكث

---

(١) في (ج): إلى الشعر، وما هنا نخ.

(٢) في (ب): وقد اختلفت.

(٨٥/٢)

خمسين يوما. وقال قوم: سبعين يوماً، وهذا أكثر ما قيل فيه؛ فجعل يتبعهم ويعمل معهم، ويعطونه في كل يوم حوتين، فيبيع أحدهما فيشتري به خبزاً، ويشوي الآخر فيأكله. فلما علم الله منه التوبة والرجوع، والإنابة والخضوع؛ أراد أن يرد عليه نعمته؛ فانصرف ذلك اليوم ومعه الحوتان (١) اللذان عمل بهما يومه ذلك؛ فشق بطن أحدهما على ما كان يفعل، فإذا بالخاتم قد خرج من بطن الحوت؛ فعرفه عند ذلك؛ فأخذه وشكر الله، وحمده على ما أولاه. ثم دعا الريح فأجابته، وكان قد أبعد من بلده، فأمر الريح فاحتملته من ساعته إلى موضعه، وهرب اللعين العفريت لما رآه، وقال(٢) بعض الرواة: إنَّه كان حبسه، ورد الله على نبيه ملكه، ورجع إليه ما كان الله قد أعطاه، فدعا الطير والريح والجن فأجابته، ودامت نعمته.

قلت: فما الجسد (٣) الذي ألقي على كرسيه، هل كان جسماً يظهر ويرى؟

قال: لا، إنما كان الذي يظهر إليهم منه ما يسمعون من كلامه، وكان مستتراً عنهم، فكانوا يظنون أنَّه سليمان. وإنما احتجب عنهم بسبب(٤) أمره الله به، أو فعل فعله من نفسه، فلو ظهر لهم لبان أمره عندهم، ولكن تمكن منهم بالتمويه عليهم والمكر لهم.

قلت: فهل نال من الخدم منالاً، أو وصل إليهم بسبب من الأسباب؟

قال: معاذ الله أن يكون نال شيئاً من ذلك أو فعله، غير الذي شرحته لك من كلامه فقط.

[قصة يونس عليه السلام وخطيئته]

وسألته عن قول الله سبحانه: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيهِ}[الأنبياء: ٨٧].

(١) في (ب، ج): الحوتيان.
(٢) في (ج): قال.
(٣) في (أ): فالجسد.
(٤) في (ج): لسبب.

(٨٦/٢)

فقال: أما ذو النون فهو يونس، والنون فهو الحوت. وأما قوله: {إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً}؛ فإنما كان ذهابه غضباً على قومه، واستعجالاً منه دون أمر ربه، لا كما يقول الجهلة الكاذبون على أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم؛ من قولهم: إن يونس خرج مغاضباً لربه، وليس يجوز ذلك على أنبياء اللّه صلوات اللّه عليه، وإنما كان ذلك كما ذكرت لك، من غضبه على قومه، ومفارقته لهم واستعجاله دون أمر ربه، وهو قوله لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: {وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}[ن: ٤٨] وهو يونس، يقول: لا تعجل كعجلته، واصبر لأمري وطاعتي، ولا تستعجل كاستعجاله. فهذا معنى قوله: {إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً}. وقوله: {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيهِ}، أراد بذلك من قوله: {فَظَنَّ} أي أفظنَّ أن لن نقدر عليه؟ وهذا على معنى الإستفهام. ولم يكن ظن ذلك صلى الله عليه.
وهذا مما احتججنا به في الألف التي تطرحها العرب وهي تحتاج إلى إثباتها، وتثبتها في موضع وإن لم تحتج إليها، مثل قوله: {لاَ أُقْسِمُ}، وإنما معناها ألا أقسم، وقوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ}[البقرة: ١٨٤]، فطرح الألف (١) وهو يريدها. ومن ذلك قول الشاعر:
نزلتم منزل الأضياف منا...فعجَّلنا القِرَى أن تشتمونا
وإنما أراد أن لا تشتمونا، فطرح الألف واللام. ومثل هذا كثير في الكتاب، وهو حروف الصفات.

(١) في هامش (ج): فطرح لا، نخ.

(٨٧/٢)

فلما صار يونس في السفينة، وركب أهلها واستقلت بهم، وطابت الريح لهم، أرسل الله حوتاً فحبس السفينة، فعلم القوم عند احتباسها أنها لم تحبس بهم إلاَّ بأمر من الله قد نزل بهم، فتشاور القوم بينهم، وتراجعوا القول في أمرهم وما قد نزل بهم وأشفقوا، فقال لهم يونس: يا قوم أنا صاحب المعصية، وبسببي حبست بكم السفينة، فإن أمكنكم أن تخرجوني إلى الساحل فافعلوا، وإن لم يمكنكم ذلك فالقوني في البحر وامضوا؛ فقال بعضهم: هذا صاحبنا،وقد لزمنا من صحبته ما يلزم الصاحب لصاحبه، وليس يشبهنا(١) أن نلقيه في البحر فيتلف فيه على أيدينا ونسلم نحن، ولكن هلموا نَسْتَهِم، فمن وقع عليه السهم ألقيناه في البحر، فتساهم القوم فوقع السهم على يونس، ثم أعادوا ثانية فوقع عليه، ثم أعادوا ثالثة فوقع السهم على يونس فرمى بنفسه، فالتقمه الحوت ومضى في البحر، وكان يونس صلى الله عليه ينظر إلى عجائب البحر من بطن الحوت، وجرت سفينة القوم بهم.

(١) أي يحسن منا.

(٨٨/٢)

قال: ولبث يونس صلى الله عليه في بطن الحوت ما شاء الله من ذلك، فاستمط شعره وجلده (١)، حتى بقي لحمة، ومنع الله منه الموت. فلما علم الله توبته، وقد نادى بالتوبة: {أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[الأنبياء: ٨٧] فاستجاب له، وتقبل توبته، ورحم فاقته، فأرسل ملكاً من الملائكة فساق ذلك الحوت

إلى جزيرة من جزائر البحر، فألقى يونس من بطنه، وقد ذهب شعره وجلده، وذهبت قوته، فرد الله جسمه على ما كان عليه أولاً، من تمام صورته، وحسن تقويمه، وأنبت الله له شجرة اليقطين - وهي الدُّبَّا - فكان يأكلها، فلما اشتدت قوته، واطمأن من خوفه وإشفاقه، أرسله الله إلى قومه، وكانوا في ثلاث قرى، فمضى إلى أول قرية فدعاهم إلى الله وإلى دينه، فأجابه نصفهم أو أكثر من النصف، وعصاه الباقون، فسار بمن أطاعه إلى العصاة لأمره، فحملهم عليهم وقاتلهم، فقتلهم وأبادهم، وسار إلى القرية الثانية فدعا أهلها، واعذر إليهم وأنذرهم، فأجابه منهم طائفة، فحمل المطيع على العاصي فقتلهم وأبادهم. ثم سار إلى القرية الثالثة وكانت أعظمها وأشدها بأساً ومنعة، فدعاهم إلى الله، وأعذر إليهم، وأنذر وحذر ما حل بإخوانهم، فلم يجبه منهم أحد، واستعصموا على كفرهم؛ فسار إليهم وخرجوا إليه، فحاربهم فلم يقدر عليهم، فلما كان بعد وقتٍ، وعلم الله منه الصبر على ما أمره به من طاعته، والإعذار إلى خلقه؛ أمر الله جبريل صلى الله عليه فطرح بينهم ناراً، ثم أرسل الرياح فأذرت النار عليهم، وعلى منازلهم ورجالهم، فأحرقتهم جميعاً ودمرتهم.

فهذا ما سألت عنه من خبر يونس عليه السلام.

[قصة أيوب عليه السلام]

وسألته عن قول أيوب صلى الله عليه: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}[ص: ٤١].

فقال: معنى قوله: {مَسَّنِي}؛ فهو ما كان من كلامه ووسوسته له.

---

(١) أي ذهبا وتفسّخا.

(٨٩/٢)

وذلك أن أيوب صلى الله عليه قد كان جعل ضيافة أضيافه إلى امرأته، فأتاه إبليس اللعين فقال: يا أيوب إن امرأتك قد فضحتك اليوم في أضيافك، فأتاها فقال: ما الذي حملك على أن تفضحيني في أضيافي؟ أقسم لأضربنك مائة ضربة بالعصا. فلما همَّ بالذي أقسم به من ضربها؛ أتاه الملعون إبليس فقال: يا أيوب سبحان الله، أيحل لك أن تضرب امرأة ضعيفة، لم تجرم جرماً، ولم تأت قبيحاً، ولم تفعل أمراً تستحق به منك ضرباً، وليس لها قوة على ضربة واحدة، فكيف مائة ضربة، فلا تهلكها، وتأثم بربك في أمرها؟! فلما تركها وكف عنها(١) أتاه من موضع آخر؛ فقال: يا أيوب سبحان الله كيف يحل لك أن تقعد عنها، وقد حلفت لتضربنها، ولا ترجع عن يمينك، ولا تأثم بالله ربك؟! فلما رجع إليها ليضربها(٢)؛ أتاه بالوسوسة على مثل ما أتاه(٣) أولاً، فلم يزل يفعل كذلك حتى دخله الغم، وعظم عليه الأمر؛ فانقلب على ظهره وجعل يفكر وينظر، وخالطه من الوسوسة ما غلبه على أمره، فلم يزل كذلك حتى تَقَرَّح ظهره، ولزمه المرض العظيم، واشتد به (٤) الأمر، وتمادت به العلة، وذهبت ما شيته، وافترق ماله، ومات أولاده، ومرضت المرأة من الغم والحزن. فلما رأى ذلك من كان معه في المنزل؛ أخرجوه صلى الله عليه إلى ناحية منه على خط الطريق، وليس يقدر أن يرفع يداً ولا رجلاً، واشتد(٥) به البلاء، وهو مع ذلك صابرٌ محتسب. فلما كان يوماً (٦) من الأيام مضى به نفر، فلما رأوه ونظروا إلى ما هو فيه من عظم البلاء وشدة النتن؛ قالوا: والله لو كان هذا ولياً لله لأجابه، ولكشف ضره، ولما أصابه شيء من هذا؛ فلما سمع ذلك من قولهم: {نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}؛ فجاز أن يقول: مسني الشيطان، لما أن كان ذلك من

---

(١) في (ب): وعفى عنها.
(٢) في (ج): ليضربنها.
(٣) في (ج): الذي أتاه.
(٤) في (أ، ج): وشد به.
(٥) في (أ، ج): وشد.
(٦) كذا في النسخ، ولعلها على حذف الجار.

(٩٠/٢)

وسوسته، وكيده وسببه؛ فاستجاب الله له فقال: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}[ص: ٤٢]، ولم يقدر أن يرفع يداً ولا رجلاً؛ فضرب بعقبه فانبثقت عليه عين؛ ففارت(١) وارتفعت حتى كانت أكبر من جلسته،

فجعلت تنسكب عليه وهو يغتسل بمائها وهي تقلع عنه كل ميت، وتنقي عنه ما كان به من الأقذار، وتميط عنه الأذى، وجعل يشرب منها ويخرج ما في جوفه من العلة، حتى نَقِيَ بدنه ورجع إلى أفضل ما كان عليه أوّلاً، وردالله عليه أهله وماله، وأمره أن يأخذ ضغثاً فيضرب المرأة كفارة اليمين التي حلف، فقال بعض الرواة: إنَّه أخذ من هذا الذي يكون فيه التمر فجمع منه مائة غصن(٢) فضربها به ضربة. وقال بعضهم: إنَّه ضربها به ضربتين. واختلف في ذلك، غير أن الصحيح من ذلك أنَّه قد جمع ضغثاً فضربها به.

قلت: فإبليس كيف كان إتيانه إلى أيوب صلى الله عليه؟

قال: لم يره عياناً، وإنما سمع كلامه ولم ير شخصه. وقد قال بعض الجهلة: إنَّه تصوّر له في صورة غير صورته، وليس ذلك كما قالوا، وكيف يقدر مخلوق أن يغير خلقته، ويحول نفسه صوراً مختلفة؟! وليس يقدر على ذلك إلاَّ الله رب العالمين، الذي خلق الصور والأجسام، ونقلها من حال إلى حال، فسبحان الله رب العرش(٣) عما يصفون، ولا إله إلاَّ هو الرحمن الرحيم.

[قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز]

وسألته عن قول الله سبحانه في يوسف صلى الله عليه، من قوله: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}[يوسف: ٢٤]؛ كيف كان همها به؟ وكيف هم بها؟

فقال: كان همها هي هم شهوة ومراودة، وكان همه بها هم طباع النفس والتركيب.

ألا ترى أنك إذا رأيت شيئاً حسناً أعجبك، وحسن في عينك، وإن لم تهم به لتظلمه، وتأخذه غصباً من أهله؟

---

(١) في (ب): فثارت.

(٢) في (ب): عصل.

(٣) في (ب): رب العالمين.

وكذلك إذا رأيت طعاماً طيباً أولباساً حسناً أعجبك، وتمنيت أن يكون لك مثله، وأنت لا تريد بإعجابك به أخذه، ولا أكله إلاَّ على أحل ما يكون وأطيبه، ولم ترد بقولك إنك تأكله أو تلبسه أو تنكحه إلاَّ حلالاً؟

قلت: بلى. قال: فكذلك كان هم يوسف صلى الله عليه في زوجة الملك.

قلتُ: قد سمعنا بعض الرواة يذكر أنَّه منع يوسف عليه السلام من إتيانها انه رأى يعقوب صلى الله عليه كأنه يزجره عنها ويخوفه.

قال: قد قيل فيه شبيه من ذلك، وليس القول فيه كذلك، وحاش لله أن ينسب ذلك إلى نبي (من أنبياء)(١) الله.

قلت: فقد كان يروى لنا ذلك بين الملأ، ويتحدث به في المساجد. قال: قد ذكر ذلك، جلَّ الله عن كل ما يقول فيه الملحدون، وينسب إليه الضالون. وليس قولهم هذا في أنبياء الله، وروايتهم الكاذبة عليهم؛ بأعظم من كذبهم وجرأتهم على الله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ألا ترى كيف شبهوه بالأشياء من خلقه، وجعلوه جسماً ذا أعضاء وأجزاء مختلفة؟ فتعالى عن ذلك من ليس كمثله شيء.

ولقد ناظرت رجلاً ممن ينتحل التشبيه؛ فألزمته أن يقول: إن الله مخلوق، أو ينفي عنه التشبيه؛ فاختار أن يجعله مخلوقاً وكره أن ينفي عنه التشبيه. فهذا أعظم الأمور، وأقبح الأقاويل كلها.

---

(١) ليس في (أ، ج).

قلت: فالبرهان الذي رآه يوسف صلى الله عليه ما هو؟ قال: هو ما جعل الله فيه من علمه، وخصه به من المعرفة به، والخوف في علانيته وسره. وإنما كان ذلك ابتداءً منها، ومراودة له على نفسه. كان من قولها له: أن يا يوسف إن لم تأتني أتيت أنا إليك، فقال: معاذ الله من ذلك، فقامت فأرخت ستراً كان على باب البيت، وكان في البيت صنم لها تعبده من الذهب له عينان من ياقوتتين حمراوين، فكانت تستحييه (١) وتعبده، فقال لها يوسف صلى الله عليه: لم أرخيت هذا الستر؟ فقالت: إني خفت أن يراني(٢) هذا الذي في البيت، فأرخيت الستر حياءً منه، وإجلالاً له. فقال لها: فإذا كنت أنت تستحيين من صنم لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع؛ فكيف لا أستحيي أنا من الذي خلقني وخلقك، وخلق هذا الذي تخافين، ومنه تستحيين؟ بل أخاف وأستحيي الذي

خلقني وخلقكم(٣) وهو خالق السموات والأرضين. ثم نهض منها هارباً بنفسه، فلحقته إلى باب الدار فقدت قميصه، {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}، وهو زوجها الملك، وذلك أنهم كانوا يسمونه السيد لموضعه عندهم، ورفعته فيهم، فقالت له: {مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ} ـ يوسف :- {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي}[يوسف: ٢٥ ـ ٢٦]، فتحير الملك واشتبه عليه الأمر، وكثر فيه القول. فذكر بعض الرواة أن الذي حكم في ذلك صبي صغير كان في المهد، واختلف فيه، والذي صح عندنا في ذلك أنَّه كان صبياً قد عقل، وهو من أبناء خمس سنين أو شبيه بها، فأتي به إلى الملك فقال: {إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ} هي فيما ذكرت، من مراودته لها عن نفسها، {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ} هي فيما ادعت، {وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} في قوله، ومراودتها له عن نفسه، فأتي بالقميص إلى الملك؛

---

(١) في (ب، ج): تستحسنه.

(٢) في (ب): يرانا.

(٣) في (ج): وخلقك.

(٩٣/٢)

فنظر إليه فإذا هو مقدود من دبره؛ فقال: {إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}[يوسف: ٢٦ـ ٢٨]. ثم بدالهم من بعد ذلك فألقي في السجن، وكان في السجن رجلان من خدم الملك؛ فلما كان من إعلامه لهما بتأويل رؤاياهما على الحقيقة بعينها، فلما رأى الملك رؤياه؛ أتى أحد الرجلين إلى يوسف فقص عليه ذلك؛ فأخبره بتأويله، فلما انتهى ذلك إلى الملك؛ بعث(١) إلى النسوة يسألهن عن خبره؛ فـ{قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} فيما تبرأ منه وأنكره؛ {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}[يوسف: ٥١ ـ ٥٣]. فهذا ما كان من خبره عليه السلام.

[قصة داود عليه السلام ومحنته]

وسألته عن قول الله سبحانه: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} إلى قوله: {فَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ}[ص: ٢١ ـ ٢٤].

---

(١) في (ب): وبعث.

(٩٤/٢)

فقال: هذا خبر من الله سبحانه عما نبه به نبيه داود صلى اللّه عليه في أمنيته من نكاح امرأة ((أوريا))، وذلك أنه لما سمع الطير أشرف به الطير على رأس جدار، فأشرف داود ينظر أين توجه الطير، فوقعت عينه على امرأة(١) ((أوريا)) وهي حاسر؛ فرأى من جمالها ما رغبه فيها؛ فقال: لوددت أن هذه في نسائي، ولم يكن منه غير هذا التمني. وكل ما يروى عليه صلى اللّه عليه من سوى ذلك فهو باطل كذب، فلما أن تمناها نبهه اللّه عز وجل وعاتبه في السر، وقد أعطاه أكثر من حاجته، فبعث إليه ملكين، فتمثلا له في صورة آدميين؛ فتسورا عليه من المحراب وهو يصلي، فدخلا عليه ففزع منهما، وظن أنها داهية قد دهته، وعدو قد هجم عليه في محرابه في وقت خلوته؛ فقالا له: {لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ}[ص: ٢٢]؛ يريدان (٢) {لاَ تُشْطِطْ}، أي لا تَمِلْ إلى أحدنا فتشطط على الآخر. ومعنى {تُشْطِطْ}؛ فهو: تشدد على أحدنا في غير حق، {سَوَاءِ الصِّرَاطِ} وسواء الصراط فهو: معتدله ومستقيمه، ووسطه وقيِّمه. والصراط فهو: طريق الحق ها هنا وأوْضَحه. وكان لداود صلى الله عليه تسع وتسعون منكحاً من الحرائر والإماء، وكان لأوريا هذه المرأة وحدها، فمثلا أنفسهما لداود بداود وأوريا، فقال أحدهما: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا} ومعنى: {أَكْفِلْنِيهَا} فهو: أتبعنيها وردنيها إلى نعاجي، {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}[ص: ٢٣] يقول شطني في الطلب، وألح في تمنيها وطلبها؛ وذلك أنها لم تكن تسقط من نفس داود من يوم رآها، يتذكرها ويتمناها؛ فقال داود صلى الله عليه: {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ

---

(١) في (ج): مرأة.
(٢) في (ب): يريد.

(٩٥/٢)

لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ}[ص: ٢٤]؛ فلما قال هذا لهما تَغَيّبا من بين عينيه، فإذا به لا يبصرهما ولا يراهما، فعلم عند ذلك الأمر كيف هو، وأنهما ملكان، وأن الله بعثهما إليه لينبهاه من غفلته، ويقطعا عنه بذلك ما في قلبه؛ من كثرة تذكره مرأة (أوريا)(١) صاحبه، فأيقن أنها فتنة من الله، والفتنة هاهنا فهي المحنة. ومعنى: {ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ}؛ فهو أيقن داود بذلك من الله، {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ} إليه من ذلك التمني والذكر لهذه المرأة، فلم يذكرها بعد ذلك اليوم حتى زوجه الله إياها حين أراد تبارك وتعالى، بعد أن اختار لأوريا الشهادة فاستشهد وصارت إليه، فمن بعد ذلك زوج اللّه داود مرأة أوريا، وبلغه أمله، وأعطاه في ذلك أمنيته، فجاءه ذلك وليس في قلبه لها ذكر، ولا إرادة ولا تَمَنٍّ.
ولم يكن لداود صلى الله عليه في أوريا ولا قتله شيء مما يقول المبطلون؛ من تقديمه في أول الحرب، ولا ما يذكرون من طلبه وتحيّله في تلفه بوجه من الوجوه، ولا معنى من المعاني، كذب العادلون بالله، وضل القائلون بالباطل في رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فهذا تفسير الآية ومخرج معانيها.
[إبراهيم عليه السلام وآية إحياء الموتى]
وسألته عن قول إبراهيم صلوات الله عليه: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[البقرة: ٢٦٠].

(١) ليس في (أ، ج).

(٩٦/٢)

قال: إنما أراد بذلك صلى الله عليه أرني آية، أزْداد بها علماً وبصيرة، وأعرف سرعة الإجابة لي منك، حتى يثبت ذلك عندي، ويقر في قلبي معرفة من ذلك، فأمره الله سبحانه أن يأخذ أربعة من الطير، وأن يجعل على كل جبل منهن جزءً، ثم أمره أن يدعوهنّ(١)، ليريه من عجيب قدرته، وشواهد حكمته؛ ما يزداد به معرفة في دينه، ويثبت عنده علم ما سأل عنه من آيات ربه، فأراه اللّه ذلك فازداد بصيرة وإيقاناً، ومعرفة وبياناً.
[موسى عليه السلام وطلب النظر إلى ربه]
وسألته عن قول موسى صلى الله عليه: {رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}[الأعراف: ١٤٣].

(١) في (ج): يدعيهن.

(٩٧/٢)

قال: معنى قوله: {أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}؛ فهو: أرني آية من عظيم آياتك، أنظر بها إلى قدرتك، وأزداد بها بصيرة في عظمتك وقدرتك، فقال: {لَنْ تَرَانِي}، يقول: لن تقدر على نظر شيء من عظيم الآيات؛ التي لو رأيتها لضعف جسمك، ولطف مركبك ولأهلكتك، ولما قدرت على النظر إليها لعجزك وضعف مركبك، {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى} هذا {الْجَبَلِ}؛ الذي هو أعظم منك خلقاً، وأكبر منك جسماً؛ {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ} إذا أريته بعض ما سألتني أن أريكه؛ {فَسَوْفَ تَرَانِي}، يقول: فسوف ترى ما سألت من عظيم الآية، ولن تقدر على ذلك أبداً، ولا تقوم له أصلاً، {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً}، معنى {تَجَلَّى رَبُّهُ}؛ أي أظهر آيته، وأبان قدرته؛ جعله دكاً، {وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً}؛ يقول: مغشياً ميتاً؛ لما رأى من الهول العظيم الذي لا يقدر على رؤيته لعجزه وضعفه؛ وإن كان الذي أظهره الله وأبانه (١) من لطيف آياته، فجاز أن يقول: {تَجَلَّى رَبُّهُ}؛ لما كان ذلك من فعله وتدبيره، وأمره وإرادته. وهو كقوله: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ}[البقرة: ٢١٠]؛ يقول: تأتيهم الآيات،

ومايريد أن يُحِلَّ بهم من العذاب والنقم والآفات. وقوله: {وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[القيامة: ٢٢ - ٢٣] فمعنى قوله: {نَاضِرَةٌ}؛ يقول: نضرة مشرقة حسنة، وهذا معروف في اللغة والبيان، تقول العرب للرجل إذا أرادت له خيراً: نضر الله وجهك، وقوله: {إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، أي ناظرة لثوابه، وما يأتيهم من خيره وفوائده، ومن ذلك ما تقول العرب: قد نظر الله إلينا، وقد نظر الله إلى بني فلان إذا أصابهم الخصب بعد الجدب، والرخاء بعد الشدة. وإنما أراد بذلك أن الله قد رحمهم وأتاهم بالنعمة، {فَلَمَّا أَفَاقَ} موسى صلى الله عليه، {قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ

(١) في (ج): وأتى به.

(٩٨/٢)

إِلَيكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[الأعراف:١٤٣]، يقول: لو ابتليتني وأريتني وأظهرت لي من بعض ما سألتك، مما أهلكت به الجبال الراسية لما قام لها جسمي، ولأهلكتني بقليلها، ولما احتمل ذلك لطيف خلقي، وضعف مركبي، أنظر إلى عظيم ما ذهبت به الجبال الراسية، فلك الحمد على ما صرفت عني من ذلك، رحمة منك بي، وتفضلاً علي، وزيادة وإحساناً إلي.

فهذا معنى قوله: {أَنْظُرْ إِلَيكَ}، لا ما ذهب إليه من جهل وزعم أن الله يرى، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا. كيف وهو يقول في كتابه: {لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الأنعام: ١٠٣]؟!

[آيات موسى التسع]

وسألته عن قول الله سبحانه: {وَلَقَدْ آتَينَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}[الإسراء: ١٠١] ما الآيات التي آتاه الله؟

فقال: العصى التي تلقف ما يأفكون.

ومنها: اليد البيضاء، وهو قوله: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ}[النمل: ١٢].

ومنها: الكلام الذي سمعه من الشجرة.

ومنها: الكلام الذي سمعه من النار.

قلت: وما سمع منها؟

قال: قول الله في كتابه: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَولَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[النمل: ٨].

قلت: فما معنى قوله: {أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَولَهَا}؟

قال: أما قوله: {مَنْ فِي النَّارِ}؛ فإنما أراد بذلك ما سمع من الكلام في النار، وأما قوله: {وَمَنْ حَولَهَا}؛ فهو من حضر من الملائكة حول النار.

ومنها: الحجر التي كان يحملها على حماره من مكان إلى مكان، وكانت حجراً مُلَمْلَمة لا صدع فيها، فكان إذا احتاج إلى الماء ضربها بالعصى، فانبجست بالعيون، ثم يدفنها فيخرج الماء من كل جانب منها، فإذا استغنى هو وأصحابه أخرجها؛ فرجعت على حالتها أولاً ثم حملها معه.

(٩٩/٢)

ومنها: البحر الذي ضربه بالعصى فانفلق، حتى سار في وسطه هو وأصحابه بأمر الله سبحانه، حتى خرج آخر أصحابه، ودخل آخر أصحاب فرعون تبعاً لموسى وقومه، فأغرق الله فرعون وقومه، ونجى نبيه عليه السلام والمؤمنين.

ومنها: طور سيناء.

وقد قيل والله أعلم: إن من الآيات التي آتاه الله: الجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ولا ندري ما صحة ذلك، غير أن الصحيح ما ذكرت لك أولاً، وهو بَيِّنٌ نيّر.

[معنى قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}]

وسألته عن قول الله سبحانه: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]. قال: الذي عنى بذلك سبحانه فهي: الحجارة التي ينحتونها أصناماً، ويعملونها لهم آلهة، وما أشبه ذلك من الأنصاب التي يعبدونها. فهذا معنى: {وَمَا تَعْمَلُونَ}، فالله خلقهم ومفعولهم، ولم يخلق سبحانه فعلهم، والمفعول(١) فهو: الصنم الذي ينحتونه من الحجارة، وفعلهم فهو: الحركة التي كانت منهم، من الرفع والوضع والنحت، فالله(٢) خلق الحجر الذي عملوه

صنماً، ولم يخلق الفعل الذي كان منهم في نحت الحجر.
[محمد صلى الله عليه وآله هل كان متعبداً قبل النبوة؟]

(١) في (ب): والمعقول. وهو تصحيف.
(٢) في (أ، ب): والله.

(١٠٠/٢)

وسألته صلوات الله عليه عن محمد صلى الله عليه، ما كان عمله قبل أن يتنبأ؟ وهل كان على شريعة عيسى صلى الله عليه أم لا؟ فقال: سألت عن أمر محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإنما كان على ما كان عليه الأنبياء من قبله، منذ خلق الله آدم إلى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه؛ من الإقرار بالله، والتوحيد له، والتعظيم، والإجلال، والمعرفة به، وبعدله ، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه خالق كل شيء سبحانه وتعالى، وكان مقراً بالأنبياء كلهم، غير جاحد لنبوتهم. وكان صلى الله عليه ينظر ما يأتي به أهل الكتاب من عظيم محالهم، وقبيح فعالهم؛ الذي ذكره الله سبحانه عنهم، وذمهم عليه، فكان ينكر فعلهم، ويذم جرأتهم على ربهم، ولم يكن صلى الله عليه يقرأ التوراة ولا الإنجيل، ولا يحسن ترجمتهما، وكان يعيب أفعال الذين يقرأونهما؛ لما يأتون به من الأمر الذي لايرضاه الله، ويستنكره عقله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن معهم على شريعتهم،وكان في أصل المعرفة بالله كمعرفة عيسى صلى الله عليهما، مقراً عالماً بأن كل ما جاء به موسى وعيسى حق صلى الله عليهم جميعاً.
[تفسير: لاحول ولاقوة إلا بالله]
وسألته عن تفسير: {لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ}.
[وتفسيرها] فهو: لا حول ولا محال، ولا إدبار ولا إقبال، إلاَّ بالله. ومعنى إلاَّ بالله؛ فهو: إلاَّ بتمكين عباده، وذلك الحول بما جعل فيهم من الاستطاعة(١)، ولا مقدرة على شيء من الأشياء؛ إلاَّ بما جعل الله من ذلك في تلك الأعضاء، وأعطى خلقه في كل ذلك من الأدوات والأشياء؛ التي تكون فيهم بها القوة والحول، وينالون بوجودها ما يحبون من فعل وطول.
[تفسير العرش والكرسي]
وسألته عن تفسير العرش والكرسي.

(١) في (ب): بما جعل من استطاعة.

(١٠١/٢)

فقال: معناهما واحد، وهو الملك الذي علا كل شيء ملكه واقتهاره، ألاتسمع كيف يقول سبحانه، إن كل شيء من الأشياء، من الأرض والسماء؛ في عرشه وكرسيه؛ فقال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥]؟ فأخبر أن الكرسي الذي هو العرش واسع على السموات والأرض، وإذ قد وسعهما بشهادة الله سبحانه فقد دخلتا فيه، وحازهما وأحاط بهما، فإذا كان ذلك بقول الله سبحانه؛ فهما فيه لا هو فيهما، وهو المحيط بهما لا هما المحيطان به.
وإذ قد كان ذلك كذلك فقد بطل ما يقول الملحدون، وزال ما يصف المشبهون، وثبت ما يقول الموحدون؛ من أن العرش هو الملك، والإحاطة من الله سبحانه، فنفاذ (١) الإرادة، ومضي المشيّة؛ في السموات والأرض وما فيهن، وأن ملكه المحيط بهن وعليهن، والمحيط بهن فهو كرسيه وعرشه.
[الرجل يدعي معرفة ما يكفيه من العلم]
وسألته عن الرجل يقول: قد فهمت وعرفت ما افترض الله علي، فأنا أكتفي باليسير، ولا أتعب نفسي بتعليم الكثير، وأنا أقوم بحلال الله وحرامه، فهذا يجزيني عن طلب غيره من العلم.
الجواب في ذلك: أن الله عزَّ وجل لم يغفر لأحد بالجهل، فالواجب عليه أن يكون عمره كله في طلب الخروج من الجهل إلى العلم، وفي ذلك ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((اغد عالماً، أو متعلماً، ولاتكن الثالث(٢) فتهلك))؛ يعني الممسك عن طلب العلم.
[تسليم الجباية للظالم قسراً مع عدم التمكن من الهجرة عن بلده]

وسألته عن رجل ساكن في بلدة وقد تولى أمر البلد سلطان ظالم، والسلطان يقتضي (٣) منه جباية بغير طيبة من نفسه، وهو يخاف إن خرج من البلد على نفسه التلف.

(١) في (ب، ج): ونفاذ.
(٢) في (أ، ج): الآخر.
(٣) في (أ): يقبض.

(١٠٢/٢)

الجواب في ذلك: إن كانت مخافته على نفسه مخافة أن يجوع في الأرض، أويعرى، أو يتلف إذا خرج من تلك البلدة؛ فليس هذا له بعذر؛ لأن الله عزّ وجل يرزقه في بلده وغيرها.
وإن كان يخاف أن يظفر به سلطان بلده فيقتله إن خرج، ولم تكن له حيلة في الإنسلال عنه، وكان لا محالة واقعاً في يده إن خرج؛ فله في ذلك العذر، إلى(١) أن يأتيه الله عزَّ وجل بفرج، وإن قدر وأمكنه أن لا يَعْمَل عملاً يأخذ منه فيه السلطان فليفعل.
[معنى قوله تعالى: تؤتي الملك من تشاء.. الآية]
وسألته عن قول الله سبحانه: {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} [آل عمران: ٢٦].
والملك ها هنا الذي يؤتيه من يشاء؛ فهو جبايات الدنيا وأموالها، والذين يشاء أن يؤتيه إياهم؛ فهم: الأنبياء، ثم الأئمة من بعدهم، والذين يشاء أن ينزعه منهم؛ فهم: أعداؤه؛ من جبابرة أرضه. ومعنى: {تُؤْتِي الْمُلْكَ}؛ فهو: الحكم بالملك لهم صلوات الله عليهم، فمن حكم الله له بالنبوة أو بالإمامة حكماً، وأوجب له الطاعة على الأمة باستحقاقه لذلك الموضع إيجاباً؛ فقد أتاه الملك؛ لأن الملك هو: الأمر والنهي، والجبايات والأموال التي تقبض، التي بها قوام العساكر، واتخاذ الخيل، والرجال، والسلاح، من جميع أداة الملك، فمن أجاز الله له قبض جبايات الأرض، وإقامة أحكامها وحدودها، وأوجب له الطاعة على أهلها؛ فقد آتاه الله الملك حقاً، أولئك هم السابقون بالخيرات صلوات الله عليهم، ومن لم يحكم له بشيء من ذلك، ولم يجزه له، ولم يطلق يده، ولم يوجب له الطاعة على أحد من خلقه، فقد نزع الله ملك أرضه منه، وأبعده عنه، أولئك أعداؤه، وجبابرة أرضه، الحاكمون بغير حكمه، المغتصبون لما جعل الله سبحانه لأوليائه المنفذين لما حكم به في خلقه وبلاده، أولئك يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً.

(١) في (ب): إلا.

(١٠٣/٢)

فسبحان من لم يقض بشيء من ذلك لأعدائه، ولم يؤثر غير أوليائه.
وفي نفي الحكم منه بشيء من ذلك لأعدائه، ما يقول لنبيه إبراهيم صلى الله عليه: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[البقرة: ١٢٤]، والعهد فهو: العقد بالإمامة، والحكم لهم بالطاعة. ومعنى: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}؛ فهو: لا يبلغهم، ولا يجيزهم (١).
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنَّه قال: ((اللوح علم الله، وكرسيه علمه، اللوح علم الله الذي وسع كل شيء؛ مما كان(٢) أو سيكون)).
تم ذلك والحمد لله وحده وصلواته على رسوله سيدنا محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً.
****

(١) في (أ): تم ذلك وصلى اللّه على محمد وآله وسلم.
(٢) في (ج): ما كان.
(٣) في (أ): بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمدلله رب العالمين، وصلى اللّه على محمد النبي وآله وسلم.

(١٠٤/٢)

جواب مسألة النبوة والإمامة

(3 m)

قال أبو القاسم محمد بن الهادي إلى الحق رضي الله عنه:

سألت أبي صلوات الله عليه عن الحجة والدليل على نبوءة الأنبياء، وإرسال الله لهم تبارك وتعالى، وعن الدليل على إقامة الأوصياء أوصيا الأنبياء، وثبات حجتهم على الأمة، وعن ثبات الإمامة لمن ثبتت له من الأئمة، وبأي سبب ثبتت بها طاعته، وعلى البرية وجبت؟

فقال: سألت يا بني حاطك الله وهداك رشدك ووفقك؛ عن مسألة هلك فيها خلق من المتكلفين، وحار عن فهمها كثير من المتكلمين؛ فقال من ضل عن الحق، وتكمه في ذلك عن طريق الصدق: إن إمامة الإمام تثبت بإجماع الناس عليه، وحسن رأيهم فيه. وليس ذلك كذلك، بل تثبت الإمامة لمن حكم الله له بها، وقلده بحكمه إياها.

وكذلك القول في الأنبياء، فالنبي من تنباه الرحمن، وبعثه بالهدى والإحسان؛ إلى جميع الإنسان، فأقام معه الشرائع والبرهان.

وكذلك الأوصياء، لا تثبت وصاة نبي إلى وصي حتى تثبت له في ذلك حقائق الصدق، ودلائل براهين الحق.

قلتُ: وما هذه البراهين والدلالات؛ التي حار فيها كثير من أهل المقالات، وتكلم فيها بالأمور العظيمات المعجبات؟

قال: قد سألت فاستقصيت، فافهم ما نقول، وما إليه قولنا يؤول.

ثم اعلم أنَّه لا تثبت نبوءة نبي في قلوب العالمين، ولا يستدلّ عليها أحد من التابعين، ولا تثبت وصية الوصي، ولا حجة بحق(١) مضي، ولا تثبت إمامة إمام، ولا تجب طاعته على أهل الإسلام؛ إلاَّ باستحقاق وعلامات، وشرائع ودلالات، وعَلَم قائم، ودليل يدل على أنَّه هو صاحب ذلك المعنى، والمتولي لجميع هذه الأشياء.

فأما استحقاق الأنبياء صلوات الله عليهم للنبوَّة؛ فهو بالطاعة منهم لله، والاجتهاد منهم في مرضاة الله، والنصح لعباد الله(٢)، فإذا علم الله من ضميرهم أنهم إن بعثوا كانوا كذلك، وإن أمروا قاموا لله بذلك؛ أمرهم سبحانه حينئذٍ ونهاهم، وبعثهم واجتباهم، ثم أبان معهم العَلَم والدليل، الذي يدل على أنهم رسل مبعوثون برسالته إلىخلقه، مبشرين، ومنذرين، مخوفين لعذابه، مبشرين بثوابه، هادين إلى طريق سبله(٣)، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٤٢].

وعَلَم الأنبياء ودليلها فهو ما جاؤا به من المعجزات، وأظهروه للخلق من العلامات؛ الشاهدات على أنهنَّ من عند الرحمن؛ اللواتي لا ينالهن ولا يطيق إيجادهنَّ أحد من الإنسان.

(١) في (أ، ج): لحق.

(٢) لعل من ظاهر هذا الكلام أخذت (المطرفية) ما ينسب إليها من القول بأن النبوة تأتي جزاء على العمل، وليس لهم فيه مأخذ؛ إذ هو في سياق بيان أن النبوة والإمامة لاتكون بالإختيار من الناس، وإنما تكون بالاختيار من اللّه لمن سبق في علمه أنه يطيعه إذا بعثه، وذلك واضح.

(٣) في (أ): سبيله.

(١٠٥/٢)

مثل ما جاء به موسى عليه السلام؛ من ادخاله يده في جيبه (فخرجت بيضاء من غير سوء. ومثل ما جاء به من انقلاب العصا إلى خلق حيّة)(١)، وغير ذلك من باقي التسع الآيات، وغير ذلك مما كان يأتي به من الدلائل المعجزات والعلامات.

ومثل ما جاء به عيسى صلى الله عليه؛ من التكلم في المهد، ومن إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وغير ذلك من علاماته، مما نكره التطويل بذكرها، وقد يجزي ذكر قليلها عن كثيرها.

ومثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من معجزاته الهائلات، وأموره الناطقات، وأسبابه الشاهدات؛ بالنبوة والرسالات. مثل: مجيء الشجرة إليه ورجوعها إلى موضعها، وإنباء الناس بما في صدورهم، وإعلامهم بما في ضميرهم، وذلك من إنباء الله له بذلك، وإعلامه إياه به. ومثل ما كان من فعله في شاة أم معبد ،وما كان منه من الفعل في التمرات من غداء جابر بن عبد الله، وذلك أنَّه أخذ كفاً من تمر، فوضعه في وسط ثوب كبير، ثم حرّكه ودعا فيه؛ فزاد ورَبَا، حتى امتلأ الثوب تمراً. وما كان منه في عشاء جابر بن عبد الله، صاع من شعير وعناق صغيرة أكل منها ألف رجل. وما كان منه في الوشل الذي ورده هو والمسلمون في غزوة تبوك)) فوضع يده تحت الوشل، فوشل فيها من الماء ملؤها، ثم ضربه ودعا فيه، فانفجر بمثل عنق

البعير ماءً، فشرب العسكر كله معاً، وتزودوا ما شاؤا من الماء. وغير ذلك مما نكره التطويل من معجزاته(٢)؛ لأنَّه مفهوم معروف عند أهل العلم.
فكانت هذه المعجزات مع ما ذكرنا من أسباب الإستحقاق من عَلَم النبوة، والدليل على نبوة الأنبياء، وبَعْث الله لهم في البريَّة تبارك وتعالى.

(١) سقط من (أ).
(٢) في (ج): من معجزاته.

(١٠٦/٢)

وكذلك الأوصياء فلا تثبت للخلائق وصية الأنبياء إليهم إلاَّ باستحقاق لذلك، والعَلَم والدليل. فأما الإستحقاق منهم لذلك المقام الذي استوجبوا به من الله العَلَم والدليل؛ فهو فضلهم على أهل دهرهم، وبيانهم(١) عن جميع أهل ملتهم؛ بالعلم البارع، والدين، والورع، والإجتهاد في أمر الله. وَعَلَمهُم ودليلهم؛ فهو العلم بغامض علم الأنبياء، والإطلاع على خفي أسرار الرسل، وإحاطتهم بما خصَّ الله به أنبيائه، حتى يوجد عندهم من ذلك ما لا يوجد عند غيرهم من أهل دهرهم، فيستدل بذلك على ما خصهم به أنبياؤهم، وألقته إليهم من مكنون علمها، وعجائب فوائد(٢) ما أوحى الله به إليها؛ مما لا يوجد أبداً عند غير الأوصياء.
من ذلك ما كان يوجد عند وصي موسى، وعند وصي عيسى عليهم السلام ما لا يوجد عند غيرهم، من أهل دهرهم.
ومن ذلك ما وجد عند وصي محمد صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، من ذلك ما أجاب به في مسائل الجاثليق، ومن ذلك ما كان عنده من علم كتاب الجفر، وما كان عنده من علم ما يكون إلى يوم القيامة، مما أطلع الله عليه نبيه، وأطلع نبيه وصيه، لم يعلمه من رسول الله صلى الله عليه أحد غيره، ولم يقع عليه سواه.
فهذا الذي لم يوجد عند غير الأوصياء من أهل مللهم؛ فهو عَلَم الأوصياء المبين لها، والدليل الدال بالوصية عليها.
وكذلك الأئمة الهادون، الداعون إلى الله المرشدون؛ بانَتْ إمامتهم، وثبت عقدها من الله لهم، بخصال الإستحقاق، وبالعَلَم والدليل الذي بانوا به من غيرهم، وامتازوا به عن مشاكلة أهل دهرهم.

(١) يعني تميزهم.
(٢) في (ج): فوائدها.

(١٠٧/٢)

فأما الإستحقاق فهو: ولادة الرسول، والعلم، والورع، والزهد، والدعاء إلى الله، وتجريد السيوف، وخوض الحتوف، وفَضِّ الصفوف، ومجاهدة الألوف، ورفع الرايات، ومنابذة(١) الظالمين، وإقامة الحدود على من استوجبها، وأخذ أموال الله من مواضعها، وردها في سبلها التي جعلها الله لها وفيها، مع الرأفة والرحمة(٢) بالمؤمنين، والشدة والغلظة على الفاسقين، والشجاعة عند البأس(٣)، والمجاهدة للكافرين والمنافقين.
فهذا باب الإستحقاق للإمامة.
والعَلَم والدليل فهو: توفيق الله، وتسديده لوليّه وتأييده، وإيتاؤه الحكمة، {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً} [البقرة: ٢٦٩]، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].
ودليل ذلك وعَلَمه الذي يدل على أنَّه قد آتى وليّه الحكمة؟ ما يظهر من الإمام من الأمور المعجزات لأهل دهره، من حسن علمه، ودقائق فهمه، وحسن تعبيره وتمييزه، والمعرفة بالتأتي لتعليم رعيته، وتفهيمها بما تحتاج إلى فهمه، حتى يكون معه من الشرح لما يسأل عنه، والتبيين لما يأتي به، والإحتجاج فيه وعليه بالحجج البالغة، والبراهين النيّرة التي لا توجد عند غيره، ولا يَنَال شرحَها، والإحتجاج بها سواه، مع التأتي لقبول عقول العالمين(٤)، لما به يأتي من الحق المبين، والأمر المستبين(٥)، مع استنباطه لعلم دقائق الكتاب، ودقائق الحلال والحرام في كل الأسباب؛ التي لا يقع عليها إلا من تولى الله اللطف به، وتوحد بالهداية لقلبه، ممن قلده أمر رعيته، وحكم له بالإمامة على بريته.

(١) في (ج): ومباينة.
(٢) في (أ): مع الرحمة والزلفة.
(٣) في (أ، ج): عند حين البأس.
(٤) في هامش (ج): المعلمين.
(٥) في (أ، ج): المنير.

(١٠٨/٢)

وهذه الأشياء التي ذكرنا ـ من حسن البيان والشرح، وإيضاح ما يُحتاج إليه من دقائق حسن التعبير، وجيد التمييز؛ الذي لا يوجد في سواه؛ فهي العَلَم والدليل (على إمامته، وعقد الله سبحانه ما عقد له منها. وذلك يا بُنَيّ العَلَم الأكبر، والدليل) (١) الأوفر، على عقد الله الإمامة لمن كان ذلك فيه، وعنده ولديه.
والحجة فيما قلنا به من أن هذا أكبر الأعلام والدلائل: أن الله تبارك وتعالى تعبد الخلق بمسموع، ومعقول، فالمعقول: ما أدرك بالنظر والتمييز بالعقول(٢). والمسموع فهو: ما يسمع بالأذان من الْمُسمِع المؤدي من نبي، أو وصيّ، أو إمام مهتدي، وإذا كان فرض الله ومتعبده لخلقه بالمسموع؛ كانت حاجة السامع إلى تأدية المسمَع لازمة؛ إذ كانت حجة الإستماع على المستمع واجبة، وإذا كان ذلك كذلك؛ احتاج الإمام المسمع للرعية إلى أن يكون ـ في الكفاية والفهم، والمعرفة بالشرح والتبيين، ودقائق حسن التعبير وجيد التفصيل، ومبين التفهيم، والمعرفة بالتأتي لتعليم الرعية، وتفهيم البرية لما يحتاجون إليه ـ على غاية ما يكون؛ لأن ذلك كله تأدية عن الله لما افترض على الخلق من المسموع، فإذا كمل في هذه الأشياء؛ فقد أكمل(٣) في التأدية عن الله لفرائضه المسموعة في كل معنى. فلذلك قلنا: إن حسن التأدية بلطائف التعبير، وحسن الإسماع للسامعين في التأدية والتفسير؛ أكبر أعلام الإمامة، وأدل الدلائل على الحكمة التي يؤتيها الله أولياءه؛ لأن من أتاه الله الحكمة؛ فهو عند الله من أهل الولاية والمحبة، ومن تولاه الله وأحبه؛ فهو آهَلُ الناس من الله بالإمامة، وأولاهم منه سبحانه بالكرامة.

(١) سقط من (أ).
(٢) في (ب): بالمعقول.
(٣) في (ب): كمل.

(١٠٩/٢)

فمن كان كذلك من ولد رسول(١) الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فهو الإمام المفترض الطاعة، الذي لا يجوز(٢) لأحد خذلانه، ولا يسع رفضه، ولا يؤمن بالله خاذله، ولا يوقن بالوعد والوعيد تاركه.
فافهم يا بني هداك الله ما شرحنا لك من أعلام النبوة ودلائلها، وأعلام الأوصياء ودلائلها، وأعلام الأئمة ودلائلها؛ التي تدل على عقد الله الإمامة لمن عقدها لهم، والحكم منه سبحانه بها فيهم، فقد شرحت ذلك لك شرحاً مجملاً، وفسرت لك بعض ما تحتاج إليه تفسيراً كاملاً.
فلا تلتفت إلى غير ما قلنا من أقاويل الهزّاجين(٣)، وتعبُّث العابثين، وزخاريف كلام المتكلمين، وافتراق أقاويل الجاهلين؛ ممن يقول: إنّ الإمامة بإجماع الرعية، وقول من يقول: بل هي لما يوجد من الآثار المروية في الملاحم المذكورة، وقول من يقول: بل هي بالوراثة لولد بعد والد، ولا يلتفتون ويلهم لما تستحق به الإمامة من البينات، والشواهد النيرات، همج رعاع، وللجهال أتباع، لم يقتدوا بالحكمة؛ فيعلموا ما به تحق الإمامة لصاحبها على الأمة، قد جعلوا الحكم بها وفيها لغير من حكم الله، وجعلوا الحكم بها إلى غير الله، فركبوا من ذلك مركبا وعراً، واكتسبوا به في الآخرة ناراً وعاراً، اعتمدوا في أكبر أمور الله وفرضه من الإمامة على التقليد، فقلدوا الحكم بها كبراءهم في كل الحالات، وطلبوا إثباتها من أبواب الرِّوايَات(٤)، جهلاً بما عظم الله من قدرها، وتصغيراً لما كبَّر الله من أمرها، فتكمهوا بذلك في ظلم العمايات، وغرقوا في بحور الجهالات، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٧]، فلا يبعد الله إلاَّ من ظلم، وأساء وغشم، وحسبنا الله ونعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي القدير.

---

(١) في (ج) : الرسول.
(٢) في (ب): لا يحسن.
(٣) في (أ): الهرَّاجين.
(٤) في هامش (ج): الرَّويَّات.

(١١٠/٢)

فأما ما تقول به الإمامية، الضالة الهالكة العمية، وتجتري به على الله الواحد الجليل، فيما تذكر وتصف من العَلَم والدليل؛ فقول لا يَلْتَفت إليه عاقل، ولا يشك في بطلانه إلاَّ عم أحمق جاهل، وذلك أنها زعمت وقالت؛ فيما به تكلمت وذكرت: أن الدليل والعَلَم في إمامها خلاف ما كان في نبي من أنبياء الأمم، وأنه يأتي بما لم يأت به الأنبياء؛ من بدع محالات في كل الأشياء، ومن قال بمحال؛ فليس يثبت له قول في حال من الحال، فزعمت أنَّه يختم بخاتمه في الصفا ويؤثر، فيقرأ نقش خاتمه فيها كما يقرأ في الشمع والطين، وينادي فيما زعمت الإماميَّة في السماء مناد: إن فلان بن فلان (بن فلان)(١) إمامكم الهادي المهدي، بُوراً في قولها، وتعدياً في أمرها، وإحالة في حجتها، وغلواً في دينها. ولو كان ذلك يكون لأحد من العالمين؛ لكان لمحمد خاتم النبيين، ولو نادى من السماء مناد بنبوة النبي؛ لما اختلف فيه من فراعنة قريش منصف ولا غوي.
وقولُهَا ـ قبِّحت أقوالُها ـ قولٌ شاهد بالزور عليها في كل أحوالها، لا يلتفت إليه أحد، ولا يُوجد لمُتعلق به ملتحد، فضيحة على من دخل فيه، ومهتكة هاتكة لمن نسب إليه. ولا دليل ولا علم ولله الحمد أدل مما به قلنا، من دلائل الإمامة، وشرحنا؛ من معجزاتها التي فسرنا.
فاعلم ذلك علماً يقيناً، وليثبت في قلبك ثباتاً مبيناً، يبن لك به الصواب، وينجل عنك الإرتياب إنشاء الله، والقوة بالله وله.
تم والحمد لله وصلواته علىخير خلقه محمد وآله وسلم.
*****

---

(١) سقط من (ج).

(١١١/٢)

رسائل وكتب
في
الإمامة
تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

m
قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:
تثبت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رحمة الله عليه من كتاب الله عزَّ وجل، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
إن سأل سائل، أو تعنت متعنت جاهل، عن تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.
قيل له: أيها السائل المتكلم، المسترشد المتعلم؛ تثبت له بقول الله سبحانه، وقول رسوله المصطفى محمد عليه السلام.
فإذا قال: أوجدونا في الكتاب ما قال الله، وبينوا لنا كيف قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
قيل له: قال رسول الله صلى الله عليه: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى؛ إلاَّ أنَّه لا نبي بعدي))، ثم قال: (((أيها الناس)(١) إنَّه سيكذبُ علي من بعدي، كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما جاءكم عني (من حديث)(٢) فأعرضوه على كتاب الله، فما شاكل كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما لم يشاكل كتاب الله فليس مني ولم أقله)). فلما قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى)) علمنا أنَّه لم يقل ذلك محاباة، ولا اختياراً منه ولا مصافاة، إلاَّ بأمر من الله واجب، وحق مبين ثاقب، فلما قال صلى الله عليه: ((علي

مني بمنزلة هارون من موسى))؛ وجدنا تصديق قوله صلى الله عليه مُثبتاً في الكتاب، وهو قول

{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً} [هود: ١٧] ، فلما قال الله: {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ}؛ صدق قول الله سبحانه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى))، لقول الله: {شَاهِدٌ مِنْهُ}، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((علي مني (بمنزلة هارن من موسى)(٣)))، وقال الله: {شَاهِدٌ مِنْهُ} كان رسول الله من علي وعلي منه، بقول الله ويقول رسوله عليه السلام؛ كرهنا أو احببنا، شئنا ذلك أو أبينا، لا ننظرفي ذلك إلى قول محب مريد، ولا نلتفت إلى قول مبغض مكابر عنيد، ولا نأخذ في ذلك بتصديق محب، ولا ننظر أيضاً في تكذيب مبغض؛ لأن الله سبحانه قد حكم في ذلك بما حكم، واختار سبحانه ما اختار، فقال تبارك

(١) ليس في (أ).
(٢) ليس في (أ).
(٣) سقط من (أ، ج).

(١١٢/٢)

وتعالى في كتابه المنزل على نبيه المرسل: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}، ثم قال: {سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: ٦٨]، (فحكم الله على من اختار سوى خيرته بالشرك، لقوله عزوجل: {سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ})(١). فنسمع الله قد اختار علياً بعد محمد؛ لقول الله: {شَاهِدٌ مِنْهُ}، ولقول الرسول: ((علي مني))، وذلك لعلم الله تبارك وتعالى في علي؛ لأن علياً سبق الخلق إلى الله وإلى رسوله، لا يشك في ذلك عاقل، ولا ينازع فيه جاهل؛ لأن الله سبحانه يقول: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُوْنَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِيْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [الواقعة: ١٠ ـ ١٢]. فلما أن شهد الله تبارك وتعالى للسابق بالجنة، أجمع الخلق أن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه أسبق الخلق إلى الله وإلى رسوله، فشهدنا لعلي بن أبي طالب بما شهد الله له به ورسوله، لا باختيارنا، بل من أصل أذاننا(٢)، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً} [الكهف: ٢٩]. صدق الله سبحانه وبلغت رسله، وأنا على ذلك من الشاهدين، والحمد لله (رب العالمين) أولاً آخراً، وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى، وآله النجباء وسلم تسليماً كثيرا.

(١) سقط من (أ، ب).
(٢) كذا في النسخ.

(١١٣/٢)

كتاب دعوة وجه بها إلى أحمد بن يحيى بن زيدومن قِبَلِه (١)

m

الحمد لله الأول القديم، الآخر الواحد الكريم، الذي لا تراه العُيون عيون الناظرين، ولا تحيط به ظنون المتظننين، ولا تقع عليه أوهام المتوهمين، ولا يصفه أحد من الواصفين، إلاَّ بما وصف به نفسه، من أنَّه هو، وأنه بائن عن الأشياء، وبائنة عنه الأشياء، فلم يَبِنْ منها سبحانه غائباً عنها، ولم يَخْفَ منها في بينونتها خافٍ عليه منها، بل إحاطته بأسَر سِرِّ هَا كإحاطته بأعْلَن علانيتها، العادل في قضايه، المعز لأوليائه، المذل لأعدائه، الناصر لمن نصره، الخاذل لمن خذله، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، داحي الأرض ذات المهاد، رافع السماء بغير عماد، الموفق المسدد لكل رشاد، الزاجر الناهي عن الفاحشات، الحاضِّ الآمر بالحسنات.
وأشهد أن لا إله إلاَّ اللّه وحده لا شريك له، الذي لا تواري عنه ساترات متكاثفات الستور، ولا يستجن عنه بمتراكم أمواجها قعور البحور.

(١) لم أقف له على ترجمة والذي يظهر أنه كان من أشراف الحجاز ذا سعة في المال والجاه، ومن أهل الرأي والمكانة الاجتماعية كما يتبين من خلال خطاب الإمام له في هذه الدعوة المباركة والذي يدل على ذلك اختصاص الإمام له بتوجيه الدعوة. والله أعلم. وهذه الدعوة ليست في (أ)، وأثبتناها من ب، ج.

(١١٤/٢)

وأشهد أن محمداً عبده ورسُوله، أرسله برسالته، وانتجبه لأمانته، فبعثه في طامية طخياء، ودياجيج(١) ظلمة عمياء، وأوائل فتنة دهماء(٢)، ودروس من الصالحات، وظهور من المنكرات، فدعا إلى ربه، وأظهر ما أمر ربه، وفتح فينق(٣) الفسق، وأظهر دعوة الصدق، وأعلن كلمة الحق، وأرغم أنف الشيطان، وأدحض عبادة الأوثان، وأخلص التعبد للرحمن، ونهى عن الظلم والعصيان، وأمر بالتواصل والإحسان، وأماط أفعال الجاهلية، ونفا عنهم ظلمة الحمية والعصبية، وبسط لأمته كنفي الرحمة الواسعة، وأكمل الله به على البرية النعمة السابغة، فمضى عليه السلام في أمر الله قُدُماً، وجرد في أمر الله سبحانه مصمماً، حتى أثبت له على عباده الحجة، بالتبيين لهم جميع ما افترض عليهم، والإعذار في ذلك والإنذار، والتوقيف لهم على معالم دينهم، وجهاد من عند عن سيرته منهم، حتى إذا اعتدل عمود الدين، وتعلق به جميع المسلمين، وسطع نوره، ووضحت وشرعت أموره، ، وتقشع عن الحق الثبج، وكملت به وبرسوله الحجج؛ اختار الله لنبيه صلى الله عليه دار النعيم والسرور، ونقله من دار التعب والنصب والغرور، فقبضه الله سبحانه سعيداً، قد بين للأمة ماله خلقوا، وأوضح لهم ما إليه دعوا، وأوقفهم على ما به أمروا.

---

(١) كذا، ولعلها: دياجير.
(٢) في (ج): دهياء.
(٣) كذا في ب، وفي ج: ومسح، وفي هامشه: وقمع.

(١١٥/٢)

فكان أفضل ما افترض الله عليهم، وجعله حجة مؤكدة فيهم؛ الجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن التظالم والمنكر، ولذلك مدح الله به الأنبياء المرسلين، وذلك قوله: {الَّذِيْنَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِيْ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧]، ويقول: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج: ٤١]، ويقول سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، ويقول تعالى أمراً منه لجميع المسلمين: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[آل عمران: ١٠٤]. وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ألف الله بين المؤمنين، وجعلهم إخوة عليه متوالين، وذلك قوله: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة: ٧١]. وبترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذم الله المنافقين والمنافقات حين يقول:

(١١٦/٢)

{وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ}[التوبة: ٦٧].
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا ينال إلا بالإقدام والتصميم، والنية والاعتزام الكريم، على الجهاد في سبيل الله، وتوطين الأنفس على مُلاقات أهل الظلم والطغيان، فحينئذ ينال ذلك، ويؤدي فرض اللّه من كان كذلك، وهو الجهاد في سبيله، وفي ذلك ما يقول في واضح التنزيل: {لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً}[النساء: ٩٥ ـ ٩٦] وقال تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى

تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[الصف: ١٠ - ١٣] ويقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[العنكبوت: ٦٩] ولفضل الجهاد ما أمر الله نبيه عليه السلام

(١١٧/٢)

بالتحريض عليه للعباد، حيث يقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ}[الأنفال: ٦٥]، ويقول تبارك وتعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[آل عمران: ٦٩ - ٧٠]
وما ذكر الله من تفضيل الجهاد؛ فأكثر من أن يُحيط به كتاب، وهو معروف عند من رزق فهمه من ذوي الألباب، وكيف لا يكون للجهاد في سبيل الله فضل على جميع أعمال المؤمنين وبه يحي الكتاب المنير(١)؟ ويُطاع اللطيف الخبير، وتقوم الأحكام، ويعز الإسلام، ويأمن الأنام، وينصر المظلوم، ويتنفس المهموم، وتتجلى(٢) الفاحشات، ويعلو الحق والمحقون، ويخمل الباطل والمبطلون، ويعز أهل التقوى، ويذل أهل الردى، وتشبع البطون الجائعة، وتكسى الظهور العارية، وتقضى غرامات الغارمين، وينهج سبيل المتقين، وينكح العزاب(٣)، ويُقتدى بالكتاب، وترد الأموال إلى أهلها، وتفرق فيما جعل الله من وجوهها، ويأمن الناس في الآفاق، وتفرق عليهم الأرزاق.

(١) في ب: وبه نبه الكتاب المبين.
(٢) في (ج): وتنفى.
(٣) في ب: الأعزاب.

(١١٨/٢)

ثم إن الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله حظر الجهاد، مع جميع من خلق من العباد؛ إلاَّ من اصطفى وأتمن(١) على وحيه من عترة رسوله صلى الله عليه وعليهم، الذين هدى بهم الأمة من الضلالة والهلكة، لما في الجهاد من القتل والقتال، وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وهتك الحريم، وغير ذلك من الأحكام، وذلك فلا يكون إلاَّ بإمام (عادل) (٢)مفترض الطاعة، وذلك لا يكون إلاَّ من آل محمد صلى الله عليه وعليهم، الذين استنقذ الله بهم الأمة من شقاء الحفرة، وجمع بهم كلمتها، وألف بين قلوبها(٣)، من بعد الافتراق والاختلاف، والتشاجر وقلة الائتلاف، فأصبحوا بنعمة الله على المحق مؤتلفين، ولما كانوا عليه من الكفر مجانبين، يعبدون الرحمن من بعد عبادة الأوثان، ويقرون بمحمد عليه السلام، داخلين في النور والإسلام، ناجين من عبادة الشيطان، تالين لآيات القرآن، يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، ويقرون بالربوبية للواحد الجبار.
قد اختار الله لهم منهم أئمة هادين، وجعلهم من ولد نبيه خاتم النبيين. وفي ذلك ما يقول: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} [القصص: ٦٨] من أهل النبوة، وموضع الرسالة، ومعدن الحكمة، وبيت النجاة والعصمة، الذين أمرَ الخلق باتباعهم، والكينونة معهم دون غيرهم، وذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة: ١١٩] وفيهم وفي آبائهم ما يقول سبحانه: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[المائدة: ٥٥] فجعل الولاية لهم خاصة، وثبت الإمامة فيهم، وأنزل الوحي عليهم بذلك.

(١) في ب: وأفن.
(٢) سقط من (ج).
(٣) في (ج): قلوبهم.

(١١٩/٢)

وفيهم يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)). فبين بذلك أنَّه من تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى.
وفيهم يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((ما أحبنا أهل البيت أحد، فزلت به قدم إلاَّ ثبتته قدم، حتى ينجيه الله يوم القيامة)).
وفيهم يقول: ((إن مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى)).
وفيهم يقول تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}[النساء: ٥٩] فجعل طاعتهم موصولة بطاعة رسوله، وطاعة رسوله موصولة بطاعته، ومعصيتهم مقرونة بمعصية نبيه، ومعصية نبيه مقرونة بمعصيته. فمن عصاهم فقد عصا الله ورسوله، ومن أطاعهم فقد أطاع الله.

(١٢٠/٢)

والذي افترض طاعته(١) ذو الجلال والإكرام، من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله سلم على جميع من خلق وذرأ من الأنام، وبنى على طاعته وموالاته دعائم الإسلام: الورعُ الفاضل، التقي الكامل، الباذل(٢) لنفسه العالم، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، الفهم بمعاني الكتاب، المتفرع فيما يحتاج إليه من الأسباب، المجرد في أمره، الداعي إلى سبيل ربه، المباين للظالمين، الناهض بحجة رب العالمين، الكاشف لرأسه، المجرد لسيفه، الرافع لرايات الحق، المظهر لعلامات الصدق، الزاهد في حُطام الدنيا، الراغب في الآخرة التي لا تفنى، والحافظ للرعية المواسي لهم، المتحنن عليهم، المقرب غير المُبَعِّد، المُهَوِّن غير المُجْهِد، القارن لهم بنفسه في جميع أمره، الشفيق عليهم، الآخذ لمظلومهم من ظالمهم، المستوفي لحق الله من أيديهم، والرَّاد له في مصالحهم، والمفرق لفَيِّهم فيهم، المُسلِّم له إليهم، العادل في قسمه، المساوي بين رعيته في حكمه، الطارح الجبريَّة والتكبر، البعيد عن الخيلاء والتجبر(٣) والباسط لكفه(٤)، المنصف لأهل طاعته، المتفقِّد لجميع معائشهم، الحامل لهم على ما أمروا به من أديانهم، الممضي لأحكام الله فيهم، القائم بقسط الله عليهم، الرؤف الرحيم بهم، العزيز عليه عنوتهم، المُتَعَنِّي بالجليل والدقيق من أمرهم(٥)، المشبه في ذلك لجدّه، ولما ذكر الله من أمره، حيث يقول سبحانه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨] الشجاع السخي، الفارس الكَمِي.

---
(١) في (ج): طاعتهم.
(٢) في ب: الدال.
(٣) كذا، ولعلها: التبختر.
(٤) في (ج):لكنفه.
(٥) في (ج) من أمورهم.

(١٢١/٢)

فإذا كان كذلك ثم دعاهم إلى نفسه، والقيام لله بحقه، وجبت على الأمة طاعته، وحرمت عليهم معصيته، ووجبت عليهم الهجرة إليه، والمجاهدة بأموالهم وأنفسهم معه وبين يديه(١)، وكانت طاعته والهجرة إليه، والمجاهدة بأموالهم معه، والتجريد في أمره، وبذل الأموال والأنفس، والمبادرة إلى صحابته، والكينونة تحت كنفه؛ فرضاً من الله على الخلق، لا يسعهم التخلف عنه ساعة، ولا التفريط في أمره فينة، إلاَّ بعذر نافع(٢) مبين عند الله سبحانه، من مرض أو عرج، أو عمى، أو فقر مدقع، عن اللحوق به مانع، وفي ذلك ما يقول اللّه سبحانه: {انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[التوبة: ٤١] فمن كان على واحدة من هذه الأربع الخصال، جاز له التخلف عند الواحد ذي الجلال، ومن لم يكن كذلك وجب عليه فرض المهاجرة والمقاتلة، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً}[الفتح: ١٧] ويقول سبحانه: {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[التوبة: ٩٢] فجعل الله لمن كان على مثل هذه الحال من الفقر؛ في تخلفه عن الجهاد مع المحق من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العذر، فأما من سلم من ذلك، ولم يكن في شيء

من أحواله كذلك، ثم تخلف عنه، من بعد أن تبلغه دعوته، وتنتهي إليه رسالته، أو يقع إليه خبره؛ فهو غادر، في دين الله فاجر، ولرسوله معاند، وعن الحق والصراط المستقيم

(١) في (ب): والمجاهدة معه بأموالهم وبين يديه.
(٢) في (ج): قاطع.

(١٢٢/٢)

عاند، مشاق لله محارب، إلى النار عادل وعن الجنة مجانب، قد بآء من الله باللعنة، وجاهره بالمعصية، ووجب على الإمام إن حاربه حربه، وقتله وإهلاكه، وإن لم يحاربه، وتخلف عن نصرته، وجب عليه إبعاده وإقصاؤه، وإبطال شهادته، وإزاحة عدالته، وطرح اسمه من مقسم الفي، ووجب على المسلمين منابذته في العداوة والاستخفاف به، والاستهانة بكل أمره، لا يسعهم غيره، ولا يجوز لهم فيه سواه. ألا تسمع كيف يقول العزيز الكريم، فيما نزل على نبيه من القرآن العظيم؛ إذ يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيْلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيْلٌ إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ}[التوبة: ٣٨ - ٣٩].

(١٢٣/٢)

ومن الدليل على ما قلنا به من هلاك من تخلف من دعوة الحق، أو تثاقل عن إجابة محق، قول الله سبحانه لرسوله: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}[التوبة: ٨٣ - ٨٤] فأمر الرسول بالرفض لهم، ولم يأذن في الخروج لهم ثانية أخرى(١)، عقاباً عن التخلف عنه، والتربص به، وحرمهم الخروج وسهام الغنائم، والسهام(٢) لا تقع إلاَّ لمن حاما عليها، ولا تقسم إلا لمن كان حاضراً لها، وحرمهم ولاية الرسول وتوليته، وأوجب عليه(٣) العداوة لهم. وبأقل من ذلك ما يقول الله سبحانه: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ}[الفتح: ١٥] يريد بقوله: {قَالَ اللَّهُ}؛ أي حكم الله عليكم، وأمرنا به فيكم.

(١) كذا في النسخ.
(٢) في (ج): إذ السهام.
(٣) في (ج): عليهم، وهو سهو.

(١٢٤/٢)

وفيما ذكرنا من هلاك المتخلفين(١)؛ عن دعوة الحق والمحقين، ما يقول أصدق الصادقين، فيمن قال لإخوانه وتأخَّر: {لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ}، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}[التوبة: ٨١]. وفي إهلاك الله وإخزائه للمتخلفين عن الحق والمحقين؛ ما يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}. فنهى رسوله عن الصلاة عليهم، والوقوف على قبورهم، وحرم عليه الاستغفار لهم، ولم ينه عن ذلك إلاَّ في غوي، هالك عنده معذب شقي. ثم أخبر أن المرتابين الذين هم في ريبهم يترددون، والتردد فهو: الشك، والشك فلا يكون في حَقٍّ؛ إلا من أهل الفجور والفسوق.

(١) في (ج): المخلفين.

(١) كذا في النسخ، ولعلها: محق.
(٢) في (ب) وآخرة.

(١٢٨/٢)

الأمور، فاز والله من بادر فاشترى الجنة بأيام من حياته، وخاب من تخلف عن مبايعة الله وسوَّف ويله وتمنى، وعلل نفسه وسهى(١) حتى نزلت به الداهية الدهياء، ونزل به الموت والفناء، وحصل في دار القيامة والجزاء، {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}[الكهف: ٤٩].
فهذه صفات من تجب طاعته، وتحرم معصيته.
ومن خالف ما ذكرنا، وكان على غير ما شرحنا؛ من آل الرسول(٢) صلى الله عليه وعلى آله، فنكث عليهم، وأساء في فعله إليهم، ومنعهم من حقهم الذي جعله الله لهم، واستأثر بفيهم، وأظهر الفساد والمنكر في ناديهم، وصيّر ما لهم دولة بين عدوهم يتقوّى به عليهم، ولم(٣) يَقْبِضْهُ منهم، ويقسمه على صغيرهم وكبيرهم، وكانت همته كنز الأموال، والاصطناع لفسقة الرجال، ولم يزوج أعزابهم، ولم يقض غراماتهم، ولم يكس الظهور العارية، ولم يشبع منهم البطون الجائعة، ولم ينف عنهم فقراً، ولم يصلح لهم من شأنهم أمراً؛ فليس يجب على الأمة طاعته، ولا تجب عليهم موالاته، ولا تحل لهم معاونته، ولا تجوز لهم نصرته، بل يحرم عليهم القيام معه ومكاتفته، ولا يسعهم الإقرار بحُكمه، بل يكونون شركاه إن رضوا بذلك من أفعاله، ويكونون عند الله مذمومين، ولعذابه مستوجبين. فنعوذ بالله من الرضى بقضاء الظالمين، ونعوذ به من الإعراض عن جهاد الفاسقين، الذي لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فإن من أعرض عن جهادهم فقد برئ من الله، وبرئ اللّه منه، وبَعُدَ من حزب الرحمن، وصار من حزب الشيطان، {أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[المجادلة: ١٩].

---
(١) في ب: وسهل.
(٢) في (ج): رسول الله.
(٣) في (ج): ولا يقبضه.

(١٢٩/٢)

وبعد رحمك الله ووفقك، وأعانك وسددك؛ فإني أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه، وإلى ما أمرني الله أن أدعوك إليه، وأخذ به عليَّ العهد والميثاق، من الأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن التظالم والمنكر، وإلى أن نُحلَّ نحن وأنت ما أحل لنا الكتاب، ونحرم نحن وأنت ما حرمه علينا، وإلى الاقتداء بالكتاب والسنة، فما جاءا به اتبعناه، وما نهيا عنه رفضناه، وإلى أن نأمر نحن وأنت بالمعروف في كل أمرنا ونفعله، وننهى عن المنكر جاهدين ونتركه، وإلى مجاهدة الظالمين من بعد الدعاء إلى الحق لهم، والإيضاح بالكتاب والسنة بالحجج عليهم، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين(١)، وإن خالفوا الحق، وتعلقوا بالفسق، حاكمناهم إلى الله سبحانه، وحكمنا فيهم بحُكمه، فإنه يقول سبحانه: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ}[الأنفال: ٣٩] والعُدوان هاهنا فهو: الجهاد، والعَدْوُ على من ظهر منه الإجتراء على الله والاعتداء.
ألا والدعوة مني يرحمك الله إلى ما تقدم ذكره من الكتاب والسنة. واشرط لك ولمن معك على نفسي أربعاً:
الحكم بكتاب الله وسنة رسوله جاهداً ما استطعت.
والأثره لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم.
وأن أوثركم ـ ولا أفضل عليكم بالتقدمة عند العطاء؛ الذي جعله الله حظاً في أمواله لكم ولنا ـ قبل نفسي وخاصتي.
والرابعة أن أكون قدامكم عند لقاء عدوكم وعدوي.
وأشرط لنفسي عليكم اثنين؛ أنتم شركائي فيهما:
النصيحة لله في السر والعلانية.
والطاعة في كل أحوالكم لأمري ما أطعت الله، فإن خالفت طاعة الله فلا حجة لي عليكم.

(١) في (ج): المؤمنين.

(١٣٠/٢)

{هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[يوسف: ١٠٨] فإن يطعني من بلغته دعوتي يرشدوا، وحظهم يأخذوا، والفوز العظيم يرتجوا، وإن يتخلفوا عني، ويعصوا أمري، ويُسَوِّفوا طاعتي، ويتثاقلوا عن إجابتي، ويركنوا إلى الدنيا الغارة لهم، كما غرت من قبلهم ممن مضى؛ أكن قد قدمت لله بما يجب(١) عليَّ، وأكن عند الله إن شاء الله من الناجين، وأكن قد ثبتُّ له عليهم الحجة إلى يوم الدين، وما كان علي إلاَّ ما كان على جدي من قبلي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الرسول الأمين، من التبليغ والاجتهاد في الدين، {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ}[النور: ٤٥].

(١) في أ: ما يجب.

(١٣١/٢)

فرحم الله من نظر في أمره، وقاس شِبْرَه بِفِتْره، فقد أسفر الحق عن وجهه قناعه، ونادى بأعلى صوته أتباعه، وقامت الحجة للرحمن، على كل من خلق من الإنسان، {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ}[يونس: ٣٢] ولا دون المعتدل إلاَّ المائل، ولا بعد الجدة والشدة والقوة والشباب؛ إلاَّ الضعف والإنبتات والزوال والذهاب، ولا بعد دار الدنيا الفانية؛ إلاَّ الآخرة الدائمة الباقية، وما بعد العمر إلاَّ انقطاع الأجل، وما بعد الموت إلاَّ البلاء والإمحاق، ولا بعد الإمحاق إلاَّ يوم التلاق، {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}[آل عمران: ٣٠] ذلك يوم وقوع الجزاء؛ على ما تقدم من العمل في الدنيا، فيفوز المحقون بأعمالهم، ويخسر المبطلون ويهلك المسرفون بأفعالهم، {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً}[الفرقان: ٢٣]، {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}[الأنعام: ١٦٠]، ذلك يوم الحسرة والندامة، وطلب الإقالة حين لا إقالة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [الزلزلة: ٦ - ٧]، ذلك يوم تشخص فيه الأبصار، وتظهر فيه الأسرار، ويحكم فيه بالحق الجبار، {يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} [الشعراء: ٨٨ - ٩١]، وهم فيها يصطرخون نادمين، يقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}[المؤمنون: ١٠٧]، فيقول لهم

(١٣٢/٢)

الجبار: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ}[المؤمنين: ١٠٨]، فيطلبون حينئذ الرجوع إلى ما كانوا فيه من الفناء(١)، ويتمنون الموت والبلاء، ويقولون: {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}[الزخرف: ٧٧] فحينئذ تقطع قلوبهم حسرات، وتتراكم عليهم الغُموم والندامات، على ما فرطوا فيه من العمل بما أمرهم الله به ، والقيام بأكبر فرائضه، من الجهاد في سبيله، والمعادات لأعدائه، والموالاه لأوليائه.
فليعلم كل عالم أو جاهل، أو من دعي إلى الحق والجهاد فتوانى، وتشاغل، وكره السيف والتعب، وتأول على الله التأويلات، وبسط لنفسه الأمل، وكره السيف والقتال، والملاقاة للحتوف والرجال، وأثر هواه على طاعة مولاه، فهو عند اللطيف الخبير، العالم بسرائر الضمير؛ من أشر الأشرار، وأخسر الخاسرين، إن صلاته وصيامه، وحجه وقيامه بُور، لا يقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً. وأنه ممن قال الله سبحانه فيه حين يقول: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً}[الغاشية: ٢- ٤]. وكيف يجوز له الإقبال على صغائر الأمور من الصالحات، وهو رافض لأعظم الفرائض الواجبات(٢)؟! وكيف لا يكون الجهاد أعظم فرائض الرحمن؛ وهو عام غير خاص لجميع المسلمين؟!
وعَمَلُ من عمل به شاملٌ لنفسه ولغيره من المؤمنين؛ لأن الجهاد عزٌ لأولياء الله، مخيف لأعداء الله، مشبع

للجياع(٣)، كاس للعراة النّياع(٤)، ناف للفقر عن الأمة، مصلح لجميع الرعية، به يقوم الحق، ويموت الفسق، ويرضى الرحمن، ويسخط الشيطان، وتظهر الخيرات، وتموت الفاحشات.
والمصلي فإنما صلاته وصيامه لنفسه، وليس من أفعاله شيء لغيره. وكذلك كل فاعل خير فعله لنفسه لا لسواه.

(١) في ب: الفداء.
(٢) في (ج): الزاكيات.
(٣) في ب: للجائع.
(٤) النايع: المائل.

(١٣٣/٢)

فأين الجهلة العمين، أو العلماء المتعامين؟ كيف يقيسون شيئاً من أعمال العباد؛ إلى ما ذكر الله سبحانه من الجهاد؟! هيهات هيهات بعد القياس، ووقع على الجهلة الإلتباس، وحبطت بلا شك أعمال المختلفين، وخسر الراكنون إلى الدنيا، المؤثرون لما يزول ويفنى، المتشبثون بالأموال والأولاد والأهلين، وهم - أحَدَ اليومين - لذلك مفارقون، ولما تشبثوا به تاركون، وعما أثروه على ربهم والجهاد في سبيله رائحون. وفي أولئك، ومن كان من الخلق كذلك؛ ما يقول الرحمن الرحيم، فيما نزل من الفرقان العظيم: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[التوبة: ٢٤].

(١٣٤/٢)

فمهلاً أولئك مهلاً، عن التخلف عن الله والإجتراء، هلموا إلى الأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن التظالم والمنكر، هَلُمَّ إلى قسم فيِّكم عليكم، وإحياء كتاب الله وسنن رسوله فيكم، هلموا إلى غناء فقرائكم، والأخذ بالحق في أغنيائكم، هلموا إلى أخلاق المسلمين، والإقتداء بمن مضى من الأئمة المجاهدين، هلموا إلى الطلب بكتاب الله، والإنتصار من أعدائكم، هلموا إلى نصر الله، ونصر الحق والمحقين، هلموا إلى جهاد الفسقة الظالمين من أهل قبلتكم من جبابرتهم، من الأشراف وغيرهم. ألستم ترون - عبادَ اللّه المخلصين، والقايلين في الله بالتوحيد، المقرين بما ذكر الله في الوعد والوعيد إلى دينكم مقتولاً، وإلى الحق الذي أنزله على نبيكم مخذولاً؟ وحُكِمِ الكتاب معطلاً بينكم، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معدوم فيكم، يرتع أعداء الله في جنى أموال المسلمين، قد أمنوا من تغييركم عليهم، ويئسوا من نكايتكم فيهم، وبسطوا أيديهم عليهم، وحكموا بحكم الشيطان فيهم، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم. حرموهم فيَّهم، واصطفوا مع ذلك أموالهم، وأجاعوا بطونهم، وأعروا ظهورهم، وأضاعوا سبيلهم، وأخافوهم على أنفسهم، يحتفون أموالهم، ويقتلون رجالهم، يمنعونهم النصف، ويسومونهم الخسف، هتكاً للحريم، وتمرداً على الله العظيم.

(١٣٥/٢)

إن شهدوا لم يصدقوا، وإن سالموا لم يتركوا، أعزاؤهم عندهم أذلة(١)، وعلماؤهم جهلاء، وحلماؤهم عندهم سُخَفَاء، وَعُبَّادهم لديهم سُفَهَاء، قد جعلوا فَيَّهم بينهم دَوَلاً، وأولادهم لهم خدماً وخَوَلاً، يشبعون ويجوعون، ويسعون(٢) في رضاهم ومصالحهم، و[هم] يسعون في هلاكهم وسخطهم، فهم لهم خدم لا يُشْكَرون، وأعوان لا يُؤْجَرون، هممُهم هِمَم حميرهم، هَمَمُهم ما واروه في بطونهم، وباشروه بفروجهم، واستغشوه على ظهورهم، نهارهم دايبون في إخمال الهدى والحق، وليلهم في التلذذ والطرب(٣) والفسق، فراعنة جبارون، وأهل خيلاء فاسقون، إن استُرْحِموا لم يَرْحموا، وإن استُنْصِفوا لم يُنصِفوا، وإن خُوِّفوا لم يخافوا، وإن قَدَروا لم يُبقوا، وإن حكموا لم يعدلوا، وإن قالوا لم يَصْدُقوا، لا يذكرون المعاد، ولا يزكون العباد، ولا يُصلحون البلاد،

رافضون معطلون للنكاح، مظهرون مُعتكفون على السفاح، المنكر(٤) بينهم ظاهر، وافعال قوم لوط أفعالهم، وأعمالهم في ذلك أعمالهم، يتخذون الرجال ويأتونهم من دون النساء، ويظهرون الفجور علانية والردى، ويأتون في ناديهم المنكر، ويجاهرون بذلك العلي الأكبر، سفهاؤ هم أمراؤ هم، وأشرارهم حكامهم، وعظماؤ هم أردياؤ هم، الغدر شيمتهم، والفسق همتهم، إن عاهدوا نقضوا، وإن أمَّنوا(٥) غدروا، وإن قالوا كذبوا، وإن أقسموا حنثوا، قد قتلوا الأرامل والولدان، وحرموهم ما جعل الله لهم من السُّهمان، قد قتلوا الكتاب والسنة، وأظهروا المنكر والبدعة، وخالفوا ما بعث الله به النبي(٦)، وحكموا بغير حكم(٧) الكتاب المنزل، اضداد الحق والمحقين، أولياء الباطل والمبطلين، وحزب الشيطان، وخصماء القرآن، وأعداء الرحمن، في الفسق منغمسون، وعن الحق مُجْنبون، لم ينالوا ما نالوا من

(١) كذا ولعلها: أذلاء.
(٢) في ب: ويشفعون.
(٣) في (ج): والطرف.
(٤) في ب: المسكر.
(٥) في ب: ائتمنوا.
(٦) في ب: به الرسل.
(٧) في (ب): بغير ما حكم.

(١٣٦/٢)

أولياء الله إلاَّ بالغدر، ولم يقدروا عليهم إلاَّ بالختر(١)، وعقد مواثيق الله له في أعناقهم، وبسط أمان الله وأمان رسُوله له منهم(٢)، فإذا ركن إلى عظيم ما يعطونه، ووثق بجليل أيمانهم؛ قتلوه من بعد ذلك غادرين، ومثلوا به ناكثين، لا فيما أعطوه من عقود الله ومواثيقه له ينظرون، ولا في الأيمان المؤكدة التي له يفكرون، اجتراء على الله العظيم، وعُدولاً منهم عن الصراط المستقيم، عنوداً عن الحق المبين، ومُضادة لأحكام أرحم الراحمين، ومخالفة لسُنن الرسول الأمين، ومباينة ومجانبة لشرائع الإسلام، وتشبها بفعل أهل الشرك والكفر والطغيان، بل الكفار الطغاة أوفى بالعهود منهم، وأحفظ لعهودهم منهم لعهدهم، وأقل اجتراء منهم في كثير من الأمور على خلافهم، وهم في ذلك يدعون أنهم أئمة المسلمين، وقادة المؤمنين، وخلفاء الواحد الكريم، وولاة الواحد العظيم(٣). كلا والذي نفس يحيى بيده، ما ولى الله أولئك في خلقه، ولا قلَّدهم شيئاً من أمره، ولا أجاز لهم أمراً ولا نهياً في شيء من أرضه، وكيف يكون ذلك والله سبحانه يقول لنبيه صلى الله عليه إبراهيم خليله، حين سأله ان يجعل ذريته أئمة كما جعله هو صلى الله عليه إماماً؛ فأخبره الله سبحانه أنَّه لا يجعل الولاية إلا للمتقين، ولا يعقد الإمامة لأحد من الفاسقين، ولا يعقد عقدها للظالمين، وذلك قوله سبحانه: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[البقرة: ١٢٤]؟! فمنع من عقده وعهده، ومؤكد إمامته؛ كلَّ ظالم من خلقه. فأي ظلم يرحمك اللّه أو غشم، أو فسق أو إثم؛ أعظم مما فيه من هو يدعي أنَّه إمام المسلمين، وأمير المؤمنين؛ من الذين أماتوا الكتاب

(١) الختر كالغدر وزناً ومعنى أو أقبح الغدر.
(٢) في ب: أمان اللّه ورسوله منهم.
(٣) في أ: وولاة للعظيم الرحيم.

(١٣٧/٢)

والسنن، وأحيوا البدع والفتن، وضلوا(١) الحق، وأحيوا الفسق، وجلسوا في غير مجلسهم، وتعاطوا ما ليس لهم، {أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[البقرة: ١٦] فأين لكم يا أهل(٢) الإسلام؟؟ وكيف يرضى من آمن بالرحمن؛ بالظلم والغشم من حزب الشيطان، الذين جاهروا ربهم بالكفر والعصيان، وحادوه في كل شأن؟! {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[المجادلة: ١٩ - ٢٠]، صدق الله في قوله، لقد حكم الله للحق والمحقين؛ بالغلبة للباطل والمبطلين، ولكن أين أين الناهضون لأمره، المتنجزون لوعده، المتعرضون(٣) لنصره؟ فإنه يقول

سبحانه: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحج: ٤٠] وبلى وعسى، {فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً}[الإنشراح: ٥ ـ ٦]، عسى الله أن يجعل فيكم يا أهل التوحيد خَلَفاً من الأولين المجاهدين، الذين
فلقد وبذلوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين.

(١) في (ج): وقتلوا.
(٢) في (ب): بأهل.
(٣) في (ب): المعترضون.

(١٣٨/٢)

فشمروا يرحمكم الله واجتهدوا، واطلبوا النجاة من الله تعالى بجهاد أهل الضلال، فإنه يقول سبحانه: {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}[آل عمران: ١٩٥]. فجاهدوا كما جاهد أولئك من سلفكم المؤمنين، من الأولين والآخرين، فلقد جاهدوا أعداء الله واحتسبوا، فلقوهم، وجالدوهم وصابروهم، والفسقة حينئذ أقوياء أعزاء، جيوشهم جامعة، وأموالهم كاملة، وكلمتهم مؤتلفة، وجماعتهم غير مختلفة، فصَفُّوا لهم الصفوف، وضربوا(١) وجوههم بالسيوف، ووفوا الله بعهده، وقاموا له(٢) فيه بأمره، صابرين محتسبين، ولذلك من فعلهم متخيّرين، حتى لحقوا بالله مستشهدين، كراماً طيبين مطيبين، فائزين بالثواب، ناجين من العقاب، قد فازوا بالرضى والرضوان، يتقلبون في عرصات الجنان، {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً}[الأحزاب: ٤٤]، {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ}[الطور: ٢٥ ـ ٢٨].

(١) في (ج): وأضربوا. أي ضربوها.
(٢) في (ب): لهم.

(١٣٩/٢)

ف

ف وا سَ ا و ولا انوي ت يأموييّ را ولا تقصروا، ولا تركنوا إلى الخفض(

(حـ لجيل او، او هنصر ا M حينئذن الـ ئز ماننصر مكم

يسومونهم سوء العذاب، يقتلون من شاؤا منهم، ويقيمون من أرادوا منهم، يجبون الأموال لأنفسهم، قد تسلط عليهم شرارهم، وأعوانهم وعُبدانهم، فلا مال عندهم، ولا رجال في جوارهم، ولا أمر ولا نهي لهم، ليس في أيديهم ولا لهم بلد ينحون(١) فيه أمرهم، غير بعض القرى قد أحل فيهم الأعراب، واستباحت ما قدرت عليه من رعيتهم، ينهبون حواشيهم، ويخيفون سبيلهم، ويقطعون طريقهم، لا يقدرون على نفيهم وإبعادهم، ولا ينالون ما يشتهون من إذلالهم، بل هم الأذلاء الأقلاء، الفساق الضعفة(٢)، أشد على الرعية والمساكين، إذلالاً من الأقوياء والمحاربين، يخيفون ويأكلون من تحت أيديهم، ويدارون(٣) من نابذهم وتسلط عليهم،قد انهدم عزهم، وانخرقت مهابتهم، وفتكت بهم كلابهم، وقهرهم أشرارهم، وحكم عليهم عُبْدانهم، وقلت وانتفت من أيديهم الأموال، وتفرقت عساكرهم والرجال، زهداً من الرجال فيهم، ورغبة في خير من يجزل عليهم، قد مال عمود ملكهم، وانهدم باب عزهم، وتغير أساس أمرهم، وأعطت خلافتهم صاغرةً قيادها، ورَمت إلى من قادها بزمامها، وألقت إليه(٤) بسمعها وطاعتها، وذل لطالبها صعبها، ولان لراكبها مركبها، وذل له بعد الصعوبة ظهرها، وبرزت له من بعد شدة حجابها، واستقامت له وأشرعت(٥) لدنوّ نتاجتها، ودرت لحالبها بدرة تسر الحالبين، وتنهل الشاربين، ويَعُلُّ(٦) فيها العَالُّون، وينتعش ويشبع في أفوقتها(٧)

---

(١) في (ج): يمجُّون (كذا). وظنن بـ: (يمضون).
(٢) كذا ولعلها: الضعفاء.
(٣) في (ب): ويداريون. ولعلها: ويواربون.
(٤) في (ج): إليها. وظنن بما أثبت من ب.
(٥) في (ج): وأضْرَعتْ.
(٦) العلل بعد النهل: الشربة الثانية بعد الأولى.
(٧) في ب: أفرقتها، والفُواق: مقدار مابين الحلبتين.

(١٤١/٢)

الجائعون، فهي حافل(١) تشخب رجليها مما تدر، ولكن لا حالب لدرتها، ولا منتهز لفرصتها، لقلة المحقين، وذهاب المؤمنين، وذلة المسلمين، وركون هذا الخلق إلى الفسق، وتركهم لاتباع دعوة الحق، وتعلقهم بالفاني من أمر الدنيا، وزهدهم فيما يدوم من الآخرة ويبقى.
كان لم يسمعوا الله سبحانه يقول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[العنكبوت: ٥٧]، وكأن لم يسمعوا ما أخبرهم به عنهم من عاقبة أمرهم، وقوله لهم في يوم حشرهم؛ حين يقول: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[الأنعام: ٩٤].

---

(١) ضرع حافل: ممتلئ لبناً.

(١٤٢/٢)

فاجتهدوا رحمكم الله، واستبقوا إلى الله، وبادِروا قبل أن تبادَروا(١)، فإنه يقول: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[الواقعة: ١٠ - ١٢]. واعلموا أن المسبوق لن يلحق بالسابق، والكاذب لا يكون عندالله كالصادق. أما سمعتم الله يقول: {لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}[الحديد: ١٠]؟ وقال: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}، وقال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة: ١٠٠].
فابتدروا إلى الله تسعدوا، ولا تتخلفوا عنه فتهلكوا، ويرميكم بالذل والصغار، ويحشركم يوم القيامة إلى النار، قد بذلت لكم النصيحة إن كنتم تحبون الناصحين، والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، والعاقبة للمتقين، (وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم)(٢).
تمت الدعوة

(١) في (ج): لا تبادروا.
(٢) في (ج): وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين وسلم تسليماً.

(١٤٣/٢)

رسائل وكتب
في
أصول التشريع
الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه
m
قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:
يسئل من قال: إن بعض القرآن قد ذهب، وأنكر أن يكون هذا القرآن الذي في أيدي الناس هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعينه، لم يزد فيه ولم ينقص منه؛ فيقال له: خبرنا عن حجج الله سبحانه على عباده ما هن؟ وكم هن؟ (١)
فلا يجد بدأ أن يقول: هي الكتاب والمرسلون، والعقول والأئمه الهادون. فإذا أقر بذلك، وكان الأمر عنده كذلك؛ قيل له: أو ليس في كل حجة لله فروض مؤكدة، لا بد من العمل بها واستعمالها لها.
فإن قال: لا، كفر، وإن قال: نعم، قيل له: ما فرض كل واحدة منهن الذي لا بد من استعمالها به؟ وما معنى جعل الله لها؟
فإن كان جاهلاً جهل ذلك، وإن كان عالماً أجاب في ذلك بالحجة والصواب؛ فقال: حجة العقول ركبت وجعلت لتدل على خالقها؛ بما تستدركه من مجعولات جاعلها، وتميزه من فعل فاعلها، جعلت للإقرار بالله والتمييز بين الأمور، ومعرفة الخيرات والشرور.
والأنبياء فأرسلت تدعو إلى الله تعالى، تنذر يوم التلاق، وتحتج على العباد للواحد الخلاق، وتبين لهم ما فيه يختلفون، وما إليه من العمل يدعون.
والأئمة من بعد الرسل؛ فجعلت لتدل على شرائع الأنبياء وتحكم بالحق بين العباد، وتنفي عن الأرض الغي والفساد.
وأما الكتب ففيها فرائض الرحمن وحججه، وحلاله وحرامه، وتبيين ما أحل الله لعباده، وما حرم عليهم، وما أمرهم به، وما نهاهم عن فعله، وما وكد من أحكامه فيهم، وما أوجب في كل الأسباب عليهم، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيْعٌ عَلِيْمٌ} [الأنفال:٤٢].

(١) في (أ،ج): ما هي وكم هي.

(١٤٤/٢)

فإذا قال بذلك، قيل له: ويحك ما أغفلك؟! وأبين حيرتك، وأظهر جهلك وأقل علمك؛ بما تذكر من قولك، وتقول إن الكتب عندك على ما ذكرت وفسرت؛ وقد تعلم أن أعظم الكتب كتاب محمد عليه السلام؛ الذي جعله الله نوراً وهدى، وتبياناً ورحمة وشفاء، فرض فيه الفروض، وأصل فيه الأصول، وبين به حلاله وحرامه، وفي ذلك ما يقول جل جلاله، عن أن يحويه قول أو ينالـه، {مَا فَرَّطْنَا فِيْ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}، ويقول سبحانـه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً} [النحل: ٨٩]، ثُمَّ أمر رسوله باتباعه، والانقياد لما فيه؛ فقال: {اتَّبِعْ مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [الأنعام: ١٠٦]، ثُمَّ تقول بعد: إنَّه قد ذهب بعضه، ولم يبق منه إلاَّ أقله، وهو دعائم الرحمن، وفيه ما يحتاج إليه من أمور الله في كل شأن؟!
فإن كان ذلك عندك كذلك؛ فقد ذهبت أكثر فرائض الله سبحانه، وعدمت حجته فتركت، وعطلت ورفضت، واستبْدَلَتَ بنور الحق وبهجته؛ حيرة الباطل وظلمته، فلا ذنب للعباد فيما جهلوا من الحق، وارتكبوا من الفساد، وتركوا من فرائض الله الَّتِي قد ذهبت مع ذهاب عامة كتابه، إذ هم عنها غافلون، ولها جاهلون، إذ لم يجدوها، ولم يطلعوا عليها ولم يعلموها.

(١٤٥/٢)

ومن قال بذهاب بعض القرآن؛ دخل عليه بقوله الفساد في أمره ودينه، حتَّى لا يقوم له حجه، ولا تثبت له بينه، وذلك(١) أنَّه لو قال له قائل: أنت أيها المناظر تزعم أن القرآن قد ذهب منه بعضه، لا بل تقول ذهب أكثره؛ وأنت تعلم أن القرآن ناسخ، ومنسوخ، وأمر ونهي وخبر، وهذه الفرائض الَّتِي في هذه البقيه؛ الَّتِي يزعمك بقيت في أيدي الناس؛ فهي منسوخة كلها، وليست بمبينة للحكم، والمبينة للحكم فهي ما قد نسخها، مما قد ضل وذهب؛ لقطعه وأفسد ما في يده؛ من قوله: إن القرآن قد ذهب بعضه، واضطره إلى أن يبطل(٢) ما في القرآن من هذه الأحكام، المعروفة عند جميع أهل الإسلام؛ أو يرجع إلى الحق، ويقول في القرآن بالصدق، فيقر(٣) أنَّه هو بعينه، لم يذهب منه شيء، وأنه محفوظ ممنوع من كل غي. وإنَّما ألزمناه ذلك لأنَّه يزعم أن بعض القرآن قد ذهب، ومن قال بذلك لم يدر أهذه الفرائض الَّتِي في الكتاب الذي في أيدي المسلمين منسوخة أم ناسخة؟ وأن من(٤) لم يعلم ذلك علماً يقيناً لم يجب عليه الإقرار بما لا يوقنه، فضلاً عن العمل به.

(١) في (ب): وكذلك.
(٢) في (ب): إلى ما يبطل.
(٣) في (أ): ويقر.
(٤) في (ب): فإن لم يعلم.

(١٤٦/٢)

بل لو كابره مكابر مخالف؛ فقال(١) له: عندي ما ذهب من القرآن، وأنا أقيم عليه وأقيمه، وهو ناسخ لما(٢) في هذه البقية، فأنا لا أقيم هذه الأحكام الَّتِي قد نسخت، وأقيم الأحكام الَّتِي نَسَخَتْها، وأعبد الله سبحانه بالفرائض الَّتِي ذهبت من هذا القرآن؛ الناسخة لهذه البقية في أيدي الناس، وأنا بذلك عالم، لأنَّه عندي وفي يدي؛ ثُمَّ ذكر وادعى أن الفرض(٣) في الصيام هو صيام رجب، وأن صوم رمضان منسوخ، كما نسخ غيره من الصلاة إلى بيت المقدس، وغير ذلك من الأحكام، وقال: أنا أصلي الصلاة في أوقاتها الَّتِي سميت في هذه(٤) البقية، لأن هذه الَّتِي معك منسوخة، نسختها الأحكام الَّتِي ضلت وذهبت، وقال: إنَّه لا يجلد الزاني، ولكن تقطع يده، ولا يقطع السارق؛ ولكن يجلد مائة جلدة، وادعى أن هذا الحكم مثبت فيما ذهب من القرآن، وأنه قد فهم ذلك منه وعلمه، وقال: إن حكم السارق والزاني في هذه البقية الَّتِي تزعم أنها بقيت في أيدي الناس منسوخ، نسخه ما جهل من القرآن وذهب، فأنا أعمل بالناسخ واترك المنسوخ. وكذلك يعارضه في كل فرائض القرآن، فإذا عارضه معارض بهذا القول؛ لم يكن له(٥) أن يدفعه بها صغرت ولا كبرت(٦)، لأنَّه قد أجابه وأجمع معه على أن القرآن قد ذهب بعضه، بل عامته في زعمه. ولو كان القرآن كذلك؛ لكان الناس كلهم قادرين على ادعاء ما أحبوا أن يدعوا من ذلك، ولبطلت فرائض الله وحدوده، ولم يقم لله حد على عباده، لأن ما قال من ذلك لو كان يدرأ الحد(٧)؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ادرأوا الحدود بالشبهات)).

(١) في (ب): وقال.
(٢) في (أ): لكل ما في.
(٣) في (ب): الفرائض.
(٤) يعني الَّتِي معه الَّتِي قد زعم أنَّها ذهبت.
(٥) في (أ، ج): لم يكن له بُدٌّ.
(٦) في هامش (ج): أو كبرت
(٧) في هامش (ج): لدرأ.

(١٤٧/٢)

وهذا القول الفاسد المحال، الكاذب المضل الضآل؛ فلو أجاب إليه المسلمون قائله، أو جاز أن يقول به المؤمنون؛ لوجب عليهم وعلى إمامهم أن يأتوا بناسخه، ومنسوخه، وجميع ما ذهب منه، وإلا فلم يجب لهم على كل ذي حَدٍّ يَدٌ؛ لأن كل ذي حد وجب عليه في شيء أحدثه يزعم ويدعي أن حكم الله بالأدب في ذلك منسوخ، ويقول: إنَّه لا يحد بهذا الحد في هذا الجرم، وإن حده غير هذا الحد الذي في هذه البقية بزعم من يزعم أن القرآن ناقص، ويقول: هلموا ما ذهب منه فاتلوْه؛ فإن لم تجدوا فيه ما ينسخ هذا فحدُّوني، وإن وجدتم فيه ما أدعي فخلوني. فتعالى الله عما يقول فيه المبطلون علواً كبيراً، والحمد لله رب العالمين كثيراً، الحافظ لكتابه المانع له من كل خطأ وزلل، أو ذهاب، أو نقصان. وكيف يذهب من القرآن قليل أو كثير؛ وهو حجج الواحد اللطيف الخبير، وفيه فرائضه على الخلق سبحانه؟ فقد حُفِظ ومُنِع .... (١) من كل شأن من الشأن. فتأويل قال بنقصان الفرقان، أما سمع قول الواحد الرحمن: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيْدٌ فِيْ لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢١-٢٢]، فأخبر أن القرآن عنده، محفوظ له جل جلاله. وفيه ما يقول: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيْزٌ لا يَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ} [فصلت: ٤١-٤٢]، ويقول سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ}[الحجر:٩]، فأخبر أنَّه لما نزل من الذكر حافظ، ولم يلفظ بغير الحفظ فيه لافظ، إلاَّ عم جاهل، وعن الرشد والحق زائل، ولقول الله مبطل معاند، ولما ذكر الله من حفظه له جاحد.

---

(١) بياض في (ب ، ج) فقط.

(١٤٨/٢)

وفي ذلك ما حدثني أبي عن أبيه، أنَّه قال: قرأت مصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عند عجوز مسنة، من ولد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فوجدته مكتوباً أجزاء، بخطوط مختلفة، في أسفل جزء منها مكتوب: وكتب علي بن أبي طالب، وفي أسفل آخر: وكتب عمار بن ياسر، وفي آخر وكتب المقداد، وفي آخر: وكتب سلمان الفارسي، وفي آخر: وكتب أبو ذر الغفاري، كأنهم تعاونوا على كتابته، قال جدي القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه: فقرأته فإذا هو هذا القرآن الذي في أيدي الناس حرفاً حرفاً، لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً؛ غير أن مكان: {قَاتِلُوا الَّذِيْنَ يَلُوْنَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} [التوبه: ١٢٣]؛ اقتلوا الذين يلونكم من الكفار، وقرأت فيه المعوذتين.

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه: ومن الحجة في حفظ القرآن، وإبطال ما يقال به من ذهابه وافتراقه، وزواله ونقصانه؛ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتَّى يردا علي الحوض))، فأخبر صلى الله عليه أن الله جل ثناؤه أخبره بنبأهما، وبأنهما حجة منه على خلقه، باقية في أرضه إلى يوم حشر العالمين.

والحمدلله رب العالمين، أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

*****

(١٤٩/٢)

كتاب تفسير معاني السنة

تفسير معاني السنة والرد على من زعم أنها من رسول الله من كلامه صلى الله عليه وآله وسلم

m

الحمدلله علام الغيوب، البريء من كل نصب ولغوب، الواحد العلي، القدوس الأزلي، الذي رفع السماء فبناها، وسطح الأرض فطحاها، خالق المخلوقين، ورب المربوبين، وباعث الموتى، ومبتدئ الأحياء، العالم بخفيات سرائر الغيوب، المطلع على غوامض سرائر القلوب، المتعالي عن القضاء بالفساد، المتقدس عن اتخاذ الصواحب والأولاد، الآمر لعباده بالرشاد، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الواحد الأحد العليم الخبير.

أحمده على ما من به فينا، وتفضل به سبحانه علينا، من ولادة النبيين، ووراثة علم المرسلين، ونشكره على ما خصنا به، وجعلنا بفضله من أهل القيام (١) بحجته، والدعاة (٢) لخلقه إلى ما افترضه عليهم، وأوجبه إيجاباً مؤكداً فيهم، من الأمر بأمره، والنهي عن نهيه، والحكم بكتابه، والاتباع لدينه، والمجاهدة لمن جاهده (٣)،

والمعاضدة لمن نصره، والمعاداة لأعدائه، والموالاة لأوليائه، والقيام بأكبر فروضه قدرا، وأعظمها لديه خطرا، وهو الجهاد في سبيله، والمباينة لمن عَنَدَ عن دينه، وفي ذلك ما يقول جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأَموَالَهُمْ بَأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِيْ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمِ} [التوبة:١١١]، ثم قال تبارك وتعالى فيما يذكر من تعظيم ما ذكرنا من الجهاد الكريم: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

---

(١) في (أ، ج): من أهله من القيام.
(٢) في (أ، ج): والدعاء.
(٣) كذا في النسخ، وظننا في هامش (ج) بقوله: عانده.

(١٥٠/٢)

فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِيْنَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِيْنَ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ أَجْراً عَظِيْماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيْماً} [النساء:١٩٥ ـ ١٩٦]، ثم قال سبحانه فيما أمر به عباده من النفير في سبيل الله، والإحياء لشرائع دينه: {انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة:٤١]، ثم قال تخويفاً للقاعدين، وإعذاراً وإنذاراً للمتربصين، واحتجاجاً على المتخلفين؛ عن واجب ما أوجب أحكم الحاكمين، وتبييناً لفضل المنابذين؛ لمن نابذ شرائع الدين، وجهد في إبطال الحق واليقين، وكان ضداً مدافعاً للحق، وكهفاً وسنداً للفسق: {إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيْماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ} [التوبة:٣٩]، ثم ذكر سبحانه فذم ذا التَّعِلاَّتِ(١)، وأهل التأويلات الباطلات، فأخبر أنه لاعذر لهم فيما به يعتذرون، ولاحجة لهم فيما فيه يتأولون، من التعلق بالشبهات، والتسبب لمنال (٢) الفكاهات، والتلذذ بمقاربة الأولاد والزوجات، وجميع الأموال من التجارات، فقال سبحانه تحذيراً لهم، وتنبيهاً عن وسنتهم، وتيقيظاً (٣) لهم من رقدتهم: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيْرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ فِيْ سَبِيْلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى

---

(١) يعني أصحاب الأعذار الكاذبة.
(٢) في (ب): والتسبب لمثال.
(٣) في (ب): وتيقظاً.

(١٥١/٢)

يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِيْنَ} [التوبة:٢٤]،سمى من كان كذلك، أو ضرب لنفسه (١) تأويلاً (٢) في ذلك فاسقين، وأوجب لهم ما أوجب على الفاجرين، من عذاب الجحيم، والخلود في العذاب الأليم. ثم قال سبحانه ترغيباً لعباده المؤمنين، وإخباراً لهم بما أعد لهم على الجهاد من الثواب المبين: {يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِيْ جَنَّاتِ عَدْنِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمِ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحِ قَرِيْبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ} [الصف:١٠ ـ ١٣]، صدق الله سبحانه إن ذلك للتجارة الكبرى، والكرامة الجليلة العظمى، والحظ العظيم، والأمر الجسيم؛ الذي جل ذكره وعظم قدره، وحسن عند الله مآب فاعله، وجل لديه سبحانه خطر القائم به، جعله له سبحانه مؤتمناً على خلقه، ومرشداً إلى أمره، خصه بخواص الكرامة الكاملة، وأعطاه العطية الفاضلة، وجعله حجةً شاملة، ونعمةً على الخلائق دائمة. نسأل الله إيزاع شكره، وبلوغ ما نؤمل من طاعته، فإن ذلك أفضل ما أعطى الخلق من العطاء، وأعظم ما بلغه بالغ من الرجاء، ونسأل الله أن يصلي على محمد عبده ورسوله المصطفى، وأمينه المرتضى، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، وصفوته من بريته، صلى الله عليه وأهل بيته الطيبين الأخيار، الصادقين الأبرار، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

---

(١) في (أ) و(ج): ثم سمى.
(٢) في (ب): تأولاً.

(١٥٢/٢)

ثم نقول من بعد الحمد لله والثناء عليه، والصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أما بعد، فإنا نظرنا في أمور هذه الأمة وأسبابها، وقلبنا ما قلبنا من حالها وأخبارها، وافتراق أقاويلها، وفساد تأويلها، وقلة ائتلافها؛ فوجدنا أمورها تدل على أنها ضيعت ما به أمرت، حتى صعب قيادها، وكثر حيادها؛ فقلَّ(١) فهمها، (وقل احتياطها)(٢)، وكثر تخليطها، وصار لكلها قول مقول، وعمل فادح معمول، ينفر منه القلب الجهول، فضلاً عن أهل المعرفة والعقول.

(١) في (أ،ج): وقل.
(٢) زيادة من (أ).

(١٥٣/٢)

كان من أنكر قولها، وأعظم جهلها؛ ما قالت به في الله سبحانه، ورمت به بجهلها رسوله، فزعمت لعظيم غفلتها وغامر(١) رقدتها؛ أن دينها الذي به تعبدها ربها كتاب ناطق مضيء، وسنة جاء به من نفسه النبي، شرعها من ذاته، وتخيّرها للعباد بنظره، لم يأمر بها الرحمن، ولم تنزل عليه في آي القرآن، فزعمت بذلك من قولها، ولزمها في أصل مذهبها، وحاق بها في جميع قولها؛ أنها(٢) زعمت فيما ذكرت وقالت: أن الله سبحانه وكل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في الدين إلى نفسه، ولم يشرع له كلما يحتاج إليه من فرضه، كأن لم تسمع الله سبحانه يقول، فيما نزل على نبيه من القول: {مَا فَرَّطْنَا فِيْ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام:٣٨]، ويقول سبحانه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِيْنَ} [النحل:٨٩]، وكأن لم يسمعوا قوله: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ} [العنكبوت: ٥١]، فأخبر سبحانه بقوله: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ} أن فيما نزل من تبيانه، ونوره وبرهانه؛ كفاية لهم في كل ما افترض عليهم، ولو كان ترك شيئاً مما يحتاجون إليه لم ينزله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن وعلى لسان جبريل؛ لم يقل: أولم يكفهم، فدل بما شهد به من الكفاية لهم على أنه لم يكل نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم؛ إلى استخراج شيء مما افترض عليهم وعليه، وإنه لم يترك شيئاً من فرائضه، ولا شرائع دينه؛ إلا وقد أوحى به إلى رسوله وحياً، ونزل عليه به نوراً وهدىً، فلم يكف هذه الأمة؛ ما نزل الله فيما ذكرنا من الحجة؛ حتى قالت: إن كل فرع مفرع مما فرعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو منه اختياراً وتمييزاً من نفسه، وأن ذلك ليس هو من ربه.

(١) في (ب): لعظيم غفلتها وغامرة.
(٢) في (ب): أنما.

(١٥٤/٢)

من ذلك ما قال الله سبحانه في الصلاة الموجبة والزكاة المفترضة؛ حين يقول: {أَقِيْمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة:٤٣، وغيرها]. فزعمت هذه الأمة فيما ذكرت، وبه على الله سبحانه اجترأت، أو من قال بذلك منها؛ أنه لم يكن من الله جل جلاله وعظم عن كل شأن شأنه في الصلاة غير ما أمر به من إقامتها، وأنه لم يحد لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من حدودها، ولم يوقفه على ما به كمالها؛ من ركوعها وسجودها وعدد ركعاتها، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اخترع ذلك من نفسه، وسنه لأمته، وجعله ديناً لها من ذاته. وأن شرائع الزكوات وما به تجب الزكاة في الأوقات المفروضات المؤقتات، وما يؤخذ من الأموال الصامتة والأنعام السائمة والأطعمات، وما يجب في التجارات من الأعشار وأنصافها، وما حد في ذلك كله من الحدود

المعروفة، وأوقف عليه في كل ذلك من الأفعال المفهومة؛ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا من الله؛ وأن ذلك شيء فعله برأيه، واختاره بتمييزه(١)، وفعله باجتهاده، وفرضه على أمته، دون خالق المخلوقين، وإله العالمين.
وكذلك قالوا في جميع الفرائض(٢) المفروضة، والفروع المفرعة(٣).
فزعمت هذه الأمة، أو من قال بذلك منها: أن ما كان في الكتاب ناطقاً موصولاً؛ فهو من الله فرض مفترض، وما كان من تفريع الأصول، وتمييز ما ميز صلى الله عليه وآله وسلم من الفصول؛ فإنه منه لا من الله، وأنه فعله لا فعل الله، ثم سموا ذلك الفرع سنة، وأخرجوا معنى السنة من الفريضة، وتوهموا أن ذلك كما قالوا، ولم يعلموا ما عليهم في ذلك، حتى حكموا به وسموه كذلك.

(١) في (ب): لتمييزه.
(٢) في (أ): قالوا جميعاً في الفرائض.
(٣) في (أ،ج): المتفرعة.

(١٥٥/٢)

فلما عظم الأمر، وجل الخطر، ورأينا الهلكة واقعة بهم، والضلالة شاملة لهم؛ رأينا أن نفسر قول القائل: (سنة)، ونشرح ما السنة؟ وكيف كان تفريع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فرع من الأصول المنزلة، التي جاءت في كتاب الله سبحانه مجملة.
فقلنا: إن رسول الله عليه السلام لم يكن ليخترع أمراً دون الله سبحانه، وأنه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم حين يقول: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأحقاف:٩]، وكما قال عليه السلام: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِيْنَ} [ص:٨٦].

(١٥٦/٢)

ونقول: إن الله سبحانه لم يكل شيئاً من ذلك إلى نبيه يبتدعه ولا يشرعه، ولا يفرضه ولا يثبته، إذاً لقد كلفه شططاً من أمره، وألزمه معوزاً من فعله، بل القول في ذلك المبين، والحق النير اليقين؛ أن الله سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه؛ أصَّل(١) أصول فرائضه في الكتاب المبين، ونزله على خاتم النبيين، فجعل في كتابه أصل(٢) كل ما افترضه من الدين، وبينه لجميع العالمين، فكانت أصول الدين في الكتاب كلها، وجاءت الفصول مفصولة، والفروع المفرعة؛ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الله ذي الجلال والإكرام؛ على لسان الملك الكريم؛ جبريل الروح الأمين، فنزل شرائع(٣) الدين، وتفريع أصول القرآن المبين، على محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما نزل عليه السلام بالأصول إليه، وكان نزوله بالفروع مفرعة؛ كنزوله بالأصول المجملة المجتمعة، وأدى جبريل الروح الأمين، إلى محمدٍ خاتم النبيين؛ فروع شرائع الدين، عن الله رب العالمين؛ كما أدى مجملات أصول القرآن المبين. والسبب في تفريق ذلك من الله، فنظر من الله لبريته، وعائدة على خلقه، ولطف في فعله وصنعه، وتقوية لمن أراد حفظ كتابه، وجعل(٤) ما نزل من وحيه وبيانه. فخفف عنهم في الكتاب، وأعانهم بذلك في كل الأسباب، ففرق بين الأصول الموصلة، والفروع المفرعة، فجعل الأصول في الكتاب مجملة جاء بها جبريل، وجعل الفروع في غير الكتاب جاء بها أيضاً جبريل، وكل من الله(٥) وحي مبين وتفصيل، وفرضاً منه سبحانه وتنزيل، بعث بهما كليهما رسولاً واحداً، ملكاً عند الله مقرباً، أميناً مؤتمناً، فأدى إلى الرسول ما به أرسل، وتلا عليه من ذلك ما أمر بتلاوته عليه، فكان ذلك من الله فرضاً مميزاً، وديناً من الله مفترضاً، لم يكن من رسوله فيه اختيار، ولم يشرع لأمته من دين الله إلا ما

(١) في (ب): أنزل.
(٢) في (أ،ج): أصول.
(٣) في (ج): بشرائع.
(٤) كذا في النسخ وظنن في هامش (ج) بـ وحمل.
(٥) في (ب): فكان من الله.

(١٥٧/٢)

شرع الله، ولم يأمرها إلا بما أمرها الله، ولم ينهها إلا عما نهاها الله.
من ذلك ما قلنا به من قول الله: {أَقِيْمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة:٤٣، وغيرها]، فنزلت هاتان اللفظتان في القرآن موصلتين، وجاءتا فيه مجملتين، فاحتملت الصلاة أن يصلى كثيراً أو قليلاً، إذ جاء ذلك مجملاً، ثم فسر الله ذلك على لسان جبريل، كما نزل على لسانه القرآن الجليل، فجعل الله الظهر أربعاً، والعصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً، والعتمة أربعاً، والصبح اثنتين، فبين لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم تفسير ما جاء في كتابه مجملاً؛ من أمره بالصلاة جزماً، ولم يكله إلى أن يتكمه في ذلك تكمهاً، ولا أن يتخبط فيه صلى الله عليه وآله وسلم تخبطاً.
وكذلك لمَّا أن قال سبحانه(١): {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، احتمل أن تؤخذ من كل دينار ودرهم، وشاة وجمل، ومدّ ومكوك(٢)، ومن الغني والفقير، ومالك ألف شاة، ومستغل ألف مد، ومستغل مد، وصاحب ألف دينار وصاحب دينار؛ لأنه سبحانه يقول: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيْهِمْ بِهَا} [التوبة: ١٠٣]، ولم يفسر فيما أنزل من القرآن، كم يأخذ من كل إنسان، مالك الحقير والقليل، ومالك الكثير والجليل. ثم فسر سبحانه على لسان الملك الذي نزل بالقرآن، من عند الواحد الرحمن؛ ما يجب في الأموال، وما يؤخذ من أهلها في كل حال، وما يجب على المالك الموسر، وفي كم تسقط عن المالك المعسر، وكم هي؟ وكيف هي؟ حتى سن أسنان مواشيها، فجعلها سناً سناً، في عدد معروف معلوم، وكذلك فيما يكال ويوزن من الوزن والكيل المفهوم.

---
(١) في (ب): قال سبحانه.
(٢) المُدّ: مكيال، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورطلان عند أهل العراق، والمكوك كذلك، وهو ثلاث كيلجات، والكيلجة مناً وسبعة أثمان مناً، والمنا رطلان.

(١٥٨/٢)

وكذلك قال تبارك وتعالى في الديات، فقال: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيْهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيْمٌ} [البقرة:١٧٨]، (فقال سبحانه: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيْهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ})(١)، فقال: {عُفِيَ} يريد من القتل(٢) إلى الدية، فأمر(٣) بأداء الدية إلى من عفى، إذا قبل الدية وأرادها. ثم قال سبحانه في موقع آخر: {فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ} [النساء:٩٢]، في قتل الخطأ فأوجب الدية. وقال في موضع آخر: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة:٤٥]، فجعل في جروح العمد القصاص، وجعل القود(٤) في قتل العمد، وجعل الديات في جروح الخطأ، فأنزل ذكر ذلك في الكتاب مجملاً، ولم يجعله مشروحاً مفسراً، ثم بينه على لسان نبيه وفسره، وجعل الدية ألف مثقال في أهل الذهب، وعشرة آلاف درهم فقلة في أهل الدراهم، وجعلها ألفي شاة في أهل الغنم، وجعلها مائتي بقرة في أهل البقر، ومائة من الإبل في أهل الإبل، ثم سنَّنها وبيَّنها على لسان نبيه عليه السلام، ثم لم يكن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك شيء إلا البيان، والأداء عن الله بإحسان.

---
(١) ليس في (أ).
(٢) في (ب): فقال عفا، يريد عفا من القتل.
(٣) في (أ): ثم أمر.
(٤) في (أ): كما جعل القود. والقود هنا: القصاص.

(١٥٩/٢)

وكذلك جميع الفرائض والمواريث، ففسر منها في كتابه ما فسر(١)، وفسر على لسان نبيه(٢) باقي ذلك.
وكذلك في جميع أحكام الحلال والحرام، فكل ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه حلال؛ لا يجوز تحريمه، وما قال إنه حرام؛ لا يجوز تحليله، وكل ما أوقف الأمة عليه، وجعله فرضاً عليها مفروضاً؛ لم يجز

لها تعديه، ولم يطلق لها النقصان ولا الزيادة فيه؛ فهو من الله سبحانه لا منه صلى الله عليه وآله وسلم، لم يزد رسول الله عليه السلام فيما أمر به، ولم ينقص منه، بل أدى الأمانة والنصيحة فيه صلوات الله وبركاته عليه.
فمن قال: إن شيئاً من هذه المحصورات(٣)؛ من المحرمات والمحللات؛ كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة ابتدعها لم تبين ولم تشرح ولم تشرع؛ فقد جهَّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجهَّل في قوله بذلك الله عز وجل، سبحانه عن ذلك، وتعالى علواً كبيراً أن يكون كذلك، أو أن يكل نبيه عليه السلام إلى نفسه، أو أن يجعل إليه شيئاً من فرض دينه، حتى يفرضه دونه.
ومعنى قول القائل: سنه، فإنما هو بينه وأظهره، وذكره عن الله وشرعه، وبينه عنه سبحانه وأعلنه، لا أنه اقترحه ولا اخترعه.

(١) في (ب): المفسر.
(٢) في (ب): لسانه.
(٣) في (ب، ج): المحظورات.

(١٦٠/٢)

و من الحجة في ذلك أن يقال لمن قال أو ظن هذا القبيح من الظن: أخبرنا عن دين الإسلام وأحكامه، وما جعل الله تبارك وتعالى فيه من نوره وبرهانه، وما اختار(١) فيه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم؛ هل كان عند الله معلوماً، ومن قبل خلق الدنيا في علمه تبارك وتعالى مفهوماً، لا يزل عنه منه صغير، ولا يغيب عنه طول الدهر منه كبير؟ فلا يجد بداً من أن يقول: نعم، قد كان دين الإسلام وشرائعه، وما جعل الله تبارك وتعالى فيه من فروضه وحدوده؛ عند الله سبحانه معلوماً، لم تزد بعثة محمد ولا إيجاده في حدود الإسلام وما علمه الله من فرائض دين محمد عليه السلام شيئاً، بل جاءت وكانت، وافترضت وبانت؛ بعد بعثة محمدٍ على الأصل الذي كان عند الله معلوماً، الذي(٢) اختاره على الأديان كلها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته.
فيقال له عند إتيانه بما ذكرنا، وتثبيته(٣) لما قلنا وشرحنا: أيها المناظر، إذا كان عندك هذا القول على ما قلت، فمن أين علم محمد صلى اللّه عليه جميع ذلك؟ حتى استخرج مكنون علم اللّه القديم، وشرائع دين اللّه الكريم، حتى أتى بها على ما كانت، وبينها على ما فرضت، وأقامها على ما حددت، من قبل إيجاده وخلقه، وكينونته (وبعثته) (٤).
فإن قال: استخرجها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بعقله، واستدل عليها بلبه.
قيل له: سبحان اللّه ما أجهل هذا المقال، وأفحش هذا الفعال؟! وكيف يستدل بعقل على علم غيب عند اللّه مكتوم؟! هذا ما لا يكون أبداً؛ إذ المخلوقون(٥) لا يعلمون غيباً، ولا يفهمون(٦) مما استتر به سراً.
فإن قال: عَلِمَه بتوفيق الله.

(١) في (ب): ومما اختاره.
(٢) في (ج): وما الذي.
(٣) في (أ): وتبيينه.
(٤) ليس في (أ).
(٥) في (ب): والمخلوقون.
(٦) في (ب): ولا يفقهون.

(١٦١/٢)

قيل له: ليس هذا مما يلزمه التوفيق، ولا يجوز عليه فيه طرف من التحقيق، لما فيه من عظيم فروض الله، وجليل صنع الله، وأمره ونهيه، وزجره وفعله، وما أوجب به وفيه وعليه من الثواب للمطيعين، والعقاب على العاصين. وإنما يكون من اللّه التوفيق في غير المفروضات من الأمور، فأما شرائع الدين؛ وما تعبد به المسلمين؛ فلا يكون إلاّ بتبليغ الرسل، والاحتجاج بذلك على جميع الملل. فلا يَجِد بدًّا من الإقرار بالحق، والتعلق بعلائق الصدق(١)، والرجوع إلى قول المؤمنين، أو أن يثبت على باطله، من بعد إثبات الحجة (عليه في مذهبه) (٢)، فيكون عند نفسه وعند غيره مكابراً، وللحجج البالغة مناصباً، ولا يجوز له في دينه احتجاج

ولا بيان، ولا يجد على الباطل بحمد اللّه عوناً ولابرهاناً، فإذا بان له خطأ هذين المعنيين، وفساد هذين الوجهين؛ لم يجد بداً من أن يقول بقولنا؛ فيزعم أن جميع ذلك من اللّه سبحانه وحي أوحاه إلى نبيه على لسان مَلَكِه، كما أوحى القرآن على لسانه.
ولعمري ما سبيل أصول الأحكام، وما تعبد اللّه به أمة محمد عليه السلام؛ إلاَّ كفرعها، ولا فروعها إلاَّ كأصولها، وما أصولها وإن جاءت في الكتاب مجملة؛ بأوكد فرضاً من فروعها المتفرعة، وما كان محمد عليه السلام إلى علم مجملها؛ بأحوج منه إلى علم فروعها؛ لأن الفروع هي العمل، والعمل فهو الإيمان؛ لان الإيمان كما قال أمير المؤمنين: ((قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول)). والفروع فهي أصول الأعمال وأصول الإيمان، وإذا كان ذلك كذلك؛ فلا بد أن سبيلها عند اللّه كسبيل ما أجمل في القرآن، لا يختلف معنى الفروع والأصول، إلاَّ عند من سُلِبَ العقول.

---

(١) سقط من (أ).
(٢) في (ب): والتعليق بالصدق.

(١٦٢/٢)

ومن الحجة على ما به قلنا؛ من أن اللّه سبحانه نزل الفروع على نبينا(١)، كما نزل الأصول في كتابنا؛ قول اللّه سبحانه: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الشورى: ٢٥] فأخبره أنَّه لم يكن يدري ما هذا الكتاب المجمل، ولا هذه الفروع التي هي الإيمان المنزل.
وفي ذلك ما يقول: {وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى}[الضحى: ٧]، يريد تبارك وتعالى ضالاً عن شرائع الدين، وفروع ما أجمل في القرآن المبين، فلم يكن صلى اللّه عليه يدري كم يصلي الظهر، ولا كم عدد العصر، ولا كم يأخذ من أموال الناس المسلمين من الزكاة، ولا كم فرض اللّه عزَّ وجل فيها، ولا متى تجب، ولا في كم تجب، بل كان ضالاً عن ذلك كله، وضلاله عنه فهو: جهله به، وقلة معرفته بما يريد اللّه أن يفترض عليه. فلم يكن عليه السلام يعلم من ذلك إلاَّ ما عُلِّم، ولم يفرض على الأمة إلاَّ ما به أُمِر، ولم يكن من المتكلفين، ولا من غير ما أمر به من المتكلفين(٢).

---

(١) في (ب): على ما بينا.
(٢) كذا في النسخ، ولعلها: ولا بغير ما أمر به من المتكلمين. كما ظن بذلك في (ط).

(١٦٣/٢)

ومن الحجة في ذلك أنَّه لو كان كما يقول الجاهلون، ويتكلم به الضالون، من أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فرع هذه الفروع، من نفسه، وأوجدها(١) وبينها من دون ربه؛ لكان محمد عليه السلام؛ المفترض لجميع هذه الفرائض والأحكام على جميع الأنام، دون اللّه الواحد ذي الجلال والإكرام، ولو كان صلوات اللّه عليه المفترض لذلك، المحدد له الجاعل على أمته، لكان هو المتعبد لها بفرضه، المدخل لها في حكمه، المصرف لها في عبادته، دون اللّه تبارك وتعالى عن ذلك، وحاشا لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون كذلك؛ لأن الأمة إنما عبدت اللّه بهذه الشرائع وهذه الفروع، وبإقامة هذه الأحكام، وتحليل الحلال منها وتحريم الحرام.
فلو كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يقول الجاهل(٢) من أهل هذا المقال ـ هو المفرع لهذه الفروع والناشر لها والمتخير فيها، المحلل لحلالها المحرم لحرامها، اختياراً منه بفعله، وتمييزاً منه بلبِّه، وحتماً منه على أمته، اختراعاً له دون ربه؛ لكان محمد متعبداً(٣) للأمة بفرضه، وكانت الأمة عابدة محمداً دون ربه؛ إذ هي قائمة بفرائض محمد ساعية فيها، مقيمة لها مستقيمة عليها. وفي هذا ومثله وفي القول
ه ه انه وحي ل Mجضجاه م أوجـ ت را زوله، تعالى اللّه عن ذلك عل

ينقص في شيء مما أمر بتبيينه للعباد، وأنه قد بلغ وأرشد غاية الإرشاد.

(١) في (ج): وأوجبها.
(٢) في (أ): الجاهل.
(٣) في (ج): مستعبداً.
(٤) في (ب): الجمل.

(١٦٤/٢)

ثم نقول: إن كل ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنَّه حرام لا يجوز تحليله، أو إنَّه حلال لا يجوز تحريمه، ومحظور لا يجوز إطلاقه، ومطلق لا يجوز حظره؛ فإنه من الله لا منه، وأنه لم يفعل ذلك إلاَّ بأمر الله، ولم يتعد فيه فرض الله، وأن ذلك لا زم للأمة، وأنَّ لمن خالفه أو نقض بعضه العقاب والعذاب، وأن لمن أدَّاه على وجهه وعبد الله بما تعبده به الثواب.
فكل ما ذكرنا من ذلك من الحلال والحرام، وشرائع الدين والأحكام، فهي من الله حقاً حقاً. وليس حالها كحال غيرها مما جعله رسول الله عليه السلام من نفسه واختياره ورآه، مما لم يجعل الله ولا رسوله على تاركه عقاباً. مثل ما سنَّ من الوتر، وتقليم الأظفار، وحلق الشعر، والسواك، وتعفية اللحية، وأخذ الشارب، وغير ذلك مما سن وفعل، واختار لنفسه من زيادات العبادة والصلاة، مثل ما كان يصلي ويلزم ويحب، من ركعات كان يصليهن فيما سوى الفريضة. ومثل ما كان يرى من التعزيرات، ويفعله عند النازلات، وما كان يكون منه من التأديب لأمته على ما يكون من خطأ أفعالها؛
لأن الخطأ من أفعال الأمة على أربعة أوجه(١):
فوجه يجب لله فيه حد، وهو ما جعل فيه سبحانه حداً في كتابه وسماه، مثل: ضرب الزانيين(٢)، وقطع السارقين، وحد القاذفين، وما أشبه ذلك مما جاء في الكتاب حده مبيناً.
والوجه الثاني: فما نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحدَّه له وأمره به؛ من أدب من ارتكب شيئاً محرماً، مثل: حد الخمر المحرمة في الكتاب، نزل بالحد فيها - وفسره كما فسر غيره من الفروع - جبريلُ لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) في (أ) و(ج): وجوه.
(٢) في (ب): الزانِيَيْنَ.

(١٦٥/٢)

والوجه الثالث: فخطأ من أفعال العباد، يجب للنبي عليه السلام فيه الأدب على فاعله، وهو مثل رجل لو ضم امرأة إليه، أو قبَّلها، أو نظر إلى شعرها أو بشرها، فلرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاختيار في أدبه وتعزيره، على قدر ما كان من فعله وجرمه، يقل الأدب أو يكثر، على قدر ما يرى من بلوغ الأدب، وجزع(١) المؤدب.
وكذلك الأئمة لها في ذلك الاختيار، تعزر بما رأت، يقل الأدب أو يكثر، على قدر ما ترى من عظم الجرم وصغره، وبلوغ الأدب في المؤدَّب، واحتماله للأدب، عليها فرض أن تُعْمِل النظر في ذلك، وتتحرى التنكيل للمؤدَّبين، قل الضرب في ذلك أو كثر، تطلب بلوغ جزع المؤدَّب والإبلاغ منه؛ بما ترى فيه من الصلاح له.
والوجه الرابع فهو: اللَّمَم الذي ذكر الله، وهو فعل لا يجب فيه الحد لله، ولا لرسوله ولا للأئمة أدب. واللمم فهو: ما ألم به صاحبه من غير تعمد ولا اعتقاد، ولا هم ولا عزم، مثل: النظر عن غير تعمد، والمزاحمة للمرأة عن غير قصد، وما أشبه ذلك مما لم يتقدم له ذكر في ذلك على فاعله، ولم يقصد به اجتراء على خالقه، ولا تعمداً لإتيان معصية(٢)، ولا استحلال مُحَرَّم فهذا معنى اللمم الذي ذكره الله سبحانه.
ومن الحجة على من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرع من ذاته شيئاً من الفرائض المحكمات، أو شرع من ذاته شيئاً من الأحكام المشروعات؛ أن يقال له: خبرنا عن فعل الله، هل هو فعل نبيه؟ وعن فعل نبيه هل هو فعله؟
فمن أصل قوله إذا كان موحداً، وبالله عارفاً، أن يقول: لا، ثم يقول: فعل الله خلاف فعل محمد صلى الله عليه

وآله وسلم، وفعل محمد خلاف فعل اللّه عزَّ وجل. فيقال له حينئذٍ: ألا ترى أن هذا الذي ذكرت أن محمداً فرعه وشرعه وفصَّله، وأمر العباد بفعله؛ هو فعلٌ لمحمد؟ فإذا قال: نعم، قيل له: أفليس فعل محمد خلاف فعل الله؟

(١) في (ب): وجزوع.
(٢) في (ب) معصيته، محرمة

(١٦٦/٢)

فإذا قال: نعم. قيل له: فمحمد إذن هو المفترض للفرائض على الأمة دون الله؛ إذ كان فعل محمد خلاف فعل اللّه، ومحمد إذاً ـ لو كان ذلك كذلك ـ كان المعبود بأداء فرائضه دون اللّه؛ إذ الفرض من محمد لا من الله. فلا يجد بداً إن كان بالله عارفاً، وله موحداً؛ من أن يرد جميع ما تعبد به الأمة إلى اللّه عزَّ وجل، ويزعم ويقول ويعتقد أنَّه من الله، حتى يصح له القول بأن المسلمين عبدوا اللّه لاغيره، ويثبت الفعل في فرض المفروضات لله لا لغير الله؛ لأن العبادة من العابدين لم تصح إلاَّ بأداء الفرائض لمن افترضها، فمن ثبتت له الشرائع والتفريع والتبيين؛ ثبتت له الفرائض، ومن ثبت له الافتراض للمفروضات؛ ثبتت له العبادة في كل الحالات من العابدين، وهم المؤدون للفرائض المحكمة، والشرائع المثبتة، التي لا تصح لهم عبادة إلاَّ بأدائها، ولا ديانة إلاَّ بإقامتها.
فهذه حجة على من عرف الله بالغة كاملة، بينة نيرة، تبين لمن أفكر فيها، وتصح لمن تدبَّر معانيها. والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين.
ومن الحجة على من قال: إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كما يقول المبطلون؛ أنَّه لو فرع الفروع من نفسه، وأوجبها على الأمة دون ربه، لكان المتعبد لنفسه بالفرض(١) الذي أوجبه عليها وفرعه لها؛ لأنَّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أول العابدين، وأخلص المخلصين، وأقوم القائمين بهذه الفروض المفروضات، والفروع المفَرعات، فهو قائم بها، عابد لمن فرضها بإقامته لحدودها. فالفارض(٢) لها هو المعبود دون غيره، فتبارك الله رب العالمين، الذي فرض فرائضه على جميع المربوبين، الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وجميع الثقلين.

(١) في (ب): بالفرع.
(٢) في (أ) و (ب): والفارض.

(١٦٧/٢)

وفي تبري رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلم من التكلف لشيء(١) من فروع أحكام اللّه عزَّ وجل وفرضه، وما جعل من برهانه ودينه، ما يقول اللّه تبارك وتعالى: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي}[الأعراف: ٢٠٣].
فإن قال قائل: ما معنى قول من يقول: سنة؟ وما معنى دُعَاء من دعا إلى الكتاب والسنة؟
قيل له: معنى الدعاء إلى ذلك هو: الدعاء إلى الأصول الموصلة، والجمل المجملة، والآيات المنزلة. وإلى الفروع المفرعة، والأحكام المحكمة، والشرائع المبينة، والطاعات المفترضة.
والكتاب فهو جزء من وحي اللّه وأحكامه، وسنته جزء آخر من وحي اللّه وتبيانه. فسمى الوحي الذي فيه أصول المحكمات من الأمهات المنزلات قرآناً؛ لأنَّه جعل الأصول إماماً وقواماً، وللفروع المفرعات أصولاً وتبياناً. وسمى الجزء الثاني من وحي الله عزَّ وجل وفرائضه سنة وبرهاناً. فكان ما يتلى في آناء الليل والنهار أحق بأن يسمى قرآناً؛ لما فيه من واجب التلاوات، وما يتعبد به المتعبدون من الدراسات، وكان ما فسر به المجملات، مما بين به المتشابهات من الفروع المبينات، أولى بأسماء السنة في البابن من اللغات؛ لأن معنى السنة، هو: التبيين للموجبات للحجة. لقول العرب: سَنَّ فلانٌ سُنَّة، تريد بين أمراً، وشرع خيراً، وجعل شيئاً يستنَّ به فيه. ومعنى: يستن به، أي يقتدى به فيه ويحتذا.
وكذلك وعلى ذلك يخرج معنى قول القائل: سَنَّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كذا وكذا، يريد أظهر وبين ما جاء به من عند اللّه. والسنة فهي الأحكام المبينة، والفرائض المفصلة، فهي لله سبحانه ومنه، لا من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ولا عنه، وليس له فيها فعل غير التبليغ والأداء، والنصيحة(٢) والإبلاء.

(١) في (ب): من التكليف بشيء.
(٢) في (ب): وأداء النصيحة.

(١٦٨/٢)

والسنة فهي سنة اللّه عزَّ وجل، وإنما نسبت إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم على مجاز الكلام؛ إذ هو المبلغ لها، والآتي عن اللّه سبحانه بها، كما يقال للقرآن: كتاب محمد، وكما يقال للإنجيل: كتاب عيسى، وكما يقال للتوراة: كتاب موسى، قال اللّه سبحانه في ذلك، وما كان من الأمر كذلك: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوْسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً}[هود: ١٧]، فسماه كتاب موسى ونسبه إليه، وإنما هو كتاب اللّه عزَّ وجل الذي نزل على موسى. وكذلك مجرى السنة في قول القائل: سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يريد سنة الله، ومعنى سنة الله، فهو فرض اللّه وحكمه، وتبيانه لدينه وعزمه، قال اللّه جل جلاله: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}[غافر: ٨٥] يريد سبحانه بقوله: سنة الله، أي ذكر اللّه وفعله، وصنعه في خلقه وأمره.
ومن قال: سنة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يريد بها غير ما ذكرنا من المعنى، أو توهم في ذلك أنَّه شيء من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لا من الله؛ فقد جهل أمر الله، وحرف معاني وتأويل قول الله، ونسب البهتان إلى رسول اللّه صلى الله عليه، وقال بأفحش القول في اللّه سبحانه وفيه.
والسنة فلم تعارض الكتاب أبداً؛ بإبطال لحكم من أحكامه، ولا أمر من أمره، ولا نهي عن نهيه، ولا إزاحة شيء من خبره، ولا رد شيء من منسوخه، ولانسخ شيء من مثبته، ولا إحكام شيء من متشابهه، ولا تغيير شيء من محكمه، بل السنة محكمة لكل أمر من الأحكام المؤصلة، المبينة للمعاني المفصلة، مفرعة للمجملات المنبئة(١) عن التأويلات، يشهد لها محكم الكتاب، وتنبي عنها جميع الأسباب؛ أنها من اللّه رب الأرباب.

(١) في (ب): المبينة، وفي (ج): المتبينة.

(١٦٩/٢)

ومَا رُوِيَ عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم - من الفروع التي جاءته(١) عن اللّه عزَّ وجل وتبارك وتعالى، حتى يقال إنها من السنة - فلَمْ يشهد له الكتاب، ولم يوجد فيه ذكرها مفصلاً، أو مجملاً مؤصلاً ثابتاً، فَلَيْسَ هو من الله، وما لم يَكن من اللّه فلم يقله رسول الله، وما لم يقله رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ويحكه عن اللّه؛ فهو ضد السنة لا منها، وما لم يكن منها لم يجز في دين اللّه أن ينسب إليها.
فآيات الكتاب هي الأمهات؛ لشرائع سنته(٢) المفرَّعات، والأمهات فهن المحكمات، وإليهن ترد المفصلات.
ومن الشواهد لما جاء من الروايات؛ مما حكي من السنن المبينات، وفي ذلك ما يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ((سيكذب عليَّ كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما أتاكم(٣) عني فأعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب اللّه فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب اللّه فليس مني ولم أقله)) يريد صلى الله عليه وآله وسلم: أن ما وافق الكتاب مما روي عنه من الأحكام، ومن شرائع الإسلام؛ فإنه منه أخذ، وإنه جاء به عن الله، وما خالف الكتاب فليس من السنة التي جاء بها عن الله؛ لأن جميع الوحي الذي جاء عن اللّه سبحانه من السنة والقرآن، فهما شيئان(٤) متشابهان متفقان، لا يتضادان أبدا ولا يفترقان.
وليس ما كان من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من فعل أو اختيار جاء به عن نفسه منسوباً إلى اللّه ولا عنه، ولا مشابهاً لشيء من أحكام السنن. بل قد كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى رأياً، وفعل فعلاً مما ليس هو فيه بمخالف لسنة ولا لكتاب، بين ذلك عن نفسه، وأخبر أنَّه ليس من ربه.

(١) في (ب): جاء بها.
(٢) في (ب): أمهات لشرائع سنته.
(٣) في (ب): جاءكم.
(٤) في ب: سِيَّان.

(١٧٠/٢)

مثل ما كان منه صلى الله عليه في الجَدِّ الذي لقيه بالجحفة راجعا من حجة الوداع، فقال: يا رسول الله، إن ابن ابني مات، فمالي (ميراث)(١) من ماله؟ فقال عليه السلام: لك السدس، فلما أن أَبْعَد الشيخ رَقَّ عليه رسول اللّه صلى الله عليه ورحمه، لما بان له من ضعفه وقلة حيلته وكبر سنه، فرده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: لك السدس الآخر، فلما أن مضى الشيخ وأبعد رده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثانية؛ فقال له: إن السدس الثاني مني طُعْمَة لك، فبين صلى اللّه عليه وآله ما كان منه، وبين ما كان من الله، فلما أن قال: السدس الثاني طعمة مني؛ علمنا أن السدس الأول حكم من الله. فبين صلى اللّه عليه وآله فعله من فعل اللّه عزَّ وجل؛ لأن لا يقع على الأمة تخليط في دين الله؛ ولأن يبين(٢) لها أحكام ربها، وفعلَه لكيلا يكون لها عليه في شيء من الدين حجة.

وكذلك كان عليه السلام يفعل في كل ما كان منه من تأديب أمته، وأفعاله فيها، وسياسته لها، يبين فعله من فعل الله، ويخبر بما جاء به عن الله.

وكذلك ما كان من فعله وكراهيته من حمل الحمير على الخيل، وذلك قوله لعلي رحمة اللّه وصلواته عليهما حين قال: مما تكون هذه البغال؟ فقال: يحمل الحمار على الفرس فيخرج من بينهما بغل، فقال صلى اللّه عليه: ((إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون)) أو قال: الذين لا يعقلون.

فكره صلى اللّه عليه وآله وسلم أن تحمل الأشكال إلاَّ على أشكالها، وأن تخلى الفحول إلاَّ على أمثالها. فكان هذا منه كراهية واختياراً،، ولم يكن هذا شيئاً مما أتى به(٣) من الواحد الجبار.

---

(١) سقط من (أ)، و(ج).

(٢) في (ب): ولا يتبين.

(٣) في (أ ، ج): أتاه.

(١٧١/٢)

ومِثْلُ هذا مما كان من رأيه وفعله، ولم يأته في كتاب اللّه ولا سنته؛ مما كان يستحبه ويفعله من نوافل صلواته، وتعبده من بعد الفرائض المفروضات لما كان يتعبد من النوافل المعروفات، اللواتي كن منه اختياراً وعبادة، يطلب بذلك من اللّه الفضيلة والزيادة؛ كان ذلك منه صلى اللّه عليه استحساناً لنفسه، ولم يكن فرضاً من اللّه لا يسع تركه، ولا يجب على من تركه الكفر بربه؛ لان بين الفرض وغيره من النوافل فرقاً بيناً، وفصلاً نيراً؛ فَكَثِيرٌ يعلمه العلماء، ويفهمه الفهماء، ليس بفرض لازم واجب(١) على المتعبدين؛ إذ لم يكن فريضة من اللّه رب العالمين، إن أخذ به أحد فقد أخذ بركة ويُمْنَاً، واتبع فضلاً ورشداً، وإن تركه تارك ـ من غير زهد فيه، ولا قلة معرفة بفضله، ولا استخفاف بحق فاعله، ولا اطراحاً لرأي صانعه، ولا مضادة له في فعله ـ لم يكن بتركه له في دين اللّه فاجراً، ولا بعهد رسول اللّه صلى اللّه عليه غادراً.

فافهم هديت ما به في السنة قلنا، وأحسن الفكر والتمييز فيما منهما (٢) شرحنا؛ تبن بذلك إن شاء اللّه من الجهال، وتبعد بمعرفته من اسم الضلال، وتسلم بحول اللّه من قول المحال.

والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى اللّه على محمد خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطيبين وسلم تسليماً كثيراً.

(تم كتاب السنة ولله المنة) (٣).

****

---

(١) في (ب): بفرض واجب.

(٢) كذا في النسخ، ولعلها: منها.

(٣) من (ب).

(١٧٢/٢)

---

m

الحمدلله الذي فطر الأشياء على إرادته، وجعلها كيف شاء بعزته، وعمَّ المخلوقين برحمته(١)، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة، ولم تعدم منه في الموجودات آثار قدره، فكلُّ شيء عليه سبحانه دليل، فتبارك الله الواحد الأحد الجليل، الذي لا تُعزِه(٢) كثرة المخلوقين، ولا تنقصه قلة المربوبين، الذي لا تتم بغيره(٣) الصالحات، ولا تبلغ شكر الآئه القالات، ولا تحيط بذكر إفضاله الصفات(٤)، ولا تعروه السنات، العالم بخفيات الغيوب، المطلع على سرائر القلوب، الذي لم يحل بين عباده وبين طاعته، ولم يدخل أحداً من خلقه في معصيته، الهادي للسبيلين، والمبين للنجدين، والفاصل بين العملين، المحتج بالرسل على العالمين، المتفضل على الخلق بالمرسلين، الذي لم يزده إيجاد الخلق(٥) به خبرة، ولم يترك لهم عليه سبحانه حجة، الذي لم يزل ولا يزال، الواحد الأحد الصمد ذو الجلال، أول الأولين، وآخر الآخرين، وفاطر السموات والأرضين، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، الذي لم يتخذ ولداً(٦) ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً.

وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، (خير مبعوث من البشر إلى خلقه)(٧)، أمينه على وحيه، وخيرته من بريته، صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم تسليماً.

ثُمَّ نقول من بعد الحمدلله والثناء عليه،والصلاة على محمد صلى الله عليه:

---

(١) في (ب): بنعمته.
(٢) كذا في النسخ، ولعلها: لا تَفِرُه. من الوفرة وهي الزيادة.
(٣) في (ب، ج): لغيره.
(٤) في (أ): السموات.
(٥) في (ب): المخلوقين.
(٦) سقط من (ب): الذي لم يتخذ ولداً.
(٧) زيادة من (ب).

(١٧٣/٢)

إن سأل سائل فقال: من أين وقع في هذه الأمة هذا الإختلاف(١) في الحلال والحرام؟ حتى صار كلٌّ يفتي برأيه، ويتبع في قوله أئمَّة له مختلفين، فيقول في ذلك بأقاويل قوم مفترقين، فإذا أوردت مسألة على وجه واحد أحَلَّها محلِّلٌ، وحرَّمها محرِّم، فكيف يجوز أن يكون معنى واحد مؤتلف، يأتي فيه قول متشتت مختلف؟! فيحل على لسان مفت لمستفتيه، ويحرم على لسان آخر على من ينظر فيه.

قيل له: وقع هذا الإختلاف وكان ما سألت عنه من قلة الإئتلاف؛ لفساد هذه الأمة وافتراقها،وقلة نظرها لأنفسها في أمورها، وتركها لمن أمرها الله باتباعه،والإقتباس من علمه، ورفضها لأئمتها وقادتها الذين أمرت بالتعلم منهم، والسؤال لهم، وجعلوا شفاء لداء الأمة، ودليلاً على كل مكرمة، ونهاية لكل فضيلة(٢)، وأصلاً لكل خير، وفرعاً لكل بر، وفصلاً لكل خطاب، ودليلاً على كل الأسباب؛ من حلال أو حرام، أو شريعة من شرائع الإسلام.

فلما أن تبرأت الأمة منهم، واختارت غير ما اختار الله، وقصدت غير ما قصد الله، فرفضت علماءها، وقتلت(٣) فقهاءها، وأبادت أدلتها إلى النجاة والصواب، وحارت لذلك عن رشد كل جواب، ولم تهتد إلى نهج(٤) قول من الأقوال، في حرام ولا حلال، فضلت عند ذلك وأضلت، وهلكت وأهلكت، وتقحمت في الشبهات، وقالت بالأقاويل المعضلات، تخبطاً(٥) في الدين، وتجنباً عن اليقين، ضلالاً عن الحق، ودخولاً في طرق الفسق، ظلماً وطغياناً، وضلالة وعصياناً، تركت ما به أمرت، وقصدت ماعنه نُهيت، فقال كل واحد منها فيما يرد عليه من الدين بهوى نفسه، وإرادة قلبه، وتمييز صدره، لم يهتد في ذلك بهدى، ولم يلق مصابيح الدجى، ولم يسأل عنه أهل البر والتقوى، ولم يهتد فيه بالأدلاّء.

---

(١) في (ب): الخلاف.
(٢) في (ب): ونهاية على كل فاضلة. وفي (ج): لكل.
(٣) في (ب): وقلدت.
(٤) في (ب،ج): إلى وجه.
(٥) في (ب): خبطاً.

(١٧٤/٢)

فكان مثلهم فيما فعلوا من ذلك: كمثل قوم ركبوا مفازة مضلة، وأخذوا معهم فيها أدلاَّء بُصَرآء، حتى إذا توسطوها قتلوا الأدلاء، فبقوا في حيرة عَمىً(١)، لا يهتدون سبيلا، ولا يعرفون ماء ولا طريقاً، فلم يزالوا فيها متحيرين، ذاهبين وجائين، مقبلين ومدبرين، حتى هلكوا أجمعين، فكانوا سبب هلاك أنفسهم، وسبيلاً إلى تلفهم، فذهبوا غير مقبولين ولا محمودين، بل مذمومين عند الله معذبين.

كذلك مثل هذه الأمة ومعناها، فيما نالته من فقهائها وأدلائها؛ الذين جُعِلوا لمن تبعهم نوراً وهُدىً، ودليلاً إلى الله العلي الأعلى. وهم آل محمد صلى الله عليه وعليهم، فضلَّت الأمة بعدهم، وهلكت عند مفارقتهم، ولعمري أن لو قصدت لرشدها، وتعلقت بالحبل الذي جعل لها متعلقاً، وكهفاً في كل أمر وملجأ؛ لما ضلت عن رشدها أبداً، ولا وقع اختلاف بين اثنين في فتيا، ولا اشتبه مشتبه في حلال ولا حرام؛ إلاَّ وجد بيانه عند آل محمد عليهم السلام؛ لأنهم أهل ذلك وموضعه، ومكانه ومركبه الذي ركبه الله عليه، وجعله معدناً له وفيه، اختاره لعلمه، وفضله على جميع خلقه، نوراً(٢) على نور، وهدى على هدى، وحاجزاً من كل ضلالة وردى، أئمة هادين، ونخبة مصطفين، لا يخاف من اتبعهم غيا، ولا يخشى عمى ولا ضلالاً، محجة الإيمان(٣)، وخلفاء الرحمن، والسبيل إلى الجنان، والحاجز عن النيران(٤)، تقاة(٥) أبرار،وسادة أخيار، أولاد النبيين، وعترة المصطفين، وسلالة النبي، ونسل الوصي، وخيرة الواحد العلي، مشرب لايظمأ من ورده، ودواء لايسقم من تداوى به، شفاء للأدواء، ووقاية من البلاء، كهف حصين، ودين رصين، وعمود الدين، وأئمة المسلمين، قولهم صواب بلا خطأ، وقربهم شفاء بلا ردى، أعني بذلك الطاهرين المطهرين، والأئمة الهادين، من أهل بيت محمد المصطفى، وموضع الطهر والرضى،

---

(١) في (ب، ج): حيرة عمياء.
(٢) في (ب): نور.
(٣) في (ب): الأمان.
(٤) في (أ): القرآن.
(٥) في (أ، ج): ثقات.

(١٧٥/٢)

الموفين(١) إذا وعدوا، والصادقين إن نطقوا، والعادلين إن حكموا.

فإن قال السائل عن الخِلْفة، المتكلم في الفرقة. أفتقولون: إنهم لو قصدوا هذا المعدن(٢) في علمهم، واقتبسوا منه في حلالهم وحرامهم لم يضلوا، ولم يفترقوا، ولم يقع اختلاف بينهم فيما به تكلموا؟!

قيل له: نعم كذلك نقول، وإليه معنانا يؤول.

فإن قال: فكيف لا تقع الفرقة، ولا يكون بين أولئك صلوات الله عليهم خِلْفة؟

قيل له: لأنهم أخذوا علمهم من الكتاب والسنة، فلم يحتاجوا إلى إحداث رأي ولا بدعة، تكلموا بالكتاب الناطق، واعتمدوا على الوحي الصادق، فكان الكتاب والسنة لهم إماماً يحتذون حذوه، ويقتدون في الأمور قدوه، فثبت لهم به الإلفة، وزالت عنهم الفرقة.

فإن قال السائل: فخبرونا عما عنه نسألكم، وأنبئونا عما(٣)نسمع من قولكم، أتقولون: إنَّ جميعَ ما يدور بين الناس من الحلال والحرام، وما يرد من أحكام هذه الأمة على الحكام، وما يجري بينها من القضايا والأحكام، في قليل القضاء وكثيره، وقديمه وحديثه، وصغيره وكبيره؛ هُوَ كُلُّه في الكتاب موجود، وفي قلوب الحكام من آل رسول الله ثابت غير مفقود؛ فكلما ورد عليهم سبب من الأسباب؛ وجدوه عند وروده مُبَيَّناً في الكتاب، وكان في صدورهم محفوظاً، موجوداً معلوماً مصححاً؟

---

(١) في (أ)، و(ج): الوافين إن.
(٢) في (ب): أهل المعدن.
(٣) في (أ): نسئل.

(١٧٦/٢)

قيل للسائل عن ذلك: إن الأصولَ كلها، والفروعَ المحتاج إليها؛ في الكتاب والسنة، فإذا علم العالم ذلك وأتى على معرفته، وعرف مجمله ومحكمه، وفروعه ومتشابهه، ونظر في ذلك كله بقلبٍ فَهِمٍ، سالم من الجهل، بريء من الخطل، بعيد من الزلل؛ ثُمَّ وردت عليه مسألة استدرك علمها ساعة ترد عليه؛ إما بآية ناطقة، أو شريعة باسقة(١)؛ تنطق له بالحكم فيما ورد عليه، وتبين له ما يحتاج من ذلك إليه، أو بقياس يصح من السنة، ويثبت في الايات المحكمة، وتشهد له الشرائع المشروعة؛ يكون هذا القياس فرعاً من فروع الحق، ثابتاً ونوراً شاهداً على ما فيه من الصدق. فيكون القياس ممن علم ما قلنا، وتفرع فيما ذكرنا وفهم ما شرحنا؛ قياساً واحداً، إذ كان ذلك له أصلاً مؤصَّلا، تخْرجُ هذا القياس وتبينه، وتشرعه وتوضحه، وتَدلُّ عليه وتُفرعه؛ حُجَجُ الله التي في الصدور، المركبة للتمييز بين الأمور؛ من هذه العقول المجعولة لما ذكرنا، المركبة لما شرحنا؛ من التمييز بين الباطل والحق، والفرق بين البرِّ والفسق.

(١) في (ج): ناسقة.

(١٧٧/٢)

فإذا علم الحاكم ما يحتاج إليه من الأصول والفروع؛ لَمْ يَخْرُج كلما يرد عليه من أن يكون حكمه وقياسه في أصول الكتاب وفروع السنة؛ إما شيئاً ناطقاً قائماً قد حكم به المجمْل المؤصَّل، وبَيَّنَهُ الفرع المفصّل، فيحكم فيه بحكمهما، ويحتذي العالم فيه بوجههما(١)، فإن عدم لفظ ما يأتي من الحكم(٢) والفتيا، من أن يكون في المجمل أو المفصل منصوصاً مفسراً؛ لم يعدم قِيَاسَه والدليل عليه، حتى يَقِف بالمثل على مثله، ويَعرفَ الشكل في ذلك بشكله، ويقيس ما أتى من ذلك على أصله؛ لأن أصلَ كلِّ حق وهدى، وقياس كل حكم أبداً؛ فَفِيْ الكتاب والسنة موجودٌ، يستخرجه العالم بعقله(٣)، ويستدل على قياسه بمركب لبه، حتى يتبين له نوره، وتشرع له طريقه، ويصح له قياسه على الحق الذي في الكتاب، تشهد له بذلك شواهد(٤) القرآن، وتنطق له بالتصديق السنة في كل شأن. فَيَكُونُ العالمُ في علمِهِ، واستخراجه لما يحتاج إليه من حكمه، من كتاب الله وسنته؛ على قدْر ما يكُونُ من صفاءِ ذهنه، وجودةِ تمييزه، واستحكام عقله، وإنصافه لِلُبِّه، وجودةِ تمكن علم الأصول في قلبه، وثبات علم الكتاب والسنة في صدره، الذين عليهما يقيس القايسون، (وبهما يحتذي المحتذون، وإليهما يرجع الحاكمون، ومنهما يقتبس المقتبسون)(٥)، وإليهما عند فَوَادِحِ النَّوازِلِ يلجأ العالمون.

(١) في (ج): بموجبهما.
(٢) في (ب): المحكم.
(٣) في (أ): بحكمه.
(٤) في (أ): سور.
(٥) سقط من (أ).

(١٧٨/٢)

فإذا كَمُلت معرفة العالم بأصول العلم المعلوم، وصحت معرفته بفهم غامض الشرائع المفهوم، فكان لعلمه به، واستدراكه لغامضه وجودة دراسته(١)، وإحاطته بباطنه وظاهره قاهراً بحول الله وقدرته لما يرد عليه من متشابهه، عارفاً بما يحتاج إليه من قياسه، مضطلعاً بتمييز فروعه، بصيراً بتفريع أموره. فكُلّما وَرَدَ عليه من ذلك وَاردٌ أصْدَره باستدراكه له مَصْدَرَه. فصعْبُ العلم على من كان كذلك سَهْلٌ يسير، وغامضه عنده والحمدلله بَيِّنٌ مُنِير، لا يشتبه عليه فيه شبهان، ولا يستوي في الحكم عنده منه ضِدَّان، يميز مميزاته بعقله، ويفرق مفترقاته بلُبِّه، ويجمع مجتمعاته بفهمه، قد أحْكَمَتْهُ في ذلك التجربة(٢)، وأعَانَتْهُ على ذلك الخبرة(٣)، فكلما ورد عليه فرع من الفروع ردَّه إلى أصله، وكلما ورد عليه شيء من متشابهه(٤) بينه بالرد له إلى محكمه، لا يَغيبُ عمَّن وهَبَهُ الله عِلْمَ كتابه، وفهَّمه(٥) معاني سننه؛ مَوْضعُ حاجته، ولا مكان فاقته؛ من حلاله وحرامه، وما يرد عليه من مفترق القضاء عند ورود مزدحمات المسائل على قلبه، ومتراكمات النوازل على فهمه. فكُلَمَّا وَرَدَ عليه من ذلك وَاردٌ فادح، أو قدح في قلبه منه عظيم قادح؛ اعتمد في (فصله، و)(٦)قطع مشتبهات أمره؛

على الأصول المحكمات في قلبه، والفروع المتفرعات في صدره؛ من الكتاب والسنة، فأنَارَ(٧) له بعون الله وفضْلِهِ نورُ الحقِّ وصدقُه، وصَحّ(٨) له برهانُ الحكم وحقُّه، فقال في ذلك بقولٍ أصيلٍ، واستدل منه على الحق بأفضل دليل.

(١) في (أ): رساخته.
(٢) في (ب): تجربته.
(٣) في (ب): خبرته.
(٤) في (أ، ج): المتشابه.
(٥) في (ب): في فهم معاني. والمعنى: مع فهم.
(٦) سقط من أ .
(٧) في (أ): فأبان. ولعلها بمعنى: بان.
(٨) في (ج): ووضح.

(١٧٩/٢)

فمَثَله - فيما يرد عليه من الفروع والفصول، مما يحتاج إلى قياسه على الأصول، - كمَثَل رجل اتخذ أرضاً فجعل في كل جانب منها نوعاً من أنواع الأشجار، (ثُمَّ)(١) غَذَّاها وسقاها، وقام عليها وذراها(٢)، حتى ثَبَّتَتْ أصولها، وتَفرَّعت فروعها، وخرجت ثمارها، فهو بمكان(٣) كل نوع منها عارف، وفهمٌ (عالم)(٤) غير جاهل، فكُلَّما سُئِل عن شجرة، أو طُلِبَ منه من ثمارها ثمرة؛ قصَدَ لموضعِ تلك الشجرة، فأخذ ما يحتاج إليه من ثمرها، فأَسْرَع به إلى طالبها، ولم يحتج - لمعرفته بموضع حاجته - إلى الدَّوَرَان في جوانب أرضه، والتفتيش عن حاجة سائله، كما يعمل الجاهل بمواضع تلك الأشجار، وأماكن تلك الثمار.
فالعَالِمُ في علمه، وعند قياسه وحكمه، والمَعْرِفةِ بما يرد عليه من شرائع دينه؛ كصاحب هذه الأرض المهتدي إلى ما يطلب منها، العالم بمواضع ثمارها، الخَابر بنواحي أشجارها. فحال العالم في عِلم ما دَارَسَ من(٥) حكمه، وحَفِظ وأحاط به مِنْ علمه؛ كَحَال معرفة صاحب هذه الأرض بأرضه. فاسْتِدْلالُ العالم واهتداؤه إلى قياس العلم والأحكام؛ فيما يرد عليه من الحلال والحرام؛ كاستدلال صاحب الأرض إلى أشجاره، ومعرفته بما يبتغيه من ثماره(٦)، لا فرق بينهما، ولا اختلاف عند ذي عقل فيهما. بَل اهْتِدآءُ من هداه الله إلى علمه، واسْتِدْلالُ من دلَّه الله على غوامِض حُكمِه؛ أَبْيَنُ تبياناً، وأَنْوَرُ في العقل برهاناً؛ من اهْتِدآء صاحب الأرض في أرضه، ومعرفته بما غرس من شجره. والحمدلله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين.

(١) ليست في (أ).
(٢) في (أ): ودارها. يعني أدارها.
(٣) في (أ، ج): بأماكن.
(٤) سقط من أ.
(٥) في (ب): فحال العالم في علمه ما داوس في.
(٦) في (ب): إلى أشجارها، ومعرفته إلى ما يبتغيه من ثماره.

(١٨٠/٢)

ثُمَّ اعلم(١) أيها السائل أن كلَّ قياس جاء مخالفاً للكتاب، أو جاء الكتاب له مخالفاً؛ حتى يكون كل واحد منهما ضداً للآخَر؛ فلاَ يصحُّ هذا القياس أبداً، ولا يثبت معه تأويل ولا هدى، (لأنه جاء مخالفاً للأصول)(٢)، ولم يكن والحمدلله ثابتاً في الفصول(٣). وفي ذلك ومثله، وما كان من شكله؛ ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنه سيكذب عليَّ كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما أتاكم عني فأعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله))، فجَعَلَ صلى الله عليه الكتابَ إماماً لكل ما روي عنه، أو قيل إنَّه منه يعرض عليه، فإنْ جاء مثله؛ عُلِمَ أنَّه من قوله، وإن جاء (مخالفاً)(٤) مضاداً لِشَيءٍ منه؛ عُلِمَ أنَّه ليس عنه. فهذا في الآثار المذكورة عن الرسول، فكيف بما سواها من القياس، الذي يتعاطاه ويطلبه بعض الناس؟ فلعمري لا يصح من قياسهم، ولا يجوز من مقالهم؛ إلاَّ ما شهد له الكتاب والسنة،

وكانت الموافقة لهما منه نيِّرةً بيِّنة، فعند موافقة القياس للكتاب؛ يصح القياس في الألباب، وعند مخالفة القياس للكتاب؛ يبطل ويفسد في جميع الأسباب.
فليفهم من كان ذا فهم ما به في القياس(٥) قلنا، وما منه أجزنا، وما منه دفعنا وأبطلنا.

(١) في (أ): واعلم.
(٢) سقط من أ. وفي (ج): لأنه مخالف.
(٣) في (ب): الأصول.
(٤) سقط من (ب،ج).
(٥) في (أ): الكتاب.

(١٨١/٢)

والقياس فلا يجوز أبداً، ولا يكون أصلاً بحيلة من الحيل، ولا يمكن أن يتناوله متناول، ولا يطول إليه متطاول، ولا يطمع به طامع؛ إلاَّ مِنْ بَعد إحكام أصول العلم بالكتاب، والوقوف على ما فيه من جميع الأسباب، من الحلال والحرام، وما جعل الله فيه من الأحكام، وبيَّن تبارك وتعالى من شرائع الإسلام، التي جعلها الله سبحانه للدين قواماً، وللمسلمين إماماً، وَمِن بَعْدِ علم أصول السنة، وفهم فروعها المتفرعة، فإذا تَمَكَّن المتمكن في علمه وأحاط بجوامع(١) ما تحتاج إليه الأمة في دينها، ثُمَّ تفرع فيما لا غنى للأمة عن معرفته في جميع أسبابها، من حلالها وحرامها، وما جعله الله ديناً لها، وافترضه سبحانه(٢) عليها، فإذا تَفَرَّغ في علوم الدين، وأحَاط بمعرفة ما افترض على المسلمين، فكان بذلك كلّه عارفاً، ومن الجهل بشيء منه سالماً؛ ثمَّ كان مع ذلك ذا لُبٍّ رَصِين، ودين ثابت متين؛ جَازَ لَهُ القِياس في الدين، وأمكنه الحكم في ذلك وبه بين المؤمنين، وكان حقيقاً بالصواب،حريّاً بإتقان الجواب، فأمَّا إن كان في شيء مما ذكرنا ناقصاً، أو عن بلوغه مقصراً، فَلَنْ يَصحَّ له أبداً قياسه، ولن يجوز له في دين الله التماسه؛ لأنَّه لِلأُصول غير مُحْكِم، وبالفروع غير فهم، ولن(٣) يقيس المثال على مثاله، أو يحذو الشكل على شكله؛ إلاَّ العارفُ بمحكمات أصله، فإذا أحْكَمَ أصله؛ قاس بذلك فرعه(٤).

(١) في (أ): بجميع.
(٢) في (أ): صاحبه.
(٣) في (ب): وليس.
(٤) في (ب): فروعه.

(١٨٢/٢)

ومَثَلُ ما به قلنا من تصرف الحالات، في أهل القياس والمقالات، كَمَثَل أهل الصناعات (من الأبنية والصباغات)(١)، فإذا كان منهم صانع محكم لعمله، محيط بأصل صناعته، عارف بابتدائها وانتهائها(٢)، عالم بتأليفها وإحكامها، ثُمَّ ورد عليه مثال يمثله، أو شيء يحتذيه(٣) ويصنعه احْتذى فيما تصور من مثاله، بمَا عِنْدَه من محكم أعماله، وأتى به على قياسه، لمعرفته بأصل قياسه، وإحكامه لما قد أحكم من أعماله، فعلى قدر تفرغه في البصر بأصول الصناعات، وتمكنه في المعرفة بها في كل الحالات؛ يَكُونُ إحْكَامه لتمثيل المثال على مثله، وتشبيه الشكل المطلوب منه بشكله، حتى يكون ما يأتي به مشابهاً لما يحتذي به، لا يخالفه في شبهه، ولا يفارقه في قياسه. ولن ينالَ ذلك غيرُه، مِمَّن لم يحكم أصول عمله(٤)، ولم يفهم متفرعات أنواع صناعته.
فكذلك المتناول للقياس في الأحكام، المتعاطي لذلك من شرائع الإسلام، لا يجوز له قياسه، ولا يصح له مثاله، حتى يكون لأصول الدين مُحْكِماً، ولشرائع العلم فهماً(٥)، وبمعرفة الكتاب والسنة قائماً، فعند ذلك يكون في قياسه كاملاً،(٦) ولعلمه مُحْكِماً، وعلى ما يَطْلُب من ذلك كله قادراً.

(١) سقط من (ب).
(٢) في (أ،ج): وآلاتها.
(٣) في (ب): بمثلها إن شيء يحويه. كذا. وهو تصحيف.
(٤) في (ب): علمه.

(٥) في (ب): فهيماً.
(٦) في (ب): قائماً كاملاً.

(١٨٣/٢)

ثُمَّ اعلم أيها السائل علماً يقيناً، وافهم فهماً ثابتاً مبيناً، أن العلماء تتفاضل في علمها، وتتفاوت(١) في قياسها وفهمها، وفي ما قلنا به من ذلك ما يقول الله سبحانه: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيْمٌ} [يوسف:٧٦]، وأنه ليس أحدٌ من المخلوقين؛ أَوْلَى بفهم أحكام رب العالمين؛ مِمَّن اختاره الله واصطفاه، وانتجبه وارتضاه، فجعله مؤدياً لدينه، قائماً بحكمه، داعياً لبريته، حايطاً لخليقته، منفذاً لإرادته، داعياً(٢) إلى حجته، مبيناً لشريعته، آمراً بأمره، ناهياً عن نهيه، مقدماً لطاعته، راضياً لرضاه، ساخطاً لسخطه، إماماً لخليقته(٣)، هادياً لها إلى سبيله، داعياً لها إلى نجاتها، مُخْرِجاً لها من عمايتها، مثبتاً لها على رشدها، مقيماً لها على جوآدِّ سبلها، ناصحاً لله فيها، قائماً بحقه سبحانه عليها. وَذَلِكَ وَأولَئكَ فهُم صفوةُ الله من خلقه، وخيرته من بريته، وخلفاؤه في أرضه، الأئمة الهادون، والقادة المرشدون، من أهل بيت محمد المصطفى، وعترة المرتضى، ونخبة العلي الأعلى، المجاهدون للظالمين، والمنابذون للفاسقين، والمقرِّبُون للمؤمنين، والمباعدون للعاصين، ثِمَالُ كل ثِمَالٍ، وتمام كل حال، الوسيلة إلى الجنان، والسبب إلى الرضى من الله والرضوان، بذلوا أنفسهم للرحمن، وأحيوا شرائع الدين والإيمان، لم يهنُوا ولم يَفْتَرُوا، ولم يُقَصِّروا في طلب ثأر الإسلام ولم يغفلوا، نصحوا المسلمين(٤)، وأحبوا المؤمنين، وقتلوا الفاسقين، ونابذوا العاصين، وَبيَّنوا حجج رب العالمين على جميع المربوبين، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيْعٌ عَلِيْمٌ} [الأنفال: ٤٢]، عملوا فَجُوْزُوا، ونصحُوا فقبلوا، وتقربوا من الله فقُرِّبوا، وأخلصوا

---

(١) في (أ): وتتقارب.
(٢) في (ب): داعية.
(٣) في (أ): لخلقه.
(٤) في (ب): ناصحوا المسلمين.

(١٨٤/٢)

لله سبحانه الديانة فأخلص لهم المحبة، طلبوا منه التوفيق فوفقَّهم، وسألوه التسديد فسدَّدهم ، وقاموا له بأمره فأرشدهم، واهتدوا إلى قبول أمره فزادهم هدى، وضاعف لهم كلَّ خير وتقوى، كما قال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: {وَالَّذِيْنَ اهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، قصدوا الحق فأرشدوا له، وأَتَمُّوا بالصدق فعملوا به، فوجبت لهم حقائق التوفيق، ونالتهم بحمدالله موقظات التحقيق(١)، وقصدتهم منه سبحانه قواصد النعمة، وشملتهم بفضله سبحانه شوامل الحكمة، فنطقوا بالبيان في قولهم، وحكموا بالحق في حكمهم، واهتدوا بالله سبحانه في أمرهم، وثبَتوا بزيادة (هدى)(٢) الله على الحق الفاصل، وتناولوا شكايم العلم الفاضل، فنالوا بعطاء الله الأكبر مالم ينل غيرهم، وقدروا على ما عجز عنه سواهم، فحكموا باختيار الله لهم وتوفيقه، وإرشاده لهم وتسديده؛ في كل نازلة بالصواب، وبعد عنهم فيها كل شك وارتياب، فكَانَ عِلْمُهُم ـ لما ذكرنا من اختيار الله لهم، واصطفائه إياهم، ورضاه باستخلافهم في أرضه، واسترعائه لما استرعاهم من بريته ـ عِلْماً جليلاً، وَكان قياسهم قياساً ثابتاً أصيلاً، إذ هم وأبوهم صلوات الله عليهم أصل كل دين، وعماد كل يقين، ومنه صلوات الله عليه وآله وسلامه تفرعت العلوم المعلومة، وثبتت أصول الأحكام المفهومة، ومنه ومن ذريته نيلت العلوم الفاصلة، وبلغت الأصول الفاضلة، فمن علمهم صلوات الله عليهم تفرعت الأحكام، ومن بحر فهمهم اسْتُقى جميع الأنام، فهم أصل الدين، وشرائع الحق المستبين، فكُلُّ علم نِيْلَ أو كُسِب؛ فمن فضل علمهم اكتُسِب، وكلُّ حكم حقٍّ به حُكِم؛ فمن حكم حقهم علم، فهم أمناء الله على حقه، والوسيلة بينه وبين خلقه، المبلغون للرسالات، الآتون من الله سبحانه بالدلالات، المثبتون على الأمة حججه البالغة، المسبغون

---

(١) في (ب): ونالهم من اللّه مرضات التحقيق.
(٢) سقط من أ.

(١٨٥/٢)

بذلك على الأمة النعم السابغة، لا يجهل فضلهم إلاَّ جهول معاند، ولا ينكر حقهم إلاَّ معطل جاحد، ولا ينازعهم معرفة ما به أتوا عن الله إلاَّ ظلوم، ولا يكابرهم فيما أدوه إلى الأمة عن الله إلاَّ غشوم(١)، لأنهم أهل الرسالة المبلَّغة، والآتون من الله بالحجة البالغة، الذين افترض الله على الأمة تصديقهم، وأمروا باتباعهم ونُهوا عن مخالفتهم، وحُضُّوا على الإقتباس من علمهم، ألا تسمع كيف يقول الرحمن، فيما نزل من النور والبرهان، حين يقول: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [الأنبياء: ٨٣]؟ فأمِرَت الأمة بسؤالهم عند جهلها، والإقتباس منهم لمفروض(٢) علمها. ثُمَّ قال الله سبحانه: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُوْلِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْتَنْبِطُوْنَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيْلاً} [النساء: ٨٣]، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا ما يجهلون علمه، ولا ينالون فهمه إلى الله؛ بالتسليم له في حكمه،وإلى الرسول في معلوم علمه، وإلى الأئمة من عترته فيماالتبس من ملتبسه،واشتبه على الأمة من متشابهه؛ لوجدوه عندالله في كتابه مُثبتاً، وفي سنة رسوله التي جاء بها عن الله مبيناً، وعند الأئمة من عترته صلى الله عليه نيراً بيناً. ثُمَّ اخبر سبحانه أنَّه لولا فضل الله على الخلق بإظهار من أظهر لهم من خيرته، وتولية(٣) من ولَّى عليهم من صفوته، إذن لاتبعوا الشيطان في إغوائه، ولشاركوه في غيه وضلاله، فامتن عليهم سبحانه بأئمة هادين (مهتدين)(٤)، غير ضالين ولا مضلين، صفوة الله من العالمين، وخيرته من المخلوقين، نور الأمة، وسراج الظلم المدلهمة، ورعاء البرية، وضياء الحكمة، ومعدن العصمة، وموضع الحكمة، وثبات

---

(١) في (أ): عن الأمة إلا غشوم.
(٢) في (أ): لفروض.
(٣) في (ب): وتوليته.
(٤) ليس في (أ).

(١٨٦/٢)

الحجة، ومختلف الملائكة، اختارهم الله على علمه، وقدمهم على جميع خلقه، علماً منه سبحانه بفضلهم، وتقديساً لهم على غيرهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيْرُ} [فاطر: ٣٢]، فأخبر بما ذكرنا من اصطفائهم على الخلق، ثم ميزهم فذكر منهم الظالم لنفسه، باتباعه لهوى قلبه، وميله إلى لذته. وذكر منهم المقتصد في علمه، المؤدي إلى الله فرضه(١)، المقيم لشرائع دينه، المتبع(٢) لرضى ربه، المؤثر لطاعته. ثُمَّ ذكر السابق منهم بالخيرات، المقيمين لدعائم البركات، وهم: الأئمة المطهرون(٣)، المجاهدون السابقون، القائمون بحق الله، المنابذون لأعداء الله، المنفذون لأحكام الله، الراضون لرضاه، الساخطون لسخطه، والحجة بينه وبين خلقه، المستأهلون لتأييده، والمستوجبون لتوفيقه، المخصوصون بتسديده، في كل حكم به حكموا، أو قياس في شيء من الأحكام به قاسوا، حجة الله الكبرى، ونعمته العظمى، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: {إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْراً} [الأحزاب: ٣٣]. وفي طاعتهم، وما أمر الله من رد الفتيا بين المفتين وما فيه يتنازع المتنازعون إليهم ما يقول الله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَطِيْعُوا اللهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِيْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُوْلِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيْلاً}

---

(١) في (ب): الفرض.
(٢) في (ب): المبتغي.
(٣) في (أ): الطاهرون. وفي (ج): الظاهرون.

(١٨٧/٢)

[النساء: ٥٩]. وما جاء من الله تبارك وتعالى لآل رسوله من الذكر الجميل، والحض للعباد على طاعتهم، والإقتباس من علمهم؛ فكَثِيرٌ غير قليل، يجزي قَلِيلُه عن كثيره، ويَسيرُه عن جليله، من كان ذا علم واهتداء، ومعرفة بحكم الله العلي الأعلى. وكل ذلك أمر من الله سبحانه للأمة برشدها، ودلالة منه على أفضل أبواب نجاتها، فإن اتبعت أمره رشدت، وإن قبلت دلالته اهتدت، وإن خالفت ذلك غوت(١)، ثُمَّ ضلت وأضلت، وهلكت وأهلكت، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٤٢].

وفي أمر الأمة باتباع ذرية المصطفى، ما يقول النبي المرتضى: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن(٢) تضلوا من بعدي الثقلين(٣): كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))، ويقول صلى الله عليه وآله في تفضيلهم، والدلالة على اتباعهم، وما فضلهم الله به على غيرهم: ((النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم من السماء أتى أهل السماء ما يوعدون، وإذا ذهب أهل بيتي من الأرض أتى أهل الأرض ما يوعدون)). وفيما ذكرنا من أمرهم ما يقول صلى الله عليه وآله وسلم: ((مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى)).

وهذا ومِثْلُه فكَثِيرٌ عنه صلى الله عليه وآله وسلم فيهم، يفهمه من روى عنه عليه السلام، ونحن نستغني بقليل ذكره عن كثيره.

ثُمَّ اعلم أيها السائل أن الحق لا يؤخذ إلاَّ من أحد ثلاثة وجوه: كتاب ناطق، أو إجماع من الأمة في ما نقلته عن النبي عليه السلام من السنة التي جاء بها عن الله، وَأمْرٍ بيَّنَتْه وصحّحَتْه العقولُ، وميَّزَتْ وأخرجت حقه، وشَرَعت صدقه.

---

(١) في (ب): غويت

(٢) في (أ): لم.

(٣) في (ب): من بعدي أبداً كتاب الله.

(١٨٨/٢)

ثُمَّ اعلم أيها السائل أن القياس يخرج على معنيين: أحدهما ثابت صحيح، والآخر باطل قبيح.

فأما المعنى الباطل منهما فهو قول القائل: قاسَ فُلانٌ ويَقِيسُ فُلانٌ، يريد بذلك قياساً على غير الكتاب، يضرب بعض القول ببعض، ويقيس براي نفسه على رأي غيره، ويشبه مذهبه في القياس بمذهب غيره، فيخرج قياسه قياساً فاسداً، لا يجوز هذا القياس في الدين، ولا يثبت في أحكام المسلمين، بل من تعاطى قياساً على ما ذكرنا، أو قولاً مما(١) شرحنا؛ كان مُحِيلاً مبطلاً، فاسد(٢) المذهب جاهلاً.

والمعنى الذي يثبت في كل معنى، ويكون دليلاً على النور والهدى، فهو: أن يكون العالم المتبحر في علمه، المتمكن في فهمه، إذا ورد عليه أمر قاسه على كتاب الله، وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى قولنا: قاسه، فهو دبَّره ونظره، وفكر فيه وميزه، واستعمل في استخراجه - من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم - عقله، فغاص عند نزول النازلة، في بحور الكتاب والسنة، حتى استخرج باستدلاله علم حاجته من كتاب ربه، وسنته التي أنزلها على نبيه. فهذا المعنى هو القياس الصحيح.

ومعنى اسم القياس هاهنا من قول القائل: قاس؛ فإنما هو استدل، وأصاب وميز، فاستخرج بقياسه وتمييزه؛ الصوابَ من كتاب ربه، ووقف بجودة تمييز قياسه(٣)، وغوَصَان لُبِّه على طلبته، وَجَال(٤) بما ركب الله في صدره من ثابت لُبِّه، إذ أجاد استعْمَالَه في حاجته؛ ما طلَب من علم نوازل الأحكام، ووقف بذلك على معرفة أصول دين الإسلام، فكان بقياسه وتمييزه؛ راداً لفروع دينه إلى أصوله، فالتأم له - بالتمييز والنظر، وجودة إنصاف العقل والفكر - ما افترق، وارتتق له بذلك في الأحكام ما انخرق.

---

(١) في (ب، ج): فيما.

(٢) في (أ): باطل.

(٣) في (أ): ووقف بجودة قياسه.

(٤) كذا في النسخ، ولعلها: وحاز.

(١٨٩/٢)

فافهم هديت معنى قول القائل: قاس ويقيس، واستعمل لبك في معرفة الفرق بين المعنيين الذين ذكرنا، حتى تقف(١) فيهما على الهدى، وتكون من ذلك في قولك كله على الإستواء، والحمدلله العلي الأعلى، وصلى الله على محمد المصطفى، وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار، الصادقين الأبرار.
ثم اعلم من بعد كل علم ومن قبله، وعند استعمالك لعقلك في فهمه(٢)، أن الذين أمَرنا باتباعهم من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَحَضَضْنَا على التعلم منهم، وذكرنا ما ذكرنا من أمْر الله برد الأمور إليهم؛ هُم الذين احتذوا بكتاب الله من آل رسول الله، واقتدوا بسنة رسول الله الذين اقتبسوا علمهم من علم آبائهم وأجدادهم، جداً عن جد وأباً عن اب، حتى انتهوا إلى مدينة العلم، وحصن الحلم، الصادق المصدَّق، الأمين الموفق، الطاهر المطهر، المطاع عندالله المُقدَّر، محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فَمَنْ كَانَ علمه من آل رسول الله صلى الله عليه وآله على ما ذكرنا، منقولاً إلى آبائه، مقتَبساً من أجداده، لم يزغ عنهم، ولم يقصد (في ذلك)(٣) إلى غيرهم، ولم يتعلم من سواهم؛ فعِلْمُهُ ثابت صحيح، لا يدخله فساد ولا زيغ، ولا يحول أبداً عن الهدى والرشاد، ولا يدخله اختلاف، ولا يفارق الصحة(٤) والائتلاف.
فإن قلت أيها السائل: قد نجد علماء كثيراً منهم، ممن ينسب إليه علمهم؛ مختلفين في بعض أقاويلهم، مفترقين في بعض مذاهبهم، فكيف العمل في افتراقهم، وإلى من نلجأ منهم، وكيف نعمل في اختلافهم، وقد حَضَضْتَنَا عليهم، وأعلمتنا أن كل خير لديهم، وأن الفرقة التي وقعت بين الأمة هي من أجل(٥) مفارقة الأئمة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

(١) في (ج): تستدل.
(٢) في (ب): فهمك.
(٣) سقط من (أ).
(٤) في (ب): ولا تفارقه الصحة.
(٥) في (ب): بين الأمة فمن أجل.

(١٩٠/٢)

قلنا لك: قد تقدم بعض ما ذكرنا لك في أول هذا الكلام، ونحن نشرح لك ذلك بأتم التمام، إن اختلاف آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أيها السائل عن أخبارهم ـ لم يقع، ولا يقع أبداً (الاختلاف)(١) إلاَّ من وجهين: فأما أحدهما فمن طريق النسيان للشيء بعد الشيء، والغلط في الرواية والنقل، وهذا أمر يسير، حقير قليل، يرجع الناسيَ منهم عن نسيانه إلى القول(٢) الثابت الْمُذَكَّرُ(٣) له عند الملاقاة والمناظرة.
والمعنى الثاني فهو أكبر الأمرين وأعظمهما، وأجلهما خطراً وأصعبهما، وهو: أن يكون بعض من يؤثر عنه العلم تعلم من غير علم آبائه، واقتبس علمه من غير أجداده، ولم يستنر بنور الحكمة من علمهم، ولم يستض(٤) عند إظلام الأقاويل بنورهم، ولم يعتمد عند تشابه الأمور على فقههم، بل جَنَّب عنهم إلى غيرهم، واقتبس ما هو في يده من علمه عن أضدادهم، فصار علمه لعلم غيرهم مشابهاً، وصار قوله لقولهم صلوات الله عليهم مجانباً، إذْ عِلْمُه من غيرهم اقتبسه، وفَهْمُه من غير زنادهم ازْدَنَدَه(٥)، فاشتبه أمره وأمر غيرهم، وكان علمه كعلم الذين تعلم من علمهم، وقوله كقول من نظر في قوله، وضوء نوره كضوء العلم الذي في يده، وكان هو ومن اقتبس منه سواء، في المخالفة لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإقتداء(٦)، وإن كان منهم في نسبه، فليس علمهم كعلمه، ولا رأيهم فيما اختلف فيه الحكم(٧) كرأيه. والحجة على من خالف الأصل من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالحجة على غيرهم من سائر عباد الله ممن خالف الأصول الموصلة وجَنَّبَ عنها.

(١) سقط من (أ، ج).
(٢) في (ب): إلى القول، وفي (أ): إلى قوله.
(٣) في (ب): المذكور.
(٤) في (ب): ولا يستضيء.
(٥) في (أ): زيادتهم ازداده.
(٦) كذا في النسخ ولعله سقط: بغيرهم. أو لعلها: وعدم الاقتداء.
(٧) في (ب): من الحكمة.

(١٩١/٢)

والأصْلُ الذي يَثْبُت عِلْمُ من اتبعه، ويَبين قولُ من قال به، ويصح قياسُ من قاس عليه، ويجوز الإقتداءُ بمن اقتدى به(١)؛ فَهْوَ كِتَابُ الله تبارك وتعالى المحكم، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ اللذان جُعِلا لكل قول ميزاناً، ولكل نور وحقٍ برهاناً، لا يضل من اتبعهما، ولا يغوى من قصدهما، حجة الله القائمة، ونعمته الدائمة، فمَن اتَّبعهما في حكمهما، واقتدى في كل أمر بقدْوهما، وكان قولُه بقولهما،وحكمُه في كل نازلةٍ بهما دون غيرهما؛ فَهْوَ المُصِيبُ في قوله، المعتمدُ عليه في علمه، القاهرُ لغيره في قوله، الواجبُ على جميع المسلمين من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن غيرهم أن يرجعوا إلى قوله، ويتبعوا من كان كذلك في علمه؛ لأنه على الصراط المستقيم؛ الذي لا اعوجاج فيه ولا دَخَل(٢) والحمدلله عليه. فمن كان على ما ذكرنا، وكان فيه ما شرحنا؛ من الاعتماد على الكتاب والسنة، والإقتباس منهما،والإحتجاج بهما، وكانا شاهدَيْن له على قوله، ناطِقين له بصوابه، حجة له في مذهبه؛ فوَاجبٌ على كل أحد أن يقتدي به، ويرجع إلى حكمه.

فإذا جاء شَيءٌ مما يختلف فيه آل رسول الله(٣) صلى الله عليه وآله وسلم؛ مَيَّزَ الناظرُ المميِّزُ السامعُ لذلك بين أقاويلهم، فمَنْ وجدَ قولَهُ متبعاً للكتاب والسنة، وكان الكتابُ والسنة شاهدين له بالتصديق؛ فهوَ على الحق دون غيره، وهو المتَّبَعُ لا سواه، الناطقُ بالصواب، المتبعُ لعلم آبائه في كل الأسباب.

---

(١) في (ب): ويجوز الإقتداء به.
(٢) الدَّخْل بسكون الخاء وفتحها: العيب والريبة.
(٣) في (ب): آل الرسول.

(١٩٢/٢)

وإن ادعى أحدٌ من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه على علمِ رسول الله، وأنه مقتد بأمير المؤمنين والحسن والحسين صلوات الله عليهم؛ فاعْلَمْ هُدِيت أنَّ علمَ آل رسول الله لا يخالف علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن علمَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يخالف أمر الله ووحيه، فاعرض قول من ادعى ذلك على الكتاب والسنة، فإن وافقهما ووافقاه فهو من رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلم، وإن خالفهما وخالفاه فليس منه صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال فيما روينا عنه حين يقول صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنه سيكذب عليَّ كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما جاءكم عني فأعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله)).

وهذا أصل في اختلاف آل رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلم ثابت، ودليل على الحق صحيح، فاعْتَمِدْ فيما اختلفوا فيه عليه، واستعمله في ذلك؛ يَبِن لك الحق حيث هو، ويصح لك المقتَبَس من علم آبائه صلوات الله عليهم، والمقتَبَس من غيرهم، وتصح لك الحجة في جميع أقوالهم، وتَهْتَدِ إلى موضع نجاتك، وتستدل به على مكان حياتك، وتَقِف به على الذين أمرناك باتباعهم بأعيانهم، فقد شرحناهم لك شرحاً واضحاً، وبيناهم لك تبياناً صحيحاً، حتى عرفتَهم ـ إن استعملتَ لُبَّك ـ بما بينا لك من صفاتهم، كما تعرفهم بالرؤية بأعيانهم، وتقف عليهم بأسمائهم(١) وأنسابهم. والحمدلله على توفيقه وإرشاده، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه(٢).

تم الكتاب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

***

---

(١) في (ب، ج): بأساميهم.
(٢) في (أ) و(ج): كمل الكتاب والحمدلله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله وسلامه.

(١٩٣/٢)

رسائل وكتب
في
الأخلاق والآداب
كتاب الخشية

m

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه:

أصل الخشية لله العلم، وفرع الخشية لله الورع، وفرع الورع الدين، ونظام الدين محاسبة المرء لنفسه، وآفة الورع تجويز المرء لنفسه الصغيرة من فعله.

وأصل التدبير فهو التمييز، وأصل التمييز فهو الفكر، ومن لم يَجُد فكره لم يَجُد تمييزه، ومن لم يجد تمييزه لم يستحكم تدبيره. والعقل كمال الإنسان، والتجربة لقاح العقل، ومن لم ينتفع بتجربته؛ لم ينتفع بما ركب فيه من عقله، وشكر المنة زيادة في النعمة، والنعمة لا تتم لمن رُزقها إلاَّ بشكر مُوليها، ومن أغفل شكر الإحسان؛ فقد استدعى لنفسه الحرمان، ومن أراد أن لا تفارقه نعم(١) الله؛ فلا يفارق شكر الله. وحصن الرأي التأنِّي، وآفته العجلة، إلاَّ عند بيان الفرصة، ومن علم ما لله عنده لم يكد يهلك ، ومن أراد أن يعلم ماله عند الله؛ فلينظر ما لله عنده، ثم ليعلم أن له عند الله مثل ما لله عنده، قال الله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} الآية [الأنعام: ١٦٠].

وجودة اللسان زَيْن الإنسان، وحياة القلب أصل البيان، ومن فكر في عواقب فعله؛ نجا من موبقات عمله، وصاحب الدين مرهوب، وصاحب السخاء محبوب، وصاحب العلم مرغوب إليه، وذو النصفة مُثنى عليه، ومن كفى الناس مؤنة نفسه؛ كفاه الله مؤنة غيره، ومن خضع وتذلل لله فقد لبس ثوب الإيمان، ومن لبس ثوب الإيمان؛ فقد تتوج بتاج العزة من الرحمن، قال الله سبحانه: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨]. ومن رزق نزاهة النفس فقد أعطي عوضاً عن العبادة، ومن وفق للصبر عند البلاء؛ فقد خففت عنه المحنة(٢) العظمى، ومن أراد من الله التسديد والتوفيق؛ فليعمل لله بالإخلاص والتحقيق.

(١) في (ب): نعمة الله.

(٢) في (ب): خففت عليه المحبَّة.

(١٩٤/٢)

والعلم والحكمة؛ لا ينموان مع المعصية، والجهل والحيرة؛ لا يقيمان مع الطاعة، ومن وُفِّقَ أمن من الزلل، ومن خُذِل لم يتم له عمل، ولم يبلغ ساعة من الأمل، ومن قوي ناظر(١) قلبه؛ لم يضره ضعف بصره، قال الله تعالى: {فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦] .

ومن نظر إلى نفسه بغير ما هو فيه؛ أمكن الناسَ من الطعن عليه، ودواء العي قلة الكلامِ، ودواء الجهل التعلم، ودواء الخوف من عذاب الله؛ العمل بطاعة الله، والترك لمعاصيه، وحسن الأوبة إليه عزَّ وجل. ومن رغب في الله اتصل به، وانقطع على الحقيقة إليه، ومن لم يهتد إلى أفضل العبادة وأسناها؛ فليقصد إلى مخالفة النفس في هواها.

والعلم مصباح في صدور العلماء، زينته الورع، وذباله(٢) الزهد في الدنيا، ولا يصلح الورع إلاَّ لمن صلح له الزهد في الدنيا، والورع والمكالبة على الدنيا لا يجتمعان أبداً، كما لا يجتمع في إناء واحد النار والماء، ومن اشتدت رغبته في الدنيا طلب لنفسه التأويلات الكاذبات، ومن طلب لنفسه التأويلات الكاذبات تقحم بلا شك في المهلكات، و(من تقحم في المهلكات)(٣) كان عندالله من أهل الخطيئات.

وصاحب الدنيا الراغب فيها كالحسود؛ لا يستريح قلبه من الغم أبداً، ولا يخلو فكره من الهم أصلاً، ولو أعطي منها كل العطاء. والحلم مع الصبر، ولا حلم لمن لا صبر له.

وعروق الحمكة التي تصرب في الصدور هي طاعة الله، ولا تثبت الحكمة إلاَّ في صدر مُطيع لله عزَّ وجل، ومن عدم الطاعة لله عدم الحكمة، ومن عدم الحكمة عدم النعمة، والحكمة كالشجرة؛ عروقها الطاعة، وثمرها(٤) البلاغة. وأصل البر اللطف، وفرعه النصفة، وأصل العقوق قلة النصفة، وفرعه الجفا، وأصل الحمق قلة العقل، وفرعه العجب بالنفس(٥).

(١) في (ب): باطن. وهو تصحيف.

(٢) في (ب): وذبالته.

(٣) زيادة من هامش (ب).

(٤) في (أ، ب): وثمرتها.

(٥) في (ب): تم والحمدلله وحده، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم.

(١٩٥/٢)

المنتزع من سياسة النفس

m

وله أيضاً صلوات الله عليه ((منتزع من سياسة النفس))(٣) وهو الذي أوله: أصل خشية الله العلم، ثُمَّ قال في فصل منه رضي الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن رسول الله صلى الله عليه:

اعلم أن أربعاً هي موجودة في كتاب الله عز وجل، وهي فرض من الله على عباده، بها يصلح الإيمان، وبها يبلغ شرف الدنيا والآخرة، وهي أصول الطاعات وفروعها، مأمور بها المؤمنون والمؤمنات جميعاً، ولا ينفع عباده إلاّ بمعرفتها والعمل بها، فإذا ألزمها العبد نفسه أدته إلى درجة الصديقين، وسبيل المحسنين إن شاء الله.

أولها: معرفة الله جل ثناؤه. والثانية: معرفة عدو الله. والثالثة: معرفتك بنفسك. والرابعة: معرفتك العمل.

(٣) هذه الرسالة اختصت بها النسخة (أ)، ولذلك لم يمكن تصحيحها وفيها عبارات مطموسة وغير متسقة المعنى وعبارات غير متضحة.

(١٩٦/٢)

فمعرفتك الله عز وجل؛ فهو: أن تُعلِّم نفسك علم قربه منك، وقدرته لديك وقيامه عليك، ومشاهدته لك وعلمه بك، وأنه قريب حفيظ محيط، واحد أحد ليس كمثله شيء، لا شريك له في ملكه، وأن ما وعد به حق صدق، وأنه فيما ضمن به ودعا إليه وندب إليه وفيٌّ، وله وعد هو منجزه، ووعيد هو منفذه، ومقام للعبد منه يصير إليه، ومصدر يصدر عنه، وعذاب ليس له مثل، وثواب ليس له خلف، وأنه بر رحيم، ودود مجيب، قضَّاءٌ للحوايج، كل يوم هو في شأن، يعلم الخفاء وفوق الخفاء ودون الخفاء، والضمير والخطرة، والوسوسة والهمة والإرادة، والحركة والطرفة، وما فوق ذلك وما دون ذلك، ولا يوصف ربنا تعالى بصفة، وأنه رازق وهاب تواب، فإذا ألزمت ذلك قلبك باليقين الراسخ والعلم النافذ، وقدَّرته في كل عضو منك ومفصل، وعرق وعصب، وشعر وبشر ونفس، أن الله جل ثناؤه قائم على ذلك، أحاط به علماً قبل خلقك وبعد ما خلقك، فإذا ثبت ذلك في قلبك، وصح به عزمك وكلفه عقلك، وأنه علم اختيار لا علم اضطرار؛ ثبت منك حينئذ المحاسبة لنفسك، ووصلت إليك المعرفة، وفرغت إلى الله قلبك، وانخشعت له جوارحك، حذراً من سطواته وقدرته، وحياء منه لقربه ومشهده، فلم تسقط منك إرادة، ولم تنزل بك همة، ولا تباعدت منك نية، فصرت القائم للقائم بحقه وتوفيقه لك، وتركك لما كره منك؛ إذعاناً(١) لجلاله، ومشاهدة لعلمه، ولا تكون منك همة ولا خطرة، ولا إرادة ولا وسوسة، ولا حركة ولا سكون ظاهرة ولا باطنة، ولا لحظة ولا لفظة، ولا شيء ظاهر ولا باطن إلاّ وربك جل ثناؤه عند ذلك وعلى ذلك شاهد خبير، وأنه قائم عالم بذلك منك قبل كونه، وعند بدء إرادتك له وفعلك بجوارحك، فأنت (٢) بتوفيقه العالم الورع التقي له.

(١) في الأصل مطموسة، وقد أثبتها على الظن.
(٢) مطموسة وقد أثبتها على الظن.

(١٩٧/٢)

ثُمَّ بعد ذلك معرفة عدو الله وعدوك إبليس، [الذي] أمرك الله بمحاربته وعداوته، ومجاهدته في السر والعلانية، لعلمك أنَّه قد عادى الله في عبده آدم صلى الله عليه، وضاره في ذريته، تنام ولا ينام، وتغفل ولا يغفل، دائباً في عطبك وهلاكك، في يقظتك ونومك، لا يألو بكل حيله وخدعه ومكائده في طاعتك ومعصيتك، ومالا يجهله كثير من الناس العابدين ليساوي بين العابد والفاجر.

واعلم أن ليس له همة(١) ولا مراده فيك قليل، إنَّما يريد أن يزيلك عن عظيم ثواب الله مع علمه بذلك، ويوردك معه حيث يرد حسداً ليشمت بك.

فإذا عرفته بهذه الصفة والمنزلة، لزم قلبك معرفته بلا غفلة ولا سهو، وحاربته حينئذ بعون الله وتوفيقه بأشد

المحاربة، فلا تترك المجاهدة سراً وعلانية، ولا تفرط في ذلك ولا تغفل حتى تبذل مجهودك، فإذا لم تبق غاية منك إلاَّ بذلتها؛ قصدت إلى ربك عز وجل بعذرك، بالبكاء والتضرع والإستكانة، جاهداً في ليلك ونهارك حتى يعينك عليه؛ وأنت بمنظر يراك وأنت تجاهد فيه من أمرك بجهاده، وتصل(٢) مكايدته عندك بمعرفته، ألم يعرفك ذلك مولاك أنَّه عدو لك ولأوليائه وأصفيائه؟ فبلغ من غضبه عليك وأنت تكيده لغيرك، وتدل على محاربته ومكائده، وتحذر منه وتدل على عوراته؛ من ضعف علمه وتكيده وغروره؛ لتجاهد وتعلم ما يدلس على العمال والمريدين؛ إذا أنس منهم بالمعرفة فيه بعداوة الله وعداوة المؤمنين. فإذا كنت كذلك فقد وهب الله لك سلوك طريقين عظيمين سديدين، ومن سلك هذه المنزلة فليحذر، وليجتهد عن ذلك أشد الحذر.
وعليك بالحفظ لما أعطيت والتيقظ، وترك الغفلة، لا تزل زلة، ولا تغفل غفلة، فيظفر بك وهو شديد الغضب عليك، لما علم من علمك بمكانه، وطلبتك لمعصيته وغضبه عليك وتنقصك منه؛ فيرميك رمية لا تقوم من صرعتك، ولا تفيق من سكرتك، واحذره أشد ما ترجو أو تأمل إن شاء الله.

(١) كذا في الأصل.
(٢) كذا ولعلها: وتبطل.

(١٩٨/٢)

واعلم أنَّه ليس لك فرج منه ولا من مجاهدته إلاَّ مفارقة روحك من جسدك فاحذره، فإنه ليس إلاَّ أن تغتر فتهلك، أو تستقيم فتنجو.
وأما معرفتك بنفسك فتضعها حيث وضعها الله، وتقوم عليها بأحسن الرعاية والأدب كما أمرك الله؛ فحينئذ تعرف أي شيء هي؟ وما صفتها؟ وكيف حالها؟ وما طباعها؟ وإلام تأمر؟ وإلامَ تدعو؟ وكيف خلقها؟ وأنها ضعيفة في بنيتها، طمعة شرهة آمنة، مدعية للخوف والرجاء، أماني منها وغرور، صدقها كذب، ودعواها باطل، وكل شيء منها غرور، وليس لها تحقيق، وعلمها ظن، إن حللت عنانها شردت، وإن اطلقت وثاقها جمحت، وإن أعطيتها ما تريد هلكت، وإن غفلت عن محاسبتها والقيام عليها أدبرت، وإن تركتها تولت، ليس لها حقائق ولا مرجوع(١)، هي رأس القبائح، ومعدن الفضائح، وخزانة إبليس وكره(٢)، إليها يأوي ويطمئن ويهلك ويوسوس، وهي بالصفة التي وصفها الله لرسوله صلى الله عليه وأهل خيرته وحجته على خلقه في قصة يوسف صلى الله عليه: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبي غَفُورٌ رَحِيْمٌ} [يوسف: ٥٣] وكذلك أنت في ضعفك ووهى علمك.
واعلم أن كل شيء تظهر من الخوف فهو أمن، وكل ما ادعت من الصدق فهو كذب، وكل ما ادعت من الإخلاص فهو رياء لا حقيقة له، وعند الإمتحان ترجع عن دعواها، فأي بلاء أعظم من بلائها وما يحل بها وفيها؟ فإذا عرفت صفتها بحقيقتها ومعك في ذلك صدق دوام الإلتجاء إلى الله والفزع إليه منها؛ لم تضعف عنها، وهان عليك أمرها بعون الله وتوفيقه، وقواك الله عليها ما دمت ناظراً إليه وفزعاً منه إليه، فإذا اجتمعت فيك هذه الخصال فأنت بإذن الله عارف عالم.

(١) كذا في الأصل.
(٢) كذا في الأصل. ولعلها: ووكره.

(١٩٩/٢)

وبقيت الخصلة التي يتم بها خلقك، وتعلو بها حكمتك: أن تعرف العمل، ومعرفة العمل أن الله تبارك وتعالى أمرك بأمر ونهاك عن نهي، فالأمر الذي أمرك به هو الطاعة، والنهي الذي نهاك عنه هو المعصية، وأنه تبارك وتعالى نهاك عما شاهدته، وأمرك بطلب ما غاب عنك(١)، وضمن لك من رزقك في دنياك بما يفنى، وأمرك بطلب ما يبقى مما غاب عنك، فعظم عند ذلك الإمتحان، فقبلت عقول العاملين لله هذه المحنة، فعظم عند ذلك الهم والخطر، ودوام الفكرة والحذر.
فانظر أن لا تكون ممن ترك المعاصي الظاهرة ولزم المعاصي الباطنة، وإياك والخدع فلا تحمدن نفسك فيما تظهر من الطاعة والنية والإرادة بشيء ليس ذلك معك؛ فتكون طاعتك معاصي، فيحل بك العقاب مع تعب البدن وكثرة المرزية، ولا تزين طاعتك بالذكر لطاعتك، وشد نيتك بالورع، واحفظ إرادتك بالمجاهدة، وليكن همك

طيب النية، كما يهمك العمل في كل أحوالك، حتى تثبت معرفة ذلك عندك إن كنت تريد تعنى لها(٢) وتريد نجاتها.

(١) يريد والله أعلم أنَّه نهاك عن الدنيا وأمرك بطلب الآخرة وما فيها.
(٢) كذا في الأصل.

(٢٠٠/٢)

فإذا فتشت نفسك وجدتها تتكلم بكلام الخائفين مالم تقع في الخوف وتضطر إليه، وتقول قول الأبرار مالم تمتحن بالفتن، وتصف وصف الصادقين مالم تحتج(١) إلى الغاية، وتدعي دعوى الموقنين مالم تمتحن بالإخلاص، وتقول إنها من المتواضعين مالم يحل بها خلاف الهوى عند تهيج الغضب. فأنت تتوهم عند وصفها الصدق وإثبات الحق وحلاوة المنطق بالإخلاص والدعوى أنها كذلك؛ فإذا امتحنت في المواطن عند حقائق الأمور مع محاسن الوصف منك وجدتك مرائياً؛ فإذا أنت قد بلوت كل خلق وَصَفْتَه وادَّعَتْه، فإذا محضتها الحقيقة ظهر لله منها في تلك المواطن خلاف دعواها. فإن لم تكن في موضع الحق والإمتحان والإخلاص فعليك أن تنظر ما الآفة إذا كانت تحسن وصف الحق والصدق هل يوجد لذلك عند الإمتحان حقيقة؟ فإذا ابتليت بذلك، وفتشت عنه نفسك، رجعت ملتمساً لفساد عملك، فصح عندك بالعلم والبيان أنَّه من سقم قلبك، فصحح من قلبك الإرادة والنية في الصدق، ليوافق الوصف بلسانك حقيقتك، لا لتزين به بين المخلوقين فتعظم لذلك المعصية منك، فتغلظ(٢) الرجوع في توبتك، والويل العظيم من الله إن هجم عليك أجلك وهذه حالك، فعند ذلك فأطل الفكر، وصحح النظر، واستعن بالعلم، واسترشد العقل، وعليك بالإستعانة بالله، وصحح الضمير بالصدق لتقع على العلة التي فرقت بين محاسن الوصف منك وقبيح الْخُبْر عند الإمتحان، ثُمَّ تدبر ما قد أظهره لسانك وكان قلبك(٣) إذا وجدته يصف الحق والصدق فقضيت له وهو على خلاف ذلك عند حقائق الأمور.

(١) في الأصل مهملة ولم يتضح لي معناها.
(٢) كذا في الأصل.
(٣) كذا في الأصل.

(٢٠١/٢)

فإذا استرشدت العقل والعلم دلاك على أن النفس هو المختارة لهواها(١)، إذ كان ذلك يقيم لها خلقها عند المخلوقين المحققين ليعرفوا ضبطها ووزنها للكلام وحفظها للسان، فإذا حضر الإمتحان قدَّمَتْ الهوى وأخَّرَت العلم والبيان، فقطعت بالهوى، وعملت في جميع الأمور بهواها، فقد دَلَّك العقل والعلم عند ذلك على الرياء والتصنع، وأكثر ذلك يخفى على المدعين لمعرفة أنفسهم، فما ظنك بأهل الجهل وقلة العلم.
وإنما يصح على ما وصفت عند العالم بنفسه عند حقائق الإمتحان(٢)، فلا تغتر بمحاسن الوصف منها وحلاوة المنطق وإصابة الحق، وهي عند الإمتحان تجعل ذلك حجة عليك، وتصيره إلى الهوى، فلا تغتر بإظهار الخوف والرضى والصدق والتوكل بالوصف؛ وهي إن عارضها خوف الفقر قبل حلوله أيست وقنطت، وتدعي الصبر فإذا نزل بها بلاء سخطت، ولا تغتر بما تظهر من التواضع والحلم فإذا افتاقت إلى ذلك تسافهت(٣) وإن هي مدحت بباطل يوافق هواها فرحت، فلا تعبأ بظاهر الأعمال فإنها غرور، ولا تغتر في مبادرتها في البر واصطناع المعروف فإن لم تشكر ذلك لها وتثن به عليها غضبت، فإن لم تظهر الغضب أضمرته، فاحذرها فإنها تقطع(٤) بك في مواطن الحاجة في كل وجه، وأن تجنح(٥) إلى إخلاصها وصدقها وخوفها فقد تظهر لك خلاف ما ادعته، وإنما رضيت بعد الشكر لما وافق هواها، ودب في تعظيمها، فلا تغتر بما ظهر منها في جميع الأمور، وتدبر منها سوء الضمير.
واعلم أنَّه إنَّما يستخرج ما حسن(٦) في القلب من الصدق والكذب عند الإمتحان، وعند فضائح ضمائر الأنفس، فزن ذلك بالعلم والتيقظ في مواطن الإمتحان، وعليك بدوام الإستعانة بالله، وإياه فاسأل العفو عن الذنوب، وبه فتعوذ من الخذلان.
قال في الام المنقول عنها ما لفظه:
تم ما وجد من ذلك والحمدلله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً وكان الفراغ

من ذلك بعد صلاة العصر يوم الأحد السابع والعشرين من شهر جمادى الأخرى من شهور سنة ثمان وأربعين وستمائه سنة هجريه، وصاحبه وكاتبه يسألان الله المغفرة والرضوان لهما ولمن قرأ فيه وتدبر معانيه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلامه.

(١) كذا في الأصل ولعلها: هي.
(٢) كذا في الأصل.
(٣) كذا في الأصل ولم أهتد إلى معناها.
(٤) كذا في الأصل، ولعلها: تنقطع.
(٥) كذا في الأصل ولعلها عطف على فاحذر، أي واحذر أن تجنح..
(٦) كذا، ولعلها ما اجتن في القلب.

(٢٠٢/٢)

رسائل وكتب
في
مواضيع متفرقة
جواب مسائل أبي القاسم الرازي (٢)
m
قال الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:
[الفرق بين عقل النبي (ص) وعقل أبي جهل]
سألت يا أبا القاسم أكرمك الله بكرامته، وأتم مابك من نعمته، وجعلك ممن اهتدى؛ فزاده نوراً وهدى، فجمع لك بذلك خير الآخرة والدنيا، فقلت: أخبرني عن عقل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، هل كان مثل عقل أبي جهل؟
الجواب في ذلك: إن كنت تريد بقولك: هل هو مثله، أي هل يعمل عقله إذا استعمله، كعمل غيره فيما جعل له، وركب عليه؟ أو هل يستدرك به، أداء فرض الله الذي افترضه عليه، وينال به بلوغ ما أوجب الله عليه؛ من تمييز الأمور، وفهم واجب الفرائض؟ وهل يستدرك به معرفة الخالق بما يرى من أثر صنعه، وينال به التمييز بين طاعته ومعصيته، فيكون بذلك بالغاً ـ من آداء حجج الله، واستدراك الدليل على الله ـ كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدرك بأصل حجة عقله، من أداء فرضه؟

(٢) لم أقف له على ترجمة ولاذكره في سيرة الإمام الهادي عليه السلام.

(٢٠٣/٢)

فكذلك نقول: إن أبا جهل قد كان يستدرك وينال بأقل قليل عقله؛ أكثر مما افترض عليه من دينه، وفوق ما يحتاج إليه من الدلائل(١) على معرفة ربه، فقد كان فيما أعطاه الله من أصل الحجة، وثبَّت فيه من العقل لأداء الفريضة، وفي الاستدلال ـ إن استعمل عقله ـ بالغاً بعقله ما كان يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بما أعطي من مبتدأ حجة العقل؛ من المعرفة بأداء فرض الله، والوقوف على دين الله، الذي لم يرض من العباد إلاَّ بأدائه.
ولولا أنَّه قد ساوى بينهم فيما ينالون به معرفة ما افترضه عليهم، وأداء حججه التي احتج بها عليهم؛ ما كانت تجب له عليهم حجة، ولكن الله عز وجل أعطى كلاً ما ينالون به أداء حججه، فساوى بينهم في إقامة الحجة عليهم، وإثبات البراهين في صدورهم، بما يبلغون به فرضه، وينالون به معرفته.
فإن كنت أردت هذا المعنى؛ فقد ساوى الله بين الخلق كلهم فيما يكون به بلوغ حجته، وتمام منته، ونهاية أداء فرضه؛ من العقول المركبة في صدورهم، الثابتة في قلوبهم، وأثبت بذلك عليهم كلهم حجته؛ لأن العقول المركبة فيهم ـ من هذه الحجج اللازمة لهم ـ من فعل الله لا من فعلهم، ومن صنع الله عزّ وجل لا من صنعهم، وتدبيره جل جلاله لا من تدبيرهم.
فمبتدأ ما أعطاهم الله من حججه منه لا منهم.

فلما أن صح أن هذه العقول المركبة في الخلق فعل الله؛ كان فعل الله في ذلك مشتبهاً، وكان تدبيره في إثبات الحجج عليهم متساوياً، فاشتبهت وتساوت حجج الله على خلقه، التي ركبها في صدور عباده؛ بعدله فيهم، وإحسانه إليهم في مبتدأ أمرهم، كما استوت عليهم فروضه، ووجبت عليهم شرائعه، ولزمتهم بها عبادته.

---

(١) في (ب): الدلالة.

(٢٠٤/٢)

فكان أصول ما أعطاهم من حججه فيهم سواء، كماكانت فروضه عليهم كلهم سواء، فتساوى المعنيان من الله في ذلك: معنى الفرض، والمعنى الذي يُنَال به الفرض، فكانت فرائض الله على عباده كلهم سواء، وجاء ما تعبدهم به منها سواء على المساواة والإستواء. وكذلك جاءت أصول ما أعطاهم الله من حجة العقل التي ينالون بها أداء هذه الفرائض(١) على قياس ذلك سواء، فاستوت المفروضات عليهم، والحجة التي ينالون أداءها بها فيهم.

فساوى الله سبحانه بينهم؛ في إثبات الحجة عليهم، وإكمال البراهين فيهم، وإيجاد السبيل لكلهم إلى أداء فرضه، وبلوغ طاعته، فكان ما أعطوا من أصل حجة العقل في ذلك بينهم سواء، كما كان الفرض عليهم كلهم سواء.

ثم فضل الله تبارك وتعالى من شاء بعد المساواة بينهم والاكتفاء بما يشاء بعد ذلك من الأشياء، فلم يكن لعباد الله حجة على الله، كما لم يكن لهم حجة فيا خلق وجعل، وفطر من الأشياء وفعل من جَعْلِهِ لبعضهم أهل جمال وهيئة، وجلد وهيبة، وجعل بعضهم أهل لطافة وذمامة، وأهل قلة وسماجة.

فمن تكلم فيما فضل الله به بعض الخلق على بعض في زيادات العقل، وجب عليه أن يجيب فيما فضل الله به بعضهم على بعض فيما ذكرنا من زيادة الخلق، في حسن الألوان، وعظم الأبدان، والكمال والبيان، لا يجد من ذلك بدأ؛ لأن المعنى فيهما واحد مؤتلف، متساوٍ غير مختلف. وليس في ذلك للخلق على الله حجة، ولا يلحق به سبحانه لمتعنت تجوير ولا ظلم، ولايثبت به عليه حيف ولا غشم؛ لأنَّه حكيم يُمضي ما كان فيه الحكمة على كره من كرهه(٢)، وإرادة من أراده؛ لأن الحكمة هي رأس الحق وأصله، والحق فلا يتبع أهواء العباد، ولو اتبعه لفسدت البلاد والعباد، كما قال ذو العزة والأياد، حين يقول: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}[المؤمنون: ٧١].

---

(١) في (ب): الفروض.

(٢) في (ج): من كره وإرادة من أراد.

(٢٠٥/٢)

فإن قال قائل: وما في التفاوت بين خلقه في الخلق والأجسام والألوان من الحكمة؟

قيل له: في ذلك أحكم الحكمة؛ لما فيه من الدليل على صانعه، والشهادة على جاعله، والنطق بوحدانية فاعله، وحكمة مدبره؛ لأنَّه لما أن تصرفت خلقهم، واختلفت ألوانهم، وتباينت صورهم، دل ذلك من حالهم على جاعلهم، وشهدت بذلك حالهم على وحدانية فاعلهم، وبعده من شبههم، واقتداره على فطرهم، ونفاذ إرادته في تأليفهم. فصح له بذلك عند خلقه القدرة، وثبتت له الوحدانية، وصحت له دون غيره الربوبية.

فهذا باب الحكمة وتفسيرها، وشرح أمرها وتثبيتها؛ في ظهور ما أظهر الحكيم من خلقه، وتفضيل ما فضل في الألوان والأجسام، وما له كانت الأمور من الله سبحانه كذلك، وأتى تدبيره جل جلاله على ذلك. وفي ذلك من قولنا، وما يشهد لنا عليه كتاب ربنا؛ ما يقول الرحمن؛ فيما نزل من النور والبرهان: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ}[الروم: ٢٢]. فافهم ما به قلنا: من تسوية الله سبحانه بين عباده، فيما أعطاهم من أصول حججه المركبة في صدورهم، كما ساوى بينهم فيما ألزمهم من أداء فرضه، وما به قلنا في الزيادة من الله سبحانه في ذلك لمن شاء من خلقه.

وإن كنت تريد بقولك: هل كان عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عقل أبي جهل: أنَّه مثله في المساواة والموازنة والكمال والإستواء، ومواد زيادات الله له في الهدى والعطا والتفضيل في كل الأشياء، والزيادة في الفهم، وجودة التمييز؛ فلا ولا كرامة لأبي جهل، لا يكون عقله في ذلك كعقل الرسول صلى الله عليه وآله

وسلم؛ لأن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الزيادات والتفضيلات، والخصائص والكرامات، والتوفيق والتسديد، ما لا يكون مع أحد؛ وذلك لكرامة الله لنبيه، واستحقاق نبيه لذلك من الله بفعله، صلى الله عليه وآله.

(٢٠٦/٢)

فلما أن فعل ما ارتضاه الله منه؛ من إخلاص النية، وجودة البصيرة، استحق من الله الزيادة.
فكانت زيادات اللّه وعطاؤه لنبيه على صنفين: فصنف(١) ابتدأه بما ابتدأ؛ لما قد علم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الإستواء، وأحاط به علمه قبل خلقه للدنيا؛ من إيثار محمد صلى الله عليه وآله له على غيره، وإخلاصه له في جميع أموره، وأنه يكون على الإستواء، وعلى الغاية(٢) في الانتهاء اختياراً منه لذلك، وأثرة منه لربه، من غير جبر من الله له، ولا إدخال له قسراً في طاعته، بل يكون ذلك منه اختياراً، وأثرة لله لا اضطراراً.
فلما علم الله منه ذلك، وأنه يكون في جميع الأمور كذلك؛ ابتدأه بالكرامة على ما قد علم من غاية(٣) فعله، وصيرورة أمره، فابتدأه بما هو أهل، من غير عمل كان منه لربه، ولا جبر من ربه على شيء تقدم من فعله، بل على ما قد علم من صيرورة أمره، وما علمه مما سيكون من اجتهاده في طاعة ربه، وتقديمه لإرادته على إرادة نفسه.
والصنف الثاني: فزيادات من الله لنبيه على جزاء فعله، وما ظهر من نصيحته، وبان من اجتهاده في التثبيت لباب اهتدائه، فزاده الله من بعد فعله لذلك تثبيتاً وهدى، وزيادة التقوى، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[محمد: ١٧]. فكان اهتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الإهتداء، وتقواه أكبر التقوى؛ فكانت زيادة الله له أعظم من كل زيادة، وهدايته له أكبر من كل هداية. فكانت هذه زيادة من الله على طريق المجازاة للنبي علىفعله، وكانت الزيادة الأولة منه لما قد علم من صيرورة أمره.
فاجتمعت لرسول الله صلى الله عليه ثلاث خصال:

---

(١) في (ج): صنف.
(٢) في (ب): إلقائه. وهو تصحيف.
(٣) في (ب): عناية.

(٢٠٧/٢)

ابتداء الله لاعطائه ما أعطاه من حجة العقل؛ التي ساوى بين العباد فيها في الإبتداء؛ لتقوم له بذلك عليهم الحجة في بلوغ أداء فرائضه، واستدراك معرفته، والإقرار بوحدانيته. وكرامة الله له، وزيادته في ابتدائه بما ابتدأه به؛ على قدر علمه بصيرورة أمره. واجتهاده في طاعة ربه، واقتدائه فيما أمر بالإقتداء به. وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}. فكملت له صلى الله عليه وآله وسلم هذه الثلاث الخصال واجتمعت، والتأمت وتمت؛ مع غيرها من توفيق الله لنبيه صلى الله عليه وتسديده، وتأييده ومعونته.
فعاد ذلك كله زيادات في عقله، وصار له حبيباً في كل أمره.
فكيف يلحق به أبو جهل اللعين، أو يشابهه أو يساويه في شيء من عطاء رب العالمين، وأبو جهل فلم يستحق من الله زيادة في شيء من أمره؛ لا بنية صالحة نواها، ولا بطاعة لله من ذلك أتاها، فيستحق على نيته ابتداء، وعلى ما ظهر من عمله(١) بالصالحات جزاء؟! ولم(٢) يكن معه عليه لعنة الله غير ماكان من ابتداء حجة اللّه (٣) المركبة في صدره، المجعولة في قلبه، لتكمل بها عليه الحجة، فترك استعمالها، ورفض النصفة لها، فصار بذلك ظالماً لما في صدره من حجج الله فاستوجب بمكابرته لحجج الله عذاب الله وسخطه، وخذلانه ولعنته، فكابر أبو جهل ما زرع في قلبه، ورفض ما أمر به من أمر ربه؛ فاستأهل من الله جزاء سيِّء فعله، وحاق به كسب عمله، وصار في الضلالة متحيراً، وفي اللعنة من الله متصيراً؛ بما كان (٤) له من حجج الله في صدره مكابراً.

---

(١) في (ب): من علمه، ولعلها تصحيف.
(٢) في (أ، ج): فلم.

[redacted]

(٣) في (أ): من حجته المركبة.
(٤) كذا في النسخ، والصواب: ولما كان.

فلن يستوي حال من كان عندالله مرضياً مهتدياً، وكان له ولياً موالياً؛ وحال من كان مسخوطاً عند الله مجنباً، وله سبحانه عدواً معادياً؛ في كل حال من الحال، وفي كل قول وفعال. لا يستوي ولي الله وعدو الله عند الله في حالة، ولا تتقارب منهما عنده منزلة، لا في ثواب ولا في عطاء، ولا في زيادة ولا في هدى. حال أولياء الله عند الله حال الكرامة والثواب، وحال أعداء الله عند الله حال الخذلان والعقاب. فالحمد لله الذي ميز بين خلقه،

هل ترى أيها السائل هذا القائل صاحب الشمعة الواحدة صادقاً في قوله، أو مصيباً في لفظه؟ أو ترى له حجة على سيده، وقد أعطاه من النار ما بأقل قليله يحرق بيوتاً كثيرة؟
فإن قال: قد كان العبد في ذلك مصيباً، وبالحق محتجاً، والسيد له ظالم، وفي تكليفه له غاشم؛ حين كلفه من الإحراق مثل ما كلف صاحبه، وقد أعطى صاحبه شمعتين، وأعطاه شمعة واحدة، كان في قوله ذلك محيلاً، وعن الصواب عادلاً، ولم يقل من ذلك حقاً؛ لأن قليل النار يأتي من إحراق الحشيش على ما يأتي عليه كثيرها، ويتفرع منها من الإلتهاب عند إحتراق الحشيش ما لا يكون لصاحب ثنتين ولا ثلاث ولا أربع فضل في عمله على صاحب الشمعة الواحدة وفعله، وكل ينال بما أعطي، أكثر مما كلف وأعطي.
وإن قال: لا أرى لصاحب الشمعة الواحدة على سيده حجة؛ في دفعه إلى صاحبه شمعتين؛ لأن المكلَّف(١) الذي كلفهما إياه ينال بأقل من واحدة، فلذلك قلنا: إنَّه لا حجة لصاحب الواحدة على سيده، وصاحب الواحدة ظالم لسيده، غير محتج بحق على مالكه؛ لأنَّه قد ساوى بينه وبين صاحب الثنتين فيما دفع إليه من النار، التي بأقل قليلها ينال من إحراق بيوت كثيرة ما ينال صاحب الثنتين والثلاث والأربع لو كان.
فإذا قال بالحق، ورجع إلى الصدق؛ قيل له عند إقراره بذلك، ومعرفته بالأمر إذ كان كذلك: قد أصبت المعنى، وقلت بالحق وثبت على الإستواء، وثبت لك بذلك، ما أحببت معرفته من عدل الله سبحانه في ذلك وحكمته، ولطيف صنعه وقدرته.

(١) في (ج): أي المكلف به.

(٢١١/٢)

فعلى هذا المثال، يخرج معنى ما تقدم منا(١) من المقال، فيما أعطى الله العباد من حجة عقولهم، وساوى بينهم فيما ركب من ذلك في صدورهم، فجعل كل من(٢) لزمه عقاب على فعله، أو ثواب على عمله، في حجة العقل سواء، فكل قد ركب فيه ما بأقل قليله يَنال به أكثر مما افترض الله عليه، ويستدل به على حاجته منه وفيه، ويميز فيه بين أعماله، ويهتدي به إلى فواضل أفعاله، ويصل به إلى الاختيار في الحالين، والتمييز بين العملين، وسلوك ما يشاء(٣) من النجدين، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ}[الأنفال٤٢].
فلم يكن لمن أعْطِي من حجة العقل ما ذكرنا على الله سبحانه حجة في شيء من أموره، ولا سبب من أسبابه، بما فضل به عليه غيره من بعد المساواة فما يحتاج إليه، كما لم يكن لصاحب الشمعة الواحدة على سيده في إحراق ما أمره بإحراقه حجة باعطائه لصاحبه شمعتين؛ إذ المعنى في ذلك واحد في الواحدة والثنتين، والدرك بالجزء الواحد لما أمر به من النار في إحراق الحشيش كالدرك بالجزأين.
فهذا معنى ما عنه سألت، فافهم الجواب في ذلك إن شاء الله، والحمد لله وصلواته على محمد وآله وسلم.
[كيف يأخذ جبريل الوحي عن الله]
وسألت أكرمك الله وحفظك، وأعانك على طاعته ووفقك، فقلت: كيف يأخذ جبريل عليه السلام الوحي عن الله، وكيف يعلمه؟ وكيف السبيل فيه من الله حتى يفهمه؟
واعلم هداك الله أن القول فيه عندنا: كما قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّه سأل جبريل عن ذلك، فقال: ((أخذه من ملك فوقي، ويأخذه من ملك فوقه، فقال: كيف يأخذه ذلك الملك ويعلمه؟ فقال جبريل: يلقى في قلبه إلقاء، ويلهمه الله إياه إلهاماً.

(١) في (أ): يخرج معنى ما يخرج منا.
(٢) في (ب): كلما.
(٣) في (ج): ما شاء.

(٢١٢/٢)

وكذلك هو عندنا أنَّه يلهمه الملك الأعلى إلهاماً، فيكون ذلك الالهام من الله إليه وحياً، كما ألهم تبارك وتعالى النحل ما تحتاج إليه، وعرَّفها سبلها حين كان منها في ذلك من بناء شهودها(١)، وتسوية ما تسوي لأولادها، وما تجتنيه(٢) من الأشجار مما تعلم أن فيه الشراب الذي ذكر الله أنَّه شفاء، سماه الله سبحانه شفاء للناس،

من العسل الذي يخرج من أجوافها، فقال تبارك وتعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل: ٦٨ - ٦٩].

فكما جاز أن يُلهم النحلَ ما تحتاج إليه فتفهمه، حين فهمت الأشجار؛ وميزت الثمار فعرفت ما يخرج منه العسل فقصدته، وعرفت ما لا عسل فيه فتركته، مع عجائب كثيرة من أمرها، ودلائل على أثر الصنع في فعلها، يستدل به من جعل له لبٌّ، ويعرف أثر صنع الله فيه من كان له قلبٌ.

فكذلك فعل الله في المَلَكِ يُلهمه ما أراد إلهاماً، ويلقيه في فهمه إلقاءً، فيكون فعل الله في ذلك منيراً ساطعاً، عند كل من كان ذا عقل نافع، لا يمتنع من قبوله عقل عاقل، ولا يكون عندكل ذي تمييز بحائل.

فإذا ألهمه الله ما أراد سبحانه، ثبت في قلبه بغاية الثبات، كلما(٣) وقع من ربه في الحالات، أثبت وأوضح في قلبه من كلام لوسمعه من غيره؛ لأن هذا الإلهام من الله فعل مفعول في الملهَم، وما كان من فعل الله وإلقائه إلى عبده، فهو أثبت وأوضح من إلقاء مخلوق إلى مخلوق مثله.

---

(١) كذا في (ج). وفي هامشه: بيوتها.
(٢) في (ب) و (ج): وما تحتاج .
(٣) كذا في النسخ، والمعنى أن الكلام الملهم أثبت وأوضح من الكلام المسموع.

(٢١٣/٢)

فهذا معنى ما ماعنه سألت من وصول حكم الله ووحيه، إلى المؤدِّي عنه من ملائكته، ما أراد وشاء من فرضه. فاعمل فكرك في تدبيره، يوصلك ذلك إن شاء الله إلى فهمه، ويوردك إلى ما أردت من علمه.

[كيف يحاسب الله عباده وما معنى الحساب]

وسألت: كيف يحاسب الله العباد يوم القيامة؟ وما معنى الحساب في يوم المعاد؟

والقول في ذلك: أن الله ذا الجلال والإحسان، قد جعل مع كل إنسان؛ ملكين في كل حال، عن اليمين وعن الشمال، يحفظان عليه فعله، ويحصيان عمله، و يكونان شاهدين عليه بكسبه، محصيين مايكون من صنعه، فإذا كان يوم القيامة، ويوم الحسرة(١) والندامة؛ أتى به ملكاه إلى من أمره الله من الملائكة بمحاسبة العباد ـ ومحاسبتهم فتوقيفهم على أفعالهم، وتعريفهم ما كان من أعمالهم ـ ثم شهد(٢) حافظاه عليه، ووقفّاه على ما كان من أمره، وبكّتاه بمعاصيه لربه، ووقفّاه على جرأته على خالقه، فلم يَدَرَا مما تقدم منه شيئاً؛ إلاَّ أو قفاه عليه حرفاً حرفاً.

فهذا معنى محاسبة الرب لعباده.

قال قلت: فما معنى ذلك؛ إذ كان العقاب لا زماً على المعاقبين، والثواب واجباً للمثابين؟!

قيل لك: لأن في تعريف المعاقب ما تقدم من عمله(٣) وتوقيفه على ما أتى به من عمله؛ حسرة عليه في يوم الدين أيما حسرة، وفي تحسره جزء عظيم من عذابه. فكان توقيفه سبباً لتحسره وغمه، وكان تحسره وغمه زيادة في عذابه وخزيه.

وكذلك معنى توقيف الله للصالحين على فعلهم، وإعلام حفظتهم لهم بما حفظوا عليهم من عملهم. فكان ذلك سروراً للمؤمنين، وإيقاناً من المتقين بنجاح فعلهم، وحسن موقعه عند ربهم، وبشارة سابقة إليهم من الرحمن، بما أعد لهم من الجزاء والخير والإحسان، وكان ذلك زيادة من الله في ثوابهم، وبشارة سيقت إليهم في يوم معادهم.

فهذا معنى ما عنه سألت من الحساب ومعناه، وما أراد الله بذلك وشاءه.

---

(١) في (ب): ويوم الحشر.
(٢) في (ج): ويشهد.
(٣) في (ب): من ذنبه.

(٢١٤/٢)

[ما هو يوم القيامة وما معنى القيامة]
وسألت فقلت: ما يوم القيامة؟ وأي شيء معنى القيامة؟
القول في ذلك: أن يوم القيامة يوم جعله الله تبارك وتعلى وقتاً لحشره، وحينا لبعثه ونشره، أبان فيه وعيده ووعده، وأبان فيه ما حتم به من حكمه، أنصف فيه المظلوم، وأظهر فيه الحق المعلوم، فأوصل وعده إلى أوليائه، ووعيده إلى أعدائه، وأقر كلاً في داره، ليعلم كل (١) صدق قوله، ويرى إنفاذ إرادته {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[النمل: ٨٩ - ٩٠].
فأما معنى تسمية ذلك اليوم (بالقيامة)، فمعنى القيامة هي: قيامة هذه الأشياء التي ذكرنا، وقيامها فهو: ظهورها، وظهورها فهو: كينونتها. من ذلك ما يقول القائل: قد قامت الحرب بينهم، يقول: لقحت وبانت، وظهرت واستقامت(٢). ومن ذلك ما تقول العرب(٣): قام السوق، تريد استوى وقام أمره، وحظر ما يطلب به فيه ويُبتغى؛ من البيع والشراء.
فهذا معنى ما أحببت علمه من ذكر الحساب والقيامة. وقلت: هل ما ذكر الله من ذلك، وما شرح(٤) في يوم المعاد؛ فعل يكون ظاهراً؟ أو هو مثل ضربه الله للعباد؟ (٥)؟
ولن يكون ذلك أبداً مثلاً؛ وفيه وعيد الله ووعده، وثوابه لأوليائه، وعقابه لأعدائه، بل أمر لاحقٌ، وبجميع الناس واقع، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون.
[على من يجب النفير في سبيل الله]
وسألت فقلت: مَن يجب عليه النفير في سبيل الله؟

(١) في (أ) و(ب): كلا.
(٢) في (ب): واستفاضت.
(٣) في (أ): ما يقول القائل.
(٤) في (أ): من يوم.
(٥) في (ب): للعبد.

(٢١٥/٢)

واعلم هداك الله أن النفير والهجرة في سبيل الله واجب على كل من عرفه ممن عدم أربعة أشياء، وكان سالماً منها، وهي: العرج والعمى، والمرض والفقر، فمن لم يكن من أهل هذه الأربعة الأشياء فالهجرة عليه والنفير واجبان، والجهاد والقيام لا زمان، لا يفكه عن فرضهما، ولا يزيحه عن واجب أمرهما؛ إلاَّ القيام بهما والأثرة لهما، أو الكفر بمن افترضهما، كما قال الرحمن الرحيم، فيما نزل من الفرقان(١) الكريم؛ حين يقول تبارك وتعالى: {انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١] ثم قال سبحانه - قطعاً منه لحجج المتعللين، واعذاراً وإنذاراً إلى العالمين، وتبييناً لفرضه الأكبر، وإقامة لدينه الأوفر، وحضاً على ما به قوام الإسلام، وصلاح دين محمد عليه السلام -: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ} إلى قوله: {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[التوبة: ٢٤] ، فجعل المتخلفين عن جهاد الظالمين، في الحكم عنده سبحانه من الفاسقين.
وما ذكر به من ذلك أولئك، ومن كان من الخلق كذلك؛ فكثير في القرآن، معلوم عند أهل المعرفة والبيان، يطول شرحه لو شرحناه، ويجزي ما ذكرناه عما تركناه.

(١) في (أ) و (ج): القرآن.

(٢١٦/٢)

وكيف لا يكون من منع الجهاد، وتعلل بالأموال والأولاد(١)، من أشر العباد عند ذي العزة والأياد؛ وقد هتك الدين، وباين رب العالمين، وشرك في دماء المسلمين، وقوى بذلك جميع الفاسقين؟! فكان بخذلانه للدين، وقعوده عن المحقين؛ شريكاً للكافرين، ومعاضداً للفاجرين، إذ كانت - بخذلانه - نيته وسطوته على المحقين، بتخلف المتخلفين مُظاهِرة. فكان محلُّ الخاذل - بخذلانه وقعوده عند الله - محلَّ المحارب بمحاربته، لا ينفك

الخاذل للمؤمنين، من المشاركة للفاسقين، فيما نالوه من المتقين، في حكم أحكم الحاكمين.
فليتق الله ربّه، وليقس بفتره شبره(٢)، وليَتْرُك عنه التعلات، وليحذر من الله النقمات، فقد وضح الحق لطالبه، واستنار الرشد لصاحبه. فلا عذر في تخلف المتخلفين، ولا حجة في تأويل المتأولين، ولا بد من النصرة لرب العالمين، أو الكفر بما أنزل على خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وسلم.
[تكليم الله لموسى]
وسألت عن قول الله سبحانه: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}[النساء: ١٦٤] فقلت: كيف كان الكلام من الله عزَّ وجل لموسى عليه السلام؟ وما معنى قوله: {تَكْلِيماً}؟
واعلم هداك الله أن الله تبارك وتعالى لم يوح إلى أحد من الأنبياء إلاَّ على لسان الملك الكريم جبريل عليه السلام، وكذلك إلى موسى صلى الله عليه، فقد كان منه الإيحاء إليه على لسان جبريل حتى كان في هذا الوقت الذي ذكره الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، فكان من الله إليه(٣) ما ذكره الله سبحانه من الكلام له عليه السلام.

(١) يعني جعلهم له علة وعذراً.
(٢) الفِتر: ما بين طرف السبابة والإبهام إذا فتحهما.
(٣) في (أ): بما ذكره الله، والمعنى، فكان الإيحاء بما ذكره الله.

(٢١٧/٢)

وكان معنى ذلك أن الله سبحانه خلق له كلاماً في الشجرة سمعه موسى بإذنه، كما كان يسمع ما يأتي به الملك إليه من وحي ربه، فكان فهم موسى ـ وسماعه لذلك الكلام الذي شاء الله إسماعه إياه؛ لما أراد من كرامته واجتبائه ـ كفهمه لما به كان يأتيه جبريل عن الله من وحيه سواء سواءً. فلما أن لم يكن بين الله سبحانه وبين موسى صلى الله عليه ـ لهذا الكلام المخلوق في الشجرة ـ مُؤد يؤديه إليه؛ كما كان يكون فعله في غيره مما ينزله عليه؛ جاز أن يقول: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}، يريد: أسمع موسى وأبلغه ما كان يريد من الكلام والوحي إسماعاً؛ بلا مؤد لذلك إليه. فلمَّا أنْ لم يكن بين الله وبين موسى مؤد للكلام إلى موسى ـ وكان المتولي لجعل الكلام وفعله، وخلقه على ما سمعه موسى من البيان، والكفاية والتبيان ـ قال الله سبحانه: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} معنى {تَكْلِيماً}، هو: تأكيد للإخبار منه عزَّ وجل بما كان من عجيب فعله، وعظيم قدرته، وظاهر برهانه، وما ازداد موسى به بصيرة إلى بصيرته؛ من خلقه لكلام ينطق من غير لسان؛ كما ينطق به ذوو اللهوات والأدوات، واللسان والآلات.
فهذا معنى قوله: {تَكْلِيماً}، لا كما يقول به الجاهلون، وينسب إلى الله الضالّون، من تشبيهه لخلقه، ونَسْبِ الكلام إليه على طريق التكلم به؛ كما يعقلون من كلام الآدميين، ويعرفون من كلام المخلوقين، تعالى عن ذلك أرحم الراحمين، وجل أن يكون كذلك ربُ العالمين.
[ما هو معنى الصور وكيف هو]
وسألت عن الصور، فقلت: ما هو؟ وكيف هو؟ وعلى أي صفة هو؟
واعلم رحمك الله أنَّه ليس ثم صور ينفخ فيه كما يقول الجاهلون، ويلفظ به العَمُوْن، وإنما الصور الذي ذكر الرحمن، فيما نزل من واضح النور والبرهان، هو: جَمْيعُ الصوَر، والصور: جمع الصور والعرب(١) تقول: صورة وصورتان وصور، ثم تجمع الصوَر، فيكون جمعها صُوْراً.
فهذا معنى الصور.

(١) في (ج): فالعرب.

(٢١٨/٢)

ونفخ الله فيها في النفخة الأولى فهو: إفناؤها، وهو نفخه فيها، وهي الأبدان والصور ـ صور المخلوقين(١) وأبدان العالمين ـ لما أراد من هلاكها، وفنائها ودمارها، فواقعها وحل بها من الله سبحانه ما أزالها، وحق(٢) بها منه ما أبادها، وواقعها منه ما أتلفها(٣)، فصارت بنفخ الله فيها، وما وعدها من الموت والفناء؛ إلى الزوال والإنقضاء.

فهذا معنى ما ذكر الله من النفخة الأولى في الصور المصورة، والأجسام المفتطرة.
ومعنى النفخة الأخرى، فهي: نفخة الله الثانية، في الصور والأبدان المتمزقة البالية؛ لما أراد الله من حيوتها ونشرها، وتجديدها وبعثها من بعد موتها، فكان نَفْخُه بالحياة فيها، نفخة ثانية أخرى بعد النفخة المهلكة الأولى. فكانت النفخة الأولى للهلكة(٤) والوفاة، وكانت النفخة الأخرى للنشور والحياة، قال الله تبارك وتعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}[الزمر: ٦٨]، فأخبر سبحانه أن النفخ على المعنيين، وأن له حالين مختلفين؛ إذ كان حال الأولى؛ ما أوجبه الله من حال الهلاك والانقضاء، وحال النفخة الأخرى، ما جعل الله فيها وبها من حال الحياة بعد الفناء.
فافهم ما قلنا، واعرف من ذلك ما شرحنا؛ من شرح النفخ ومعناه، وأنه ما واقع الصور أولاً(٥) وآخراً من مراد الله وفعله، وما حكم به سبحانه في خلقه.
[ماهي الأرواح ولماذا لا تموت مع الأبدان]
وسألت عن الأرواح فقلت: ما هي، وكيف هي؟ وقلت: كيف يميت الله الجسم ولا يميت الروح والله عدل لا يجور؟!
فكذلك الله سبحانه عدل في فعله، حكيم في صنعه، لا يجور على أحد من خلقه.

(١) في (ج): صور الخلق.
(٢) في (أ) و (ج): وحقّها. وأثبت في (ج) ما هنا نخ.
(٣) في (ج): ما أتاها.
(٤) في (ب):المُهْلِكَة.
(٥) في (ج): الأولى والأخرى من مراد الله.

(٢١٩/٢)

فأما ما قلت وسألت عنه؛ من صفة الروح وتفسيره؛ فالروح: شيء خلقه الله قواماً للأبدان، وحياة للإنسان، به تعمل الجوارح المجعولات، وتتصرف الاستطاعة المخلوقة، تَعْدَمُ الجوارحُ الاستِطاعَةَ بعدمه، وتثبت فيها استطاعتها بوجوده، شيء(١) خلقه الله وصوره، وجعله بحكمته وافتطره؛ لحياة(٢) الأبدان والأعضاء، ويعيش به ما جعل الله في الأبدان من الأشياء، به تبصر الأعين المبصرة، وبه تسمع الأذان السامعة، وبه تنطق الألسن، ويشم الأنف، وتبطش اليدان، ويُميِّز القلب وتمشي الرجلان؛ فجعله قواماً لما حوت الأبدان، ودليلاً على قدرة الرحمن، ضعيف محدود، تضمه الأبدان المؤلفة، وتجمعه الأعضاء المتفرقة، ويحويه الجسم ويَحُدُّه، مخلوق مجعول، وكائن بتدبير الله مفعول.
فهذه صفة الروح، وبيان ما عنه سألت منه وشرحه.
فإن قلت: انعته لي بصفة غير هذه الصفة أقف عليه بها؛ من لون وطول وعرض، وغير ذلك من الصفات.

(١) في (ب): شَيئاً ولا وجه له.
(٢) في (ج): بحياة.

(٢٢٠/٢)

قلنا لك وأجبناك: بأن الذي ذكرت محجوبٌ عنا استأثر الله بعلمه، وأبى أن يُطْلِعَ أحداً على قدرته، فقال لمن سأل نبيه عما سألت من الروح وتقديره، وصفته بغير ما وصفناه : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}[الإسراء: ٨٥] فلم يُنَبِّه عليه السلام ولا إياهم(١) من علم الروح وصفته؛ على غير ما ذكرناه من نعته، وقال: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} يقول: من فعل ربي وخلقه، وتدبيره وصنعه(٢)، والشاهد له بالحكمة. ولم يصف الروح بغير ما وصفنا، ولم يستدل عليه بغير ما دللنا، ولس في نعت ذلك لأحد حجة، ولا لأحدٍ إلى علم كيفيته حاجة، وليس عزوب علم ذلك على الآدميين؛ إلاَّ كعزوب علم غيره من الأشياء، مثل: معرفة صورة ملك الموت، وصورة مالك خازن النار، وصورة إبليس وجنده، فهم خلق من خلق الله، قد أطْلَعَ(٣) على تكوينهم وتقديرهم، شَكْلَهم ومِثْلَهم؛ من الملائكة والشياطين(٤)، وحَجَب علم ما علمته(٥) أشكالهم - من تصويرهم وتقديرهم - عن(٦) الآدميين، فليس من الآدميين خلقٌ يصف ما ذكرنا بطول ولا عرض، ولا جسم ولا لون.

فهؤلاء مخلوقون يَصِفُهمْ بما ذكرنا شَكْلُهُم، ويَعرف ذلك مِثْلُهُم، قد عجز عن وصفهم الآدميون، وانحسروا عن تحديدهم، وعجزوا عن شرح ألوانهم وهم خلق من خلق الله قد أظهَرَه، وفعلٌ من فعله قد بيّنه، لم يُحْجَبْ أمْثالَهم منه شيئاً، ولم يستر عن أشكالهم منه جزءً، عَجَزَ عقْلُكَ وعقول أشكالك أيها السائل عن صفتهم، وانحسرت ونظراءك عن تحديدهم، وانْقطَعْتَ وَهْمُ عن تقديرهم.

(١) في (أ): فلم يعط نبيه عليه السلام.
(٢) في (ب): وصنعته.
(٣) في (ج): قد اطلع على تكوينهم.
(٤) يعني أنه لا يعرف شكل الملائكة والشياطين إلا من كان من جنسهم وشكلهم.
(٥) كذا في (ج)، ولعلها: علم ما عليه.
(٦) في (ج): عن.

(٢٢١/٢)

فكيف تريد أن تحيط بصفة ما ستر الله علمه، وتقف على تحديد ما منع الله الخلق فهمه؟! ولم يبين(١) من علم كيفيته في نفسه قليلاً ولا كثيراً للملائكة المقربين، ولا للأنبياء والمرسلين، ولا لأحد من المخلوقين. فهذا طلب منك للمحال، وجري في ميادين الضلال، وتشبث بفاسد من المقال.
وقد وصفنا لك الروح، وبيناه بالدلائل التي بينه الله لنا بها، وهدانا سبحانه إليها، حتى عرفته(٢) بغاية المعرفة المفهومة، واستدللت عليه بأدل الدلائل المعلومة، التي دلتك على تحديده، وأوقفتك على تقديره، وشهدت لك على أثر صنع الله في تدبيره، وأوضحت لك أنَّه فعل من الله مجعول، وأنه مبعض مفعول، تَضُمُّه الأعضاء، وتحوزه الأجزاء، وتحويه الأبدان، بأبين البيان وأنور البرهان.
فميزّ قولنا، وتدبر شرحنا؛ يَبِنْ لكَ أمرك، ويصح لك من ذلك محبوبك.
وقلت: كيف يميت الله البدن ولا يميت الروح؟! وكل سيموت. فأما معنى تأخير الله لإماتة الروح(٣)، فإن ذلك بحكمة الله وفضله(٤)، وما اراد من الزيادة في كرامة المؤمنين، واراد من الزيادة في عذاب الفاسقين. فجعل الأرواح حية باقية إلى يوم الدين، ليكون روح المؤمن من بعد فنآء بَدنه في البشارات والسرور، والنعيم والحبور، بما يسمع من تبشير الملائكة بالرضى والرضوان، من الواحد ذي الجلال والسلطان، وما أعد له من الخير العظيم، والثواب الجسيم، كل ذلك يتناهى إليه علمه، ويصل به من ربه فهمه، فيكون ذلك زيادة في ثوابه، ومبتدأ ما يريد الله من إكرامه، حتى يكُونُ يومُ القيامة المذكور، ثم ينفخ في الصور النفخة الأولى فيقع بهذا الروح من الموت ما يقع بغيره في ذلك اليوم، فيموت ويفنى، كما فني البدن أوَّلاً.

(١) في (أ): يتبين.
(٢) في (ب): عرفناه.
(٣) في (ب): معنى خبر الله من إحياء الروح.
(٤) في (أ): بحكم الله.

(٢٢٢/٢)

وكذلك تدبير الله في إبقاء روح الكافر بعد هلاك بدنه؛ لما في بقاء روحه عليه من الحسرة والبلاء؛ بما يعاين ويوقن ويبلغه من إخبار الملائكة وذكرها لما أعدَّ الله له من الجحيم، والأغلال، والسعير وشرب الحميم، وما يصير إليه غداً من العذاب الأليم، فروحه في خزي وبلاء، وحسرات تدوم ولا تفنى، وحلول العويل به والشقا، فيكون ذلك زيادة في عذابه وبلائه، ومُقَدَمة لما أراد الله من إخزائه، حتى ينفخ في الصور، فيحق بهذا الروح ما حق بغيره من الفوت، ويواقعه ما واقع جسمه من الموت. ثم ينفخ النفخة الثانية من بعد موت كل شيء، وهلاك كل حي، ما خلا الواحد الأحد، الفرد الصمد، المميت(١) الذي لا يموت، المحيي الذي لا يخشى من شيء فوتاً. ولو كانت الأرواح تموت مع موت الأبدان؛ لكان في ذلك فرج(٢) وراحة للكفار(٣)، وغفلة وفرحة للأشرار، ولكان ذلك غماً وكآبة على المؤمنين، ونقصاناً وتضعضعاً لسرور الصالحين.
فافهم باب حكمة الله وتقديره، وصنعه في ذلك وتدبيره، وما جعل في تأخير موت الأرواح من الكرامة

للمؤمنين، والهوان للفاسقين، فإن أنت أفكرت(٤) في ذلك بخالص لبك، واستعملت فيه ما جعل الله من مركب(٥) فكرك، صحت لك آثار الحكمة في ذلك، وبان لك الأمر من الله سبحانه كذلك

[التفاضل بين الأنبياء والملائكة]

وسألت أكرمك الله عن الملائكة والأنبياء صلوات الله عليهم فقلت: أيهم افضل؟

والجواب في ذلك أن الملائكة أفضل من الأنبياء. والحجة في ذلك أن الفضيلة لا تكون إلاَّ بفضل الأعمال، فلما وجدنا الملائكة أفضل أعمالاً(٦) وأكثر عبادة، حكمنا لها بالفضل على من دونها عملاً.

(١) في هامش (ج): الحي.
(٢) في (ج): فرح.
(٣) في (ج): للكافر.
(٤) في (ج): فكرت.
(٥) في (ب): من تركيب.
(٦) في (ب): الأعمال.

(٢٢٣/٢)

ألا تسمع كيف يشهد الله لها بكثرة العبادة، ودوام الطاعة؟ حين يقول عزَّ وجل: {وَلَهُ مَنْ فِيْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتَرُونَ}[الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠]، فذكر سبحانه عنهم ما ذكر من عبادتهم، ودوام طاعتهم، في التسبيح له والتقديس في الليل والنهار لا يفترون، ومن كان عابداً لله الليل والنهار لا يفتر؛ خلاف من هو يفتر في الليل والنهار، ويشتغل بلذات نفسه، وشهوات قلبه من الجماع، والمآكل والمشارب(١) والنوم والجلوس والحديث.

فلما أن صح عندنا أن الملائكة مأمورة ومنهية كالأنبياء مختارة للطاعة كاختيار الأنبياء، قادرة على ضد الطاعة لو أرادته، بما جعل الله فيها من الاستطاعة والتمكين. ثم وجدناها قد استعملت ذلك كله أثرةً لله، وإقبالاً على طاعته، ففرغت أنفسها الليل والنهار في عبادته لا تفتر، حتى شهد الله لها بذلك؛ كانت عندنا أفضل من الأنبياء، لما ذكرنا(٢) من فضل عملها، ودوام طاعتها.

ومن الدليل على فضل الملائكة على الأنبياء قول الله عزَّ وجل: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ اَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}[النساء: ١٧٢] فقال سبحانه: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ} ثم قال: {وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} فذكر الملائكة بعد الميسح، فعلمنا أنَّها أكبر منه وأعظم وأفضل. وأقل مما ذكرنا ما كفى؛ من كان ذا فهم واجتزاء.

[معنى السموات مطويات بيمينه]

وسألت عن قول الله سبحانه: {وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}[الزمر: ٦٧].

(١) في (ج): والمشروبات.
(٢) في (ج): بما ذكرنا.

(٢٢٤/٢)

وهذا رحمك الله مثل ضربه الله لهم، مما تعرفه العرب وتمثل به. وذلك أن العرب تقول لمالك الشيء: هو في يده، و هو في يمينه، وهي تريد بذلك تأكيد الملك له؛ لأن كل ما كان في يد المالك فهو أقدر ما يكون عليه.

(واليد في كلام العرب هي الملك)(١) .

ألا تسمع كيف يقول العرب: بلاد كذا وكذا في يد فلان، قرية كذا وكذا في يد فلان.

وتقول العرب: بنو فلان في يد فلان، يريدون في طاعته وملكه؛ لا بين أصابعه ولا في كفَّه، فأرادوا بذلك الملك، ونفاذ الأمر فيهم، لا القبض بالأصابع والضم لها عليهم(٢).

فأخبر الله تبارك وتعالى أن مقدرته على ما ذكر من السماوات المطويات، فوق مقدرتهم على ما هو في ملكهم.

(فأما قوله: {مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}[الزمر: ٦٧] فإخبار منه لهم أن السماوات مطويات في ملكه) (٣)، متصرفات في أمره، مجموعات في حكمه، كما يجمع الشيء المطوي جامعه، ويحوزه ويضم عليه طاويه.

فمثل لهم أمر نفاذ حكمه في السموات وقدرته عليهم؛ بما يعرفون من مقدرتهم على ما يطوونه وينشرونه؛ من

كتب أو صحف، أو غير ذلك من المطويات المملوكات.
فهذا ما عنه سألت من قول الله سبحانه في السموات إنهن مطويات.
[الفرق بين الاسم والمسمى]
وسألت عن الفرق بين الاسم والمسمى.
والفرق بينهما، بقاء الاسم، وفناء المسمى، وتناسخ الاسم(٤)، واشتراك المسمين(٥) فيه. فلما أن رأينا الاسم الواحد ينتقل في المسمين؛ علمنا أن الاسم غير المسمى، وأنه دلالة على المسمى وعلامة له، ليست به ولا هو بها.
ومن الدليل على ذلك أنك تسمي بالاسم مسمى؛ ثم يموت المسمى فَيَبلى؛ والاسم باق لم يفن. ولو كان الاسم هو المسمى؛ لعَدِم بعدم الجسم ولزال ولتغير بتغيره، ولما أمكن بأن يكون لغيره.

---

(١) سقط من (أ).
(٢) في(ب): عليه.
(٣) سقط من (أ).
(٤) أي تعاقبه على أكثر من مسمى.
(٥) في (ب) و (ج): المسمى.

(٢٢٥/٢)

وهذا الأمر فأبين ما يكون، ولن يخلط في الفرق بين الاسم والمسمى، حتى يقول: إن الاسم هو المسمى إلاَّ جاهل عمي، وضال غوي، لا يفرق بين علامة ولا معتلم(١)، ولا دلالة ولا مستدل عليه، ولا عرض ولا جسم.
فافهم ما قلنا به في ذلك و شرحناه؛ بين لك إن شاء الله صدق ما قلناه.
[معنى: كل نفس بما كسبت رهينة]
وسألت عن قول الله سبحانه: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}[المدثر: ٣٨].
فمعنى قول الله سبحانه: {رَهِينَةٌ} أي مرتهنة، ومعنى مرتهنة: مأخوذة، ومعنى مأخوذة هو: مجازاةٌ بعملها، مكافاة على فعلها. فأخبر سبحانه أن كل نفس بكَسْبها مأخوذة، وكسبُها فهو عملها، وأخذه لها سبحانه بعملها، فهو إنفاذ وعده ووعيده لها، {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[النمل: ٨٩-٩٠]، {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}[الأنعام: ١٦٠].
[وسوسة إبليس]
وسألت عن وسوسة إبليس كيف تكون منه إلى الآدمي؟
والوسوسة منه فإنما هي المقاربة والمداناة، والموالفة والمساواة.

---

(١) في (ب): متعلم.

(٢٢٦/٢)

وذلك أن إبليس اللعين بني على الفطنة والذكاء، والسرعة والمعرفة بمعاني الأشياء، التي ربما عرفها الآدميون، واستدركها منهم الفطنون، فيعرف إبليس اللعين في حركات الإنسان ووجهه؛ دلائل يستدل بها على ما أضمر في قلبه، من المعاصي لربه، فإذا رأى تلك الدلائل والعلامات في وجهه؛ استدل بهن على بعض ضميره، فإذا رأى في وجهه علامات إضمار المعصية، وتبين له أنَّه قد هم بغير الطاعة، واستبان ذلك من شواهد(١) حركات الآدمي، كما استدرك(٢) كثيراً من ذلك الآدميون بعضهم من بعض، بما يرون(٣) من شواهد ذلك ودلالاته وعلاماته، حتى ربما فطن الإنسان لصاحبه ما يريد منه، وما يريد في كثير من أمره، وكذلك يستبين منه الغضب والرضى، والسرور والغم، يتبين كل واحد من هذه الأشياء في وجه صاحبه، حتى يعرفه أهل الفطنة والفهم بما يظهر من شواهده في وجه مضمره، وكل يتبين الفزَع والرُعب في وجه المرعوب والفزِع لمن كان ذا فطنة.
فكذلك وعلى ذلك، وبالشواهد في وجوه أولئك، يعرف إبليس اللعين ما أضمره صاحب المعصية والخطيئة، فإذا

أيقن إبليس بذلك من الآدمي دانى قلبه وقاربه ولاصقه. وإبليس فَهَمَّهُ وإرادته ومعناه: المعصية واللعنة، فإذا قارب هذا الشكل من إبليس اللعين زيادة شكل المعصية التي هي في قلب الآدمي؛ قويت نيَّة الآدمي بالمعصية بمقاربة ما في قلبه من المعصية لشكله وهو إبليس؛ فيقوى الشكل بمقاربة شكله، والجنس بمقارنة جنسه، كما يقوى كل شيء بمداناة مثله، ومقاربة شكله.

فهذا معنى وسوسة إبليس، هو بالمقاربة والمداناة، لا بالمكالمة والمناجاة.

(١) في (ج): منه بشواهد.
(٢) في (ج): يستدرك.
(٣) في (ب): بما يأتمرون.

(٢٢٧/٢)

ومثل قوة المعصية في قلب الآدمي؛ بمداناة شكلها من هذا اللعين الجِنّي؛ مثل الجمر جَعَلْتَ منها في بيت جماعة(١) خمسين رطلاً جَمْراً متوقداً يَقِدُ بَعْضُهُ في بعض؛ ثم أتيت بمائة رطل أخرى جمراً متوقداً، و ألقيته إلى جنب ذلك الجمر الأول، فقوي عمل الأول بعمل الآخر، وقوي عمل الآخر بعمل الأول، واشتد عملهما، وصَعُبَ أمرهما، حتى لا يُطيق من في البيت أن يجلس فيه ولا يقوم مع شدة ما فيه من حرِّ النار وتلهبها، وقوة بعضها ببعض، فقوي عمل الجزئين بمقاربة أحدهما لصاحبه؛ إذ هما شكل واحد ومعنى واحد، ولو أفرد كل واحد منهما وفرق بينهما؛ لم يكن عملهما متباعدين كعملهما متقاربين.

فعلى هذا ومثله، من قوة الشكل بشكله، تكون وسوسة إبليس لصاحبه الآدمي، المضمر لما أضمر إبليس، المشاكل له بالإضمار في عمله، والمقارب بإضماره له في فعله.

فافهم ما ذكرنا من معاني الوسوسة، وفطنة إبليس لما يفطن به(٢) في الآدمي من المعصية.

وقد قال غيرنا في ذلك بأقاويل، فزعموا أنَّه يجري في الآدمي مجرى الدم، (في الأبشار)(٣)فاستحال ذلك عند من فهم؛ لأنَّه لا يجوز أن يدخل جسم في جوف جسم، فيجري في عروقه، ويجتمع في بدن واحد روحان، روح ساكن، وروح متحرك، هذا محال أن يستجن(٤) في جسم واحد روحان، ولا يدخل في جسم جسمٌ؛ لأن هذا لا يعرف في الأجسام، ولا يتهيأ ولا يثبت في العقول، فلما لم تقبله العقول(٥) استحال أن يكون شيئاً معقولاً.

وقال قوم: يَلْقى إبليس روح الآدمي (عند جولانه في وقت منامه، فيأمره وينهاه، ويزين له ما يريده ويشاه.

وقالوا: لا تكون الوسوسة من إبليس إلاّ من بعد النوم، ويلقى روح الآدمي) (٦) عند خروجه من بدنه، وجولانه بعد نومه، فيكون منه إليه ما ذكرنا، ويُلقي إليه ما قلنا.

(١) في (أ): في بيت فيه جماعة.
(٢) في (ج): يفطن له.
(٣) سقط من (أ) و (ج).
(٤) في (ج): أن يسكن.
(٥) في (ج): فلما نفته العقول.
(٦) سقط من (أ).

(٢٢٨/٢)
